

AMLY

يوسف السباعي



الملك



يوسف السباعي



الخف راحلة



للمؤلف

أطباف	(قصص قصيرة ١٩٤٧)	الناشر مكتبة الخانجي
نائب عزرائيل	(رواية ١٩٤٧)	» » »
اثنتا عشرة امرأة .	(قصص قصيرة ١٩٤٨)	» » »
خبايا الصدور	(» » ١٩٤٨)	» » »
يا أمة ضحكت	(» » ١٩٤٨)	» » »
اثنا عشر رجلا	(» » ١٩٤٩)	» » »
أرض النفاق	(رواية ١٩٤٩)	» » »
في موكب الهوى	(قصص قصيرة ١٩٤٩)	» دار الفكر العربي
من العالم المجهول	(» » ١٩٤٩)	» مكتبة الخانجي
هذه النفوس	(» » ١٩٥٠)	» دار الفكر العربي
إني راحلة	(رواية ١٩٥٠)	» مكتبة الخانجي
مبكي العشاق	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	» دار الفكر العربي
بين أبو الريش وجنية ناميش	(قصص قصيرة ١٩٥٠)	» مكتبة الخانجي
أغنيات	(قصص قصيرة ١٩٥١)	» » »
أم رتيبة	(مسرحية . . . ١٩٥١)	» » »
هذا هو الحب	(قصص قصيرة ١٩٥١)	» دار الفكر العربي
صور طبق الأصل	(» » ١٩٥١)	» مكتبة الخانجي
بين الأطلال	(رواية ١٩٥٢)	» » »
السمات	(» ١٩٥٢)	» » »
سماز اللبالي	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	» دار الفكر العربي
الشيخ زعرب	(» » ١٩٥٢)	» مكتبة الخانجي

نضجة من الإيمان . .	(قصص قصيرة ١٩٥٢)	الناشر دار الفكر العربي
وراء الستار	(مسرحية ١٩٥٢ . . .)	» مكتبة الخانجي
ست نساء وستة رجال	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	» » »
هذه الحياة	(» » ١٩٥٣)	» دار الفكر العربي
البحث عن جسد . .	(رواية ١٩٥٣)	» مكتبة الخانجي
جمعية قتل الزوجات .	(مسرحية ١٩٥٣ . . .)	» النهضة المصرية
فديتك يا ليلي	(رواية ١٩٥٣)	» مكتبة الخانجي
ليلة خمر	(قصص قصيرة ١٩٥٣)	» » »
همسة غابرة	(» » ١٩٥٣)	» دار الفكر العربي
رد قلبي	(رواية في جزئين ١٩٥٤)	» مكتبة الخانجي
ليال ودموع	(قصص قصيرة ١٩٥٥)	» » »
طريق العودة	(رواية ١٩٥٦)	» الشركة العربية
أيام عمر	(مقالات ١٩٥٧ . . .)	» » »
من حياتي	(» » ١٩٥٨ . . .)	» » »
لطائف وثقات	(مقالات ١٩٥٩)	الناشر المكتب التجاري ببيروت
نادية	(رواية في جزئين ١٩٦٠)	الناشر مكتبة الخانجي
جفت الدموع	(رواية في جزئين ١٩٦١)	» » »
أيام مشرفة	(مقالات ١٩٦١ . . .)	» » »
أيام وذكريات	(» » ١٩٦١)	» » »
أيام من عمري	(» » ١٩٦٢)	» » »
ليس له آخر	(رواية في جزئين ١٩٦٤)	» » »
أقوى من الزمن . . .	(مسرحية ١٩٦٦ . . .)	» » »
نحن لا نزرع الشوك .	(رواية في جزئين ١٩٦٨)	» » »
لست وحدك	(رواية ١٩٧٠)	» » »

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لله

إلى أحب من وفى

وأوفى من أحب .

إلى الحبيبة الأولى :

أم « يسا » و « اسماعيل »

بروف الطاهر

الصور بريشة الفنان الأستاذ

ممن محمد ممن

مقدمة

الطبعة الأولى

جلست ذات مرة والمرحوم الأستاذ « المازني » ، في مسامرات الجيب ، وأذكر أن صاحب المجلة الأستاذ « عمر عبد العزيز » ، كان يعد العدد لإصدار عدد من المسامرات خاص بالقصة ، وأنه سأل الأستاذ « المازني » ، أن يكتب للمجلة قصة قصيرة

وقد أجاب الكاتب الكبير وقتذاك بأنه يكره كتابة القصة القصيرة ، ووجه لي القول مداعباً بأنه يشفق عليّ من كتابة قصة كل أسبوع لأنه يعتبر القصة القصيرة عملية إجهاض ، وأن هذه القصة القصيرة المضغوطة المفتضبة في بضع صفحات كان يمكن أن تستكمل نموها فتصبح قصة طويلة قائمة بذاتها ، وأنها لو تركت تنضج وتستوى لأصبحت ثمرة شبيهة مغذية بدلاً من أن تقطف هكذا « عجر » ، وبدلاً من أن يجهض الكاتب نفسه فينزل القصة وهي ما زالت جنيناً .

ورغم أني لم أنفق مع الأستاذ المازني في رأيه تمام الاتفاق ، ورغم اعتراضى بأن القصة القصيرة شيء قائم بذاته ، وأنها رغم صغرها وانكماشها مخلوق مستكمل النمو ، وثمره تامة النضج . . . رغم اعتراضى هذا . . . أشعر في كثير من الأحيان بمدى ما في قول المازني من الصحة . . . فإن الجهد الذي أبذله في كتابة قصة قصيرة ، مركز في خلق الفكرة « لجو » ، لا في الاسترسال وسرد التفاصيل . . . فإن مجرد بداية القصة هو أشق ما فيها وأنا قد أستغرق يوماً كاملاً في كتابة الصفحة الأولى من القصة . . . وقد أجلس وأقوم . . . وأقوم

وأجلس ، وأمسك القلم فترة طويلة ... ثم أترك الورق دون أن أكتب شيئاً .
فإذا ما كتبت الصفحة الأولى ودخلت في صميم القصة اندفع القلم يكتب بلا توقف
وملأت الصفحة تلو الصفحة دون إحساس بأنى أفعل شيئاً ، ولا تصبح المشتتة
عندئذ في الكتابة بل في التوقف عن الكتابة .

فالمكان المخصص للقصة القصيرة في المجلة محدود ، ولا بد من ختامها بعد
عدد معين من الصفحات ... وهكذا أجد نفسى مضطراً إلى « فرملة » القلم ،
وإلى أن أنتزع نفسى من جو القصة وأختتمها في بضعة أسطر في الوقت الذى
أحس فيه أنه ليس أحب إلى من الاستمرار في القصة .

ولذا فقد كنت دائماً شديد الحنين إلى أن أكتب قصة طويلة ... ولكن
الفرصة لم تتح لى ... فقد كانت الأعمال الكثيرة المتناقضة التى أخذت بها
نفسى تشغل كل وقتى ... وكان من العسير أن أجد فسحة من الوقت أضيعها
في كتابة القصة الطويلة .

وهكذا ظللت حتى حل الصيف الماضى « صيف ١٩٤٩ » ، وسافرت إلى
الاسكندرية بعد أن توفرت لىّ بضعة قصص قصيرة تريحنى من الكتابة بضعة
أسابيع ، وصممت على أن أمضى هذه الأسابيع في راحة تامة . وبدأت الراحة ،
وأنا مخلوق لم يتعود الراحة ، فوجدت الحنين إلى الكتابة يعاودنى ، ووجدتها
فرصة سانحة أستغلها لكتابة قصة طويلة .

ومضت بضعة أيام وأنا أحاول البداية حتى نجحت فيها ... واندفعت
بعد ذلك في الكتابة ، أعيش في جو القصة وأرتع بين أبطالها .
وبدأت ألتقى اللوم عن حولى ... وقالوا لى لى في أجازة ولست في أشغال
شاقة ... وإن من الجنون أن أكتب عشر ساعات في اليوم ... ولكنى

استمررت في الكتابة ، حتى أصابني الملل ، وأنهكتني الجهد ، فكرهت الكتابة ،
وكرهت القصة ، وكرهت أبطالها ، وكرهت نفسي .

وحاولت أن أستعيد في ذهني ما كتب وأنا مجهد متعب ... فوجدتني
لم أكتب سوى سخافات ، ورأيت أن هذه القصة التي بذلت فيها كل هذا الجهد
ستكون أنفه ما كتبت .

وتركت الكتابة ، وأخذت إلى الراحة ... وقلت لنفسي : إن كرهى للقصة
هو نتيجة الإفراط في الكتابة .

ومرّ يوم دون أن أكتب ... ولكنى لم أكّد أحس ببعض الراحة حتى
عاودت الكتابة .

وأخيراً انتهيت من القصة بعد عشرين يوماً
أجل إن كتابتها لم تستغرق أكثر من عشرين يوماً ... فقد كان علىّ أن
أنهى منها قبل أن تنتهى الإجازة ... ويشغل كل وقتي بأعمال الداية .

ولست أدري مدى نجاحي في كتابتها ، ولا مداها من الجودة أو السخف .
فلقد تركتها بعد كتابتها ، فلم أقرأها إلا مرة واحدة في بروفات التصحيح قبل
الطابع ... ولقد شعرت في هذه المرة أنّي قد أحببتها وأحببت أبطالها .

وإنى لأجد في رضائي عنها أول ثمن أتلقاه على ما بذلت فيها من جهد ...
أما بقية الثمن فهو رضاكم أنتم ... فإن دفعتموه فيها ونعمت .

وإلا ... فكفاني إعجابي بها ورضائي عنها ، وأغنانى الله عنكم وعن رضاكم
وإعجابكم ... لأنى قد كتبها أولاً لنفسي ... ثم لكم .

والسلام عليكم ورحمة الله .

برسيف السباعي

مقدمة

الطبعة الثانية

كنت في مقدمة الطبعة الأولى قلقاً على مصير الكتاب بين القراء وقلت
إنى حصلت على بعض ثمن مجهودى فيه وهو إعجابى أنا به ، ثم تمنيت أن أحصل
على بقية الثمن وهو إعجابهم به .

وأكون ناكراً للجميل إذا لم أعترف بأنى تلقيت الثمن مضاعفاً ... وأن
القراء كانوا كرماء معى إلى أبعد حدود الكرم ... بل إلى أبعد مما أشعر أنى
أستحق .

وقد تعود بعض الكتاب أن يرصعوا كتبهم بأقوال التقدير والمدح من
ذوى الحيثية من الصحافة ورجال الأدب ... ولكنى أشعر أنى فقير فى هذه
المرصعات ... لست أدرى لماذا ؟ قد يكون السبب هو أنى لا أكتب أدباً ...
أو يكون لأن رجال الأدب لا يقرأون الأدب .

على أية حال ... لقد أغتاتنى الله عن تقدير ذوى الحيثية بتقدير القارىء
العزیز المجهول ... التقدير المخلص الحار ، الخالى من النفاق والرياء ، الذى
لا يرجو ثمناً ولا يطلب رداً .

ورغم أنى كنت أكره نشر هذه المرصعات ، ورغم أنى كنت أعيب على
الكتاب أن يقدموا كتبهم بمدح فى أنفسهم ... إلا أنى أشعر هذه المرة برغبة
فى المغامرة بنشر تقدير مجهول ترك فى نفسى أبلغ الأثر .

دق التليفون فى منتصف ذات ليلة ... وأنا أقطن فى بيت محظور على أهله

التجول بعد التاسعة ... ومحظور عليهم اليقظة بعد العاشرة ... ودق التليفون في منتصف الليل يعنى لديهم نبأ بكارثة ... فلم يكد الجرس يدق حتى هبوا جميعاً مذعورين من نومهم ... وكان أسبقنا إلى التليفون الخادمة و صلوحة ، ووقفت تصيح في الساعة :

— آلو ... آلو .

دون أن يجيبها أحد .

وعدنا إلى مضاجعنا بين السخط على الإزعاج الطارىء والحمد لله على السلامة من نتائج المحتملة .

ولكننا لم نكد نضع رؤوسنا على الوسائد حتى عاد الجرس يدق ... فهبنا ثانية . وكان أولنا وصولاً إلا التليفون هو عمى ... ولكنه لم يفز من الطالب بإجابة .

وعدنا إلى الفراش لنهب مرة ثالثة وفي هذه المرة كنت أنا المجيب قلت :

— آلو ... آلو .

وأق إلى الصوت وجلاً خائفاً ناعماً متسائلاً في ارتباك :

— الأستاذ يوسف السباعي ؟

وأخذت . ولكنى لا أملك سوى أن أجيب :

— أيوه يافندم .

وأدرك أهل البيت من ردّي أن الطالب قد تحدث أخيراً وكما سبق القول لم يكن أحد منهم يتوقع من مكالمة في منتصف الليل ... إلا أن يكون نبأ وفاة .

وهكذا وقفت ممسكاً بالتليفون ، ومن حولي حمى مخلقاً ، وزوجتي فاعز

فأما ، وحماتي في فراشها لا أستطيع النهوض وتصيح في شبه ولولة :

— مين مات ؟

ومن الناحية الأخرى في التلفون أتى الحديث الناعم الوجمل يقول :

— أنا معجبة بكتاب قريبهولك ... وعائزه أبلغك إعجابي .

وأذهلني قولها ... وأذهلني أكثر منه صبيحة زوجتي متسائلة في ذعر ..

وقد نقد صرها :

— حد جراه حاجه ؟

وأبعدت السماعه عن في وطمأتها بقول :

— لا ..

— أمال إيه ؟ مين بيتكلم ؟

ولم أجد بداً لطمأنتهم على أن أحداً لم يمت من أن أقول الحقيقة فأجبت

والساعه بعيدة عن في :

— دى واحدة معجبة .

وصاحت زوجتي غير مصدقة :

— مش ممكن ... انت بتكذب .

وكان تكذيبها لي معقولا ، فأنا في نقل أنباء السوء قد عودتهم الكذب ..

فقد سبق في موقف مشابه لهذا أن أنبئت في التلفون عن أخبار وفاة فأنكرتها

عليهم حتى الصباح حتى أجنبهم المفاجأة وحزن الليل وسهره .

وعلى ذلك فقد أيقنوا من قول أن المتحدث معجبة هو من باب الكذب

ولإخفاء أخبار الوفاة ، وأصروا جميعا على أن المتحدث يبلغني عن وفاة

عزيز لدينا

وصحت أؤكد :

— قولتلكم واحده معجبه .

وعاد الإنكار :

— مش ممكن ... انت بتكذب .

وضقت ذرعاً ... ولم أجد من وسيلة للتأكيد خيراً من أن أعطي الساعه

لزوجتي لتسمع بنفسها حديث المعجبه .

ولكن المعجبه لم تحب ، وأخيراً لم تجد بداً من إعادة الساعه إلى موضعها .

وعدنا إلى الفراش ... ولكننا لم نكد نغمض أعيننا حتى دق التليفون

مرة رابعة ، وفي هذه المرة أمسكت زوجتي الساعه ... ودون أن تقول : آلو .

ودون أن يجيبها أحد .. انهالت في حلق بالسباب على المتحدثه .

وأخذت منها الساعه ... وقلت لها مهدئا :

— مافيش داعى للشتيمة ... لأنها لو كانت بتعاكس فالشتيمه حان عليها

تعند وتفضل تعاكس طول الليل ... سبها لى أنا أكلها بالذوق .

وأمسكت بالساعه وقلت في صوت هادى :

— آلو ...

وأجابني الصوت الرقيق معاتباً :

— برضه دا يصح أنشتم الشتيمة دى كلها ؟

— وبرضه يصح إنك تطلي واحد في نص الليل علشان تقولي له

إنك معجبه ؟

— أنا متأسفة ... أنا أصلى له مخلصه الكتاب دلوقت ، ومقدرتش

أحوش نفسي ... إمتى أقدر أكلبك ؟

— في أى وقت في النهار ... أو ابعثى جواب زى كل الملى يبعثوا .

— أبعته على فين ؟

— على البيت ... على المكتب ... على المجلة ... زى ماتحي .

ثم أمليتها العنوان .

ولم تعجب زوجتى بالطبع تلك الطريقة المترفة في الحديث ... ولا أعجبا
أن أطلب منها الكتابة وأعطيها العنوان .

وبعد يومين وصلنى الخطاب التالى .

عزيزى

« تحياتى وإعجابى الذى لا حد له ولو أنك لا تعرفنى ، ولا أظن أنك ،
« تهتم بمعرفتى إلا بمقدار ما يكون بين كاتب وقارىء له ، لذلك اسمح لى أن ،
« أخفى عنك شخصيتى ، إنما أكتب إليك معذرة عما كان منى ليلة أمس ،
« كلمتك في التليفون ، وحققت أننى كنت مندفة إلى البحث عنك وسماع ،
« صوتك بجوارحى وشعورى وبأى ثمن بعد أن انتهيت من قراءة ،
« قصتك (إلى راحلة) ، ولعل لك بعض الذنب في ذلك إذ أنك أخرجتني ،
« عن وعى ، وأفقدتني كل سيطرة على نفسى ، وبالرغم من كثرة الأصوات ،
« التى توالى في الرد على فقد هدأت قلبي إلى معرفتك ، ولو لم يكن لك بي ،
« سابق معرفة ، فقد كان لإبداعك ما أخذ بجميع قلبي ، وأشعرتني ،
« أن هذا ليس بالخيال ، وإنما هو صادر عن الواقع ، وعن الشعور ،
« الصادق الرقيق ، وأنه ترجمة بارعة صادقة لأجل ما يمكن أن يخفق به قلب ،
« رقيق فياض العاطفة ، حتى أنى لم أفكر في الوقت وفيما صادفته في محاوراتى ،
« أن أكلبك ، فقد كنت في نشوة من سرورى ولهفتى ودموعى ، ولعل تلك ،

« التي ردت عليّ وأعادتنى إلى الواقع . لم تحس بما شعرت به أثناء قراءة لك »
« وإلا لالتصمت لي عذراً... أنا التي تعيش حياتها افة مقفرة من شعاع حاطني »
« يملأ كياني ويثير وجداني ، وقد وجدته ولو في صفحة من كتاب ، ولكن »
« وصفك لسور معسكر الحرس ، والحقول التي خلف السراي ، والساقية »
« المهجورة هزّ كياني وأعادني إلى الخيال والذكرى ، فكل هذا هو مرتع »
« طفولتي ومبعث إحساسي ، وقبله قلبي ، ومطمع آمالي ، ولكنني أرى أنني »
« قد أطلت عليك .. لا تظن أنني تأملت لما سمعت فقد كفى : رنة الأسف التي »
« ظهرت من نبرات صوتك . لقد كانت أكثر مما أرجو وإلا لما ساحت نفسي »

« »

١٣ ديسمبر سنة ١٩٥٠

وعند ما انتهيت من قراءة الخطاب حملته إلى زوجتي وقلت لها :
— أظنك بعد قراءته ستقربيني على الرفق الذي حدثتها به ... وأظنك
ستجدينها لا تستحق ما منحتها من سياب ؟
ولم أعرف عن القارئة المجهولة سوى الخطاب المجهول والمحاذة في
منتصف الليل .

وإني أحس منهما خير عزاء عن تقدير ذوي الحيليات من أهل الصحافة والأدب
شكراً لها ... ولكل قارئ مجهول ... وقارئة مجهولة ... لأنهم يملأونني
بالثقة والاعتراف ... ويجعلونني لأعياً بتقدير المشاهير والكبار .
إني أكتب لهم ... وهم الذين جعلوني أطبع من كتيبي الطبعة الثانية ..
وهم الذين سيجعلونني أطبع الثالثة والرابعة بإذن الله .
إني أحب قرائي ... وأشعر أن قرائي يحبونني .
والسلام عليكم ورحمة الله .

بروف الباعى

تطلب جميع طبعاتنا

من وكلائنا

مكتب المثنى	بغداد	ت ٣٥٨٨
دار المعارف	اسكندرية	ت ٢٣٥٨٨
المكتب التجاري	بيروت	ت ٢٤٥٠٣
دار البقعة العربية	دمشق	ت ١٢٣٦٤
» الكتاب بالدار البيضاء	مراكش	ت ٧٧ - ٩٠٠
مكتبة النهضة	الجزائر	ت ٩٩ - ٣٩٨
» النهضة السودانية	الخرطوم	ت
دار كردفان	الأبيض	ت ٢٨٤
المكتبة الأدبية	تونس	
مكتبة الشمامسة	جدة	
» عرابي	الحجاز	



ملحده

قد عزمت على الرحيل .

الى

وماذا يدعوني إلى البقاء في دنياكم تلك ، بعد
أن أضحيتم في غنى عنها وعن كل ما بها . . وبعد أن فقدت كل
إحساس بأن هناك ما يربطني بها ويشدني إليها ؟
ما أسهل الرحيل . . خطوة واحدة أخطوها فأمرق هذا
الحيط الواسع الذي علقتم به حياتنا . . وأنطلق هاربة إلى حيث
لا تتناولون عليّ بالسنتكم ، تاركة لكم جيئة تلتقي لعنائكم
فيأية غنى .

• أذكروا محاسن موتاكم . .

أنراكم تذكرون لي محاسن ؟ . . أنا الزوجة الهاربة الخائنة
الفارة مع عشيقها . . الراكلة بقدميها كل قلب ، المحطمة
كل قيد .

أي محاسن لي بعد هذا ؟

هل يمكن أن يلتصق لي أحدكم عذراً . . سوى الطيش
والترق ، وطاعة الشيطان ؟

لشد ما أكره أن أخرج من الحياة مظلومة

• إلى لم أحس قط بحاجتي إليكم . . لقد كان :

كلانا غنى عن أخيه حياته ونحن إذا متنا أشد تغانيا

وأنا أحس أنى مية .. مية ، وكان يجب ، والأمركذلك ،
أن يشتد إحساسى بالغنى عنكم .. ولكنى مع ذلك أحس
بحنين شديد يدفعنى إلى الكتابة ، وإلى أن أقول شيئاً لكم أيها
الأميون الذين قد بت فى غنى عنهم !

أى دافع أخفق ذلك الذى يدعنى للكتابة ؟ أنا المحطمة
المهدمة ، المشتتة الفكر ، الغاربة الذهن !

أنا الغريقة اللاهثة الأنفاس ، المكروبة الصدر ، المثقلة
بالأحزان ... الباكية حتى جفت منها المساقى ، ودميت
الأجفان .

أنا أجلس وأكتب إليكم .. ليه ؟ .. وسط هذا الحطام
والرقاد ، والهشيم ، وأنا على قاب قوسين أو أدنى من الموت ،
أجلس فى هدوء وأمسك القلم ، وأكتب على الورق .. كأتى
أعيش أبداً .

لقد كان يجب أن يكون آخر ما أفكر فيه هو الكتابة .
كان يجب أن أبكى ، وأن أمزق الشعر ، وألطم الحدود
وأصرخ وأولول ، وأعدو فى الطريق مستغيثة صرعى .

ولكنى مع ذلك أجلس فى هدوء وأكتب .. كان الأمر
لا يعنينى .. أو كأتى لست أنا .

أجل .. لى لم أعد أنا .. لقد بت امرأة أخرى فاقدة

الحس متبلدة المشاعر .. لقد تكسرت منى النصال على
النصال .. لقد فقدت القدرة على الألم .. لقد أصبحت جسداً
هامداً .. أما ما بقي في من إحساس ، فهو ما يسمونه « حلاوة
الروح » أو ترنخ الذبيح .

ولكن لم أكتب ؟ لم لا أخرج في صمت ؟ لم لا أعجل
بالرحيل ؟ فأستريح !

أهي الرغبة في رفع العبء بالاعتراف ؟ .. أم هي التوبة
والاعتذار واستجداء الرحمة .

ولكن أى اعتراف وأى توبة ؟ .. الاعتراف بالذنب
والتوبة منه ؟

إنى ما أحسست قط بأنى مذنبه .. وما شعرت أنى أتيت
أمراً إذآ ولا فعلاً نكراً .. بل لقد قضيت أيامى أقاوم
وأقاوم ، وأحرم نفسى الاستمتاع بالحياة .. حتى أفلت
منى الزمام فى النهاية من فرط المقاومة .. فاندفعت إلى هذا
المصير ..

أنا لست مذنبه .. إنما المذنب هو القدر الذى عقد لى
الطريق .. وقلب لى الأوضاع ، ودبر لى الأمور .. — أو
على الأصح — أساء التدبير .. بحيث أضحي لا مفرّ لى من

فلك المأساة والانتهاى إلى مثل هذا الدمار .
أترانى إذا أكتب لأعترف بذنب القدر ؟
أى سخرية هذه ؟ . هو يذنب فى حقنا ، ونحن لا نملك
إلا الاعتراف بذنبه .

على أية حال ، وأياً كان صاحب الذنب فينا .. فإنى أحس
من الكتابة براحة المعترف ، وهذوء النائب المقر .
ذلك هو الحافظ لى على الكتابة .. اعتراف مختصر ،
يبغى أن يلقى عن أكتافه - قبل الرحيل - عنا أثقل كاهله
ووزراً أنقض ظهره .. اعتراف صريح علنى .. لا إلى كاهن
فى خلوة .. بل إلى الناس جميعاً .

ولم الكاهن ؟ وعلامَ الخلوة ؟ .. أنا لا أحجل من
اعترافى .. حتى أهمس به وجلة خائفة .. بل أطلقه بملء فمى
لأعلن ببراءتى ، ولأصيح بكم : أنى مظلومة .. مظلومة فى
الدنيا وفى الآخرة .. مظلومة حية وميتة .

أنا لا أحجل من اعترافى .. فإنى أجد فيه دفاعاً عن
نفسى وعن سواى من المظلومين الذين انطوت صدورهم على
أسرارهم ، والذين طوتهم عجلة القدر فراحوا ضحيتها واتهموا
بالدنب ولا ذنب لهم .. وأجد فيه درساً يعلمكم أن تلتمسوا

المعاذير للناس ، وألا ترموهم بالخطيئة . . دون أن تعرفوا
خبيثتهم . . فرب واحد منكم رماه القدر بنفس التجربة فما كان
خيراً منهم .

إني لا أخجل من اعترافي بل أطلقه بملء فى . . صائحة
بكم : هاأنذا ، وهاكم قصتي :

هاكم قصة الزوجة الخائنة الغادرة . . قصة المرأة التي قد
تلعنونها كلها مرت بخاطركم ، والتي قد تتخذون منها لأنفسكم
عظة وعبرة تتندرون بها حيناً وتضربون بها المثل أحياناً .

هاكم قصتي . . قصة - أقسم لكم - إنها ستثير فيكم كامن
شجنكم ، وتهيج مشاعركم ، وتسيل مدامعكم وتندى ما فيكم .
أم تروني واهمة ، لا تكاد قصتي تزيد على قصة كل عاشق
أضنى الهوى قواده ، وأحرق الحب قلبه . . وأن الوهم يأبى
إلا أن يجسدها لي ويربني أنى شيء جديد في عالم العشاق ،
ولاني - في المصاب والبأساء - نسيج وحدي .

من منالم يعشق ؟ من منالم يذوق طعم الهوى . . حلوه
وصابه ؟ من منالم تنشيه متعته ويضنه عذابه ؟ من منالم
لم يسكره نسيمه ويغرقه عبابه ؟

كلنا عشاق . . وكلنا ريش في مهب ريح الحب العاصفة
العاتية . . لاسلطان لنا على أنفسنا ، ولا سيطرة لنا على قلوبنا

إلا بقدر ما تسيطر الريشة على نفسها في مهب الريح ..
لا يفرّنكم من البعض جمود أو قسوة ، ولا يخذعنكم منهم
ادعاء بالسيطرة على النفس وبالسخرية من الحب ، أو أنهم
فوق سلطان الهوى .

لا يخذعنكم منهم هذا فهو قول هراء ، وكلام سينهب
هباء ، ولو كانت قلوبهم من حجارة ، ومسها الهوى ..
للانت وسرى فيها النبض وجاشت بالحياة .

لا يفرّنكم زعم هذا البعض .. سلوني أنا عنهم ، فقد
كنت واحدة منهم .. كنت ساخرة من الحب .. ملحدة به
منكرة وجوده وسلطاناه .

أجل .. هذا هو ما كنت ، عندما جلست إليه ذات
مرة ، وجرى الحديث بيننا عن الحب ، قلت له ، وأنا أقلب
شفقي في سخرية :

— حب .. إنه مصاب الذين لا إرادة لهم ، وداء أشبه
بالخمر والمبسر .. يقبل عليه الناس للهو وتثسلية .. ثم يزمن
بهم فيدمر حياتهم ، ويقضى عليهم .. أو هو كالجواد يمتطيه
الإنسان طائماً مختاراً ليتزده به برهة .. فيجمع به ويورده
موارد العطب .

وتملكه الدهش فقد رأى فيّ - على حد قوله وقتذاك -

فتاة ، حلوة مرحة ، لطيفة ، كأنها الزهرة كلها التدي ،
وطلع عليها النهار ، واستدارت بوجهها المشرق لتواجه فجرأ
جديداً وشمساً ساطعة تستمد من ضوءها نوراً ودفئاً ، وسألني
لم أ كفر بالحب ، وهو مثل الحرارة التي تبعث فيها النضرة
والنضج ، والنسيم الذي يحمل عطرها فيجعله يتضوّع وبفوح
ويسكر القلوب ويشمل الأفئدة .

وضحك ، وقلت له : هذه أوهام الشعراء ، واهمته بأنه
خيال ، كثير القراءة ، تنضح قراءته على أفكاره فتبديها حلوة
معسولة ليست من الواقع المر في شيء ، وأن على الإنسان
في هذه الحياة أن يتصرف بعقله لا بقلبه ، وأن يتبع مصلحته
ولا يتبع هواه .

قلت له هذا وأنا مؤمنة به أشد الإيمان .. فقد كنت
مادية التفكير .. مادية النزعة .. علني الوسط الذي نشأت
فيه والتجارب التي مرت بي أن أمقت الحب ، وأن أفر منه
فرار السليم من الأجرب ، وأن أنصوره شيئاً مفرعاً مروّعاً
يجب على الإنسان أن يحذره ويتجنبه فما أودى بالمرء إلى
التهلكة غيره ومادماً حياته سواء .

كيف لا وقد نشأت فوجدت شيطان الحب قد عصفه
بكل ما حولى ، ووجدته فرّق بين أنى وأمى .. فما عشت

معهما قط سوياً ، وما أحسست أبداً بنعيم الاستقرار .
نشأت في كنف أبي .. أب صارم قد لدغ من جحر
الهوى مرة .. فأقسم ألا يلدغ مرة ثانية ، وركز كل جهده
لينشئني على طبيعته الجامدة وتفكيره العملي المادى ويقتل
في نفسي كل ميل للعاطفة أو الرقة والخيال .
لا أريد أن أندفع فأنبش أحداث الماضي البعيد ، ولكن
يبدو لي أنه لا بد أن أستعرض تلك الفترة الغابرة .. فترة
الطفولة المكبوتة الحادة الصارمة .. إذ يبدو لي أنها السبب
في كل ما حدث ، وأن ذلك الكبت في مشاعري وأنا طفلة
والمبالغة في الحزم والشدة في تربيتي ، قد أنتج نتيجة عكسية
وسبب لي الانطلاق من أول ثغرة بدت في حياتي .. وأنه
ككل فعل كان لا بد له من رد مساو له ، ومضاد له في الاتجاه .
منذ أن وعيت الحياة وهم يلقنونني أن أمي ميتة ، ولقد
كان ذلك منهم منتهى الغباء .. فما كنت أعدم عندما شئت ،
وبدأت التفكير ، من يذكر لي الحقيقة كاملة ، وينبئني أن أمي
على قيد الحياة ، وأن تيار الهوى قد جرفها فهجرت أبي ،
وتزوجت برجل آخر .

وكرهت أمي .. من فرط ما بشوا في نفسي كرهها ، ولأنني
كنت بتربيتي الجامدة ، وخلق الجاف ، الذي عودني عليه أبي

أرى فيها امرأة حمقاء ، إمراة مجنونة طائشة .

لم أك أعرف وجهة نظرها ، ولا الظروف التي اضطرتها
إلى هجر أبي ، ولا الإغراء الذي وقعت تحت وطأته . بل لم
أحاول قط أن أفكر في أنها يمكن أن تكون معذورة ،
وأنى لو وضعت مكانها لفعلت فعلتها .. بل كل ما كنت أقول
عنها لنفسي : إنها امرأة خائنة غادرة .. تماماً كما تقولون عني ،
وما حاولت أن ألتص لها المعاذير .. كما لم تحاولوا أن تفعلوا .
وأي عذر هناك يمكن أن يكون لامرأة تركل بقدمها
ذلك القصر المنيف والنعمة السابغة والهناء المقيم ، وتترك
رجلاً مثل أبي وقوراً جاداً محترماً .. قد يكون خلواً من
المشاعر والرقّة .. ولكن مالها وله ؟ لم لا تتمتع بالغنى
والراحة والاستقرار ؟ لم لا تدعه في حاله ، وتمتع بحالها ؟
كيف هنا لديها : أنا وأخي ، فهجرتنا فيما هجرت ، وضربت بنا
عرض الحائط ؟

ذلك كان تفكيرى تجاهها وقتذاك .. صورة أخرى
لتفكير أبي وأمه التي تكفلت بي بعد طلاق أمي .
ويبدو لي الآن .. أن أمي قد تكون معذورة في فعلتها ،
وأنه لو أتبع لها أن تسجل مشاعرها واعترافها كما أفعل ، فإني
أجزم .. أنى كنت مبرئتها ، وإن كنت مقتنعة بدفاعها ..

تماماً كما مستبرثوني وتقنعمون بدفاعي .. أم تراني واهمة فيكم ،
محسنة الظن بكم ؟

ما أغبانا وأستخفنا .. نجلس مستريحين هائثين ، ناعى
البال ، قريرى الأعين ، وتتخذ من أنفسنا قضية على غيرنا ،
الغارقين فى العباب ، المحروقين بالشواظ .. لنقول ببساطة :
هذا أذنب ، وهذا أجرم .. ما كان يجب أن يفعل ذاك ،
وما كان يجب عليه أن يفرق أو يحرق .

ما أشبهنا بالقضاة الذين جلسوا لمحاكمة الربان الذى
غرقت سفينته فحكموا عليه بالإعدام بعد مداولة سبعة أيام
عرفوا خلالها ما كان يجب أن يعمل الربان حتى لا تغرق سفينته ،
وأجابهم الربان فى دهش : حقيقة هذا ما كان يجب أن أعمله ،
ولكنكم لم تعرفوه إلا بعد مداولة سبعة أيام فى حجرة هادئة .
أما أنا فما كان أمامى سوى ثوان معدودات فى زوبعة عاتية .
كلنا نفعل كما فعل القضاة .. لا نذكر لأصحاب الخطايا
ظروفهم الهوجاء ، ولا مناعهم المرفهة ، وأحاسيسهم التى
تسوقهم — إلى ما نسميه خطايا — سوق غرائب الإبل .

ما الخطايا ؟ . أمى شئ ملبوس محدد ؟ أم هى مسائل
نسبية .. تتغير تبعاً لتغير مشاعرنا واختلاف وجهة أنظارنا ؟
إنى عندما ارتكبت ما تسمونه خطيئة .. كنت واثقة

وأنا في الظروف المحيطة بي أنها ليست من الخطيئة في شيء . . .
وأن ما فعلت هو خير ما يجب أن أفعله وأنه حق في الحياة .
وأؤكد لكم أن كل مخلوق سواي . . . ما كان يفعل سوى
ما فعلت .

وما دام الأمر كذلك . . . فلم نسميه خطيئة ؟
وهكذا لا أشك أن أي قد اتخذت الطريق الأكثر
ملاءمة لها ، والذي بدا لنا وقتذاك . . . انحرافاً عن الطريق
السوي ، انحراف بالنسبة لنا . . . أما لها فإشك أنه كان سويًا .
لعلها لم تنعم بسعادة مثالية ، ولكن من قال : إن الطريق
السوي . . . أو أي طريق في الحياة يعطي سعادة مثالية ؟
كثيرون جداً لم يرتكبوا ما نسميه خطيئة . ومع ذلك فما
كانوا أسعد حالًا . . . لقد كان لطريقهم السوي . . . متاعبه
الخاصة ، التي لا تقل بحال عن متاعب الطريق المنحرف .
أبي مثلاً . . . الرجل الجاد ، النموذجي الصارم . . . كان
إنساناً شقياً . . . شقياً بجدده ونموذجيته وصرامته . . . شقياً بي
وبنفسه وبأمراته المهاجرة .

ويبدو لي أنه قد جعلني موضع تجربته ، وأنه قد صمم
على أن يجعل مني مخلوقة أخرى غير أي . . . مخلوقة مثله . . .
لا أضحك ، ولا أشعر ، ولا أحب . . . ولا أريد ما أحب

— على النقيض — لقد كان يحرم على كل ما أحب ..
ويعطيني كل ما لا أرغب .

ولم أكن ألعب كما يلعب الأطفال .. بل كنت أجلس
معه وجدتي يعلنني — على حد قوله — شيئاً مفيداً نافعاً
وهكذا نشأت جامدة الحس .. مادية التفكير .. كافرة
بالعواطف .. هازئة بالحب .. لا أرى فيه — كما قلت —
سوى داء عضال يفتك بإرادة الإنسان ، ويسلبه رشده ،
ويحرمه القدرة على التفكير السليم وعلى التمييز بين ما يجب
وما لا يجب ، وتبين ما حرّم عليه وما أحلّ له .

كنت أرى فيه داء يصيب الإنسان فيجعله يندفع
بلا تفكير ولا روية .. كأنه قذيفة لا يستطيع شيء أن يغير
اتجاهها حتى تذهب إلى مستقر لها .

وهل لا يعتبر داء .. ذلك الذي يصيب الإنسان فيجعله
يأتي بكل ما هو شاذ مستغرب ؟ ! يصيب المملوك فيركلون من
أجله عروشهم .. يصيب الآباء فينسبهم أبناءهم ، ويصيب
الأزواج فيلفظون من أجله زوجاتهم ، ويقوّضون حياتهم .
أي داء يمكن أن يصيب الإنسان شر من هذا ؟ وأي سعادة
يمكن أن يتمتع بها إنسان تكون له القدرة على أن ينأى
بنفسه عنه ، ويعيش بمنجاة منه ؟



میلادو جبریل

هذه هي الأفكار التي تملأ رأسي وقتذاك ، والتي
كانت طبعها في نفسي الحياة التي نشأت عليها ولقتها
إياي العواصف التي عصفت بأبي وأمي .

كنت متشعبة بها ، ولم تكن لي تجارب في الحياة بعد . .
فلقد كنت ما زلت في مستهلها . . فتاة في دور المراهقة . . أو
كما قال صاحبي : زهرة في كهها لم تتفتح بعد . . فحاولت أن أنخذ
من تجارب من سبقوني عظة ودرساً ، فلا أتأفيا وقعوا فيه .
وبدأت التجربة الأولى . . رافعة الرأس ، أيبسة النفس ،
جامدة الحس . . وقفت أنظر إلى الصائد وهو ينصب الشباك
حولي في تحد وثقة وسخرية .

لم يكن الصائد غريباً عليّ ، ولم أكن أتصور قط أن يكون
هو صائدي . . فقد تعودت أن أراه دائماً ، دون أن تحتلج في
نفسى عاطفة أو تتحرك جارحة ، فاكنت أرى فيه أكثر من
صبي ، وما كنت أضمر له أى نوع من المشاعر . . لا بغض
ولا حب ، ولا مجرد إحساس بوجوده .

كان ابن خالتي . . ولم يكن بين عائلتي أى ود أو تقارب ،
بل كان بيننا شبه عداوة ، أو عداوة مستترة . . لست أدري
منشأها بالضبط ، وإن كنت أرجح أن علتها حسد من جانب

عائلته ، وترفع من جانب عائلتي .
كانت أمي وأمه أختان اختلف حظهما في الحياة .. فقد
تزوجت أمه موظفاً عادياً .. عاجله الموت وابنه ما زال في
المهد .. وأخذت الأم وحدها تكافح الحياة وليس لها من سند
لترية ابنها سوى معاش ضئيل القدر .
وتزوجت أمي ن. أبي ، وهو مقاول في مستهل عمله .
أقبلت عليه الأيام ، ففتحته سعة في الرزق واتعشت أعماله ،
وتضخم ثروته .. حتى أضحي في فترة قصيرة من كبار
المقاولين المعروفة أسماؤهم .

ولم يكن بين الأختين - أمي وأمه - من التحاب
والمودة ما يجب أن يكون بين الأخوات .. ويعلم الله من
كانت منهما السبب في ذلك ، قد تكون أمه بانطوائها وأحزانها
وحرمانها وحاجاتها دون أن تجد من يمد إليها يداً ، وقد تكون
أمي بتقصيرها وأنانيتها وتباعدها .. أو قد تكون لاهني
ولا تلك ، بل يكون أبي بحفافه وقسوته وصرامته وتقديره
ورفضه أن يمد يد المعونة إلى الأم الأرملة والولد اليتيم ..
وتجاهلها كأنهما لا يمتان إلينا بصلّة قرى .

قد يكون أي من هذه الأسباب هو علة القطيعة والتنافر ،
أو قد تكون كلها متجمعة . على أية حال لقد كانت نتيجتها

هوة كبيرة بين العائلتين ، وازدادت الهوة عمقاً .. بانفصال
أُمى عن أبى ؛ وانقطاع كل صلة بيننا وبينهم .. إلا صلة
واهية .. هى صداقة أخى لابن خالتى .. صداقة ناتجة عن
زمالة فى الدراسة وتقارب فى السن .

تلك هى الصلة الوحيدة بيننا وبينهم . : الصلة التى لولاها
لما أحسست أن لى ابن خالة .. ولما وقع عليه بصرى قط .
كنا نسكن فى « حدائق القبة » فى شارع « ولى العهد » .
فى إحدى الفيلات المطلة على المزارع ، وكان أحمد - ابن خالتى -
يزورنا فى فترات متباعدة : فى أيام الجمع أو العطلات ليقضى
اليوم بطوله مع أخى « على » يلعبان فى المزارع أو يلهوان
بصيد الأسماك .

ولم أكن خلال زيارته المتقطعة لنا فى صباه أبصر له
وجهاً إلا عند حضوره ، فقد كان يأتى علىّ - لوصادفنى -
تحية مقتضبة عابرة ، ولم أكن فى لقائه أقل جفافاً ولا بروداً ،
فقد كنت بطبيعتى باردة جافة .. ثم يمتحن بعدها فى حجرة
أخى ، حتى ينطلقا سوياً إلى المزارع .

تلك كانت علاقته بنا فى صباه .. مجرد صديق لأخى ..
ما رأيت فيه ما يلفت النظر إلا ذلك الترفع والإباء والكبرياء

الناجح عما يسمونه الإحساس بالنقص . . فما من شك هناك أن نشأته كانت أقل . كثيرأ من مستوى نشأتنا ، فما استطاع كفاح أمه في تربيته إلا أن يهيء له حياة متواضعة ، لا يكاد يحصل منها إلا على الضرورات القصوى كالطعام والتعليم . . أما ما عدا ذلك من كاليات العيش الذي كننا نرتع فيه فقد حرّم عليه .

لم يكن هناك وجه للمقارنة بين مسكنه الذي كان يقطنه مع أمه في شارع « بليغا بشيراء » وبين قصرنا المنيف ذي الحديقة الغناء والجراج والمربة الفخمة ، والخدم والحشم ، والطباخ . ولم أكن أنا لأفكر في ذلك الفارق أو أقيم له وزناً أو أجعله باعناً على نفورى منه أو إقلال من قدره . . لولا شيء واحد هو تلك « النفخة الكدابة » التي كان يبدو بها ، وتلك الكبرياء وذلك الترفع الذي كان يلقاها به . . فقد جعلنى أبادله نفخة بنفخة . . وكبرياء بكبرياء . . حتى أضخى ينسا ما يشبه التحدى الصامت . . واستكثر كل منا على الآخر — بلا أى سبب — تلك التحية الصامتة التي يلقاه بها في الفترات المتباعدة التي كنا نتقابل فيها . . وانتهى الأمر بيننا إلى التجاهل التام . . كأن كلا لا يعرف صاحبه .

ولم أعر أمره اهتماماً يذكر ، فقد كننا لانكاد نلتقي إلا

لماذا . . ولم يكن له في ذاكرتي إذا ما غاب أى موقع . . ومع
ذلك فقد ضايقنى هذا الإصرار منه على تجاهلى ، أو على الأصح
بإدلتى التجاهل والإنكار ، وأحسست منه بخدش لكبريائى .
هكذا ظلت العلاقة بيننا ونحن لم نتعد بعد دور الصبا . .
نجتاز العقد الثانى من عمرنا . . وكان الفارق بيننا لا يزيد على
الثلاث سنوات . . وكان هو فى مرحلة التعليم الثانوى ، وأنا
فى دراستى الابتدائية .

ونجح هو وأخى فى البكالوريا ، ودخل أخى كلية الهندسة
وعلمت منه أن « أحمد » التحق بالكلية الحربية فقد عاوته
مهارته فى لعبة الكرة على القبول بلا وساطة .
ومرّت الأيام بعد ذلك ، وأنا لا أسمع عنه شيئاً ، ولا
أرى له وجهاً . . واختفى تماماً من محيط حياتى . . ولم يعد بي
من حاجة إلى تجاهله أو إنكاره فقد نسيت تماماً .

ومضى عامان كغيرهما من الأعوام لم يحدث خلالها فى حياتى
جديد ، اللهم إلا منح أبى رتبة الباشوية عقب تبرعه بمبلغ ضخم
لأحد المشروعات الخيرية ، ولو أن ذلك لم يحدث بالنسبة لى
تغييراً يذكر . . فقد استمر أبى هو هو بنفس الجد ونفس
الصرامة ، ونفس الإصرار على الحزم فى تربيته . . وإن كانت
تد زادت فى حياتنا بعض المظاهر التى تستلزمها رتبة الباشوية .

وفي ذات يوم قبيل الغروب .. يوم صيف من أيام
يوليو وأستطيع أن أحده بالضبط بالثلاثاء الخامس من الشهر
عام ١٩٣٧ .. ولست من غواة تذكر التواريخ ، ولكن هذا
اليوم بالذات اعتبره في حياتي يوماً خطيراً .. يوم بدء
التجربة .. يوم اشتعال الشرر والتهاب العاطفة .. يوم ميلاد
جديد .

وكنت أجلس يومذاك في شرفة رجبية كائنة بالدور
الأول بها درج متسع يفضي إلى الحديقة ، وقد رست
في أركانها أصص الزرع الأخضر من فوجير وأسبرجس ،
وتسلقت على أعمدتها المدادات المزهرة .. وتسالت أشعة
الشمس الغاربة أرجوانية دامية من خلال المتسلقات فصبغت
الشرفة باللون الأحمر .

ولم يكن أحب إلى نفسي من أن أخلو بها في تلك الشرفة
المحبة فأشرد بذهني في عالم جميل من الأوهام ، وأطرح عن
نفسي أحزانها وأعباءها .. وأنطلق بها حرّة من قيود المادية
التي أعيش فيها والصرامة التي أحاط بها .

وسمعت وقع أقدام في عمر الحديقة تقترب من الشرفة
لم أعبا بها كثيراً .. فما توقعت أن تحمل إليّ سوى أحد
الخدم ، أو الطباخ ، أو سواهم من أتباع الدار يسألونني عن

التوافه من الأمور . . وتوقفت الأقدام ، ولم أكلف نفسى
مشقة رفع بصرى عن كتاب كنت أثبت فى صفحاته عيني ،
وقلت للقادم متسائلة دون أن أنظر :

— هيه ! .

ووصل إلى أذنى صوت غريب يتمم معتدراً :
— أنا آسف . . لم أقصد قط أن أقطع عليك وحدتك
أو أسبب لك إزعاجاً .

ورفعت بصرى لأتبين صاحب الصوت ، فأصابني من
مرآه دهش وعجب لقد وجدته « أحمد » . . الصبي المتكبر
« ذا اللفخة الكدابة » . . وقد وقف أمامي فى حلة رسمية
أنيقة كشفت عن اعتدال قوام ، ورشاقة قد ، وقد أحاط
الحزام الجلدى العريض بوسطه ، فأظهر ضيق خصره واتساع
صدره ، وبدت البدلة لامعة الأزوار محكمة على جسده كأنها
قطعة منه . . ولاح لى وجهه وقد لوّحت الشمس فحوّلت
بياضه إلى سمرة حمراء ، واستقام طربوشه على جبينه ، وافتقر
ثغره عن ابتسامة أبدت أسنانه بيضاء منظومة .

تلك كانت الصورة الخاطفة التى التقطتها عيناى له . .
ووجدت الدهش والمفاجأة ينسيانى ما كان بيننا من تجاهل
وتحد ، وهتفت به مريحة :

— أحمد . . أهلاً وسهلاً . . تفضل .

وصعد الدرجات مقترباً مني ، وقال وهو يمد يده :

— أكرر أسفي إذا كنت قد أزعجتك . . لقد حضرت

لزيارة « علي » .

وكرهت منه هذا التحديد . . ولكنني حمدت الله أن

أزال سابق نفخته وكبريائه . . وأن جعله يكف عن ترفعه

حتى لا يضطرني إلى معاملته بالمثل والعودة إلى سابق تجاهلي

له ، وترفعني عنه .

وأدركت من مظهره أنه قد تحسن كثيراً ، وأن

العامين قد جعلاه منه مخلوقاً متزناً . . وأضاعت منه ذلك

الإحساس بالنقص الذي كان يجعله يصر على سخافة

الكبرياء ، ووجدت أنه قد أضحي أكثر رقة في الحديث ،

ولباقة في التصرف .

ولم تستغرق مني تلك الملاحظات سوى ثوان معدودات

أجبت عليه أثرها :

— أعتقد أن « علي » سيحضر بعد برهة . . وتستطيع

بالطبع أن تنتظره . . إذا كان الانتظار لا يثقل عليك .

ويبدو لي أن من الخير أن أعترف صراحة — مادمت

قد سميت كتابتي هذه في بادئ الأمر « اعترافاً — بكل خلجات

نفسى . . وأن أذكر ما وراء أقوالى . . فالإنسان غالباً
يقول شيئاً وفى نفسه شيء آخر .

لم يكن فى قولى أن « على » سيحضر بعد برهته ، وسؤالى
إياه أن ينتظره . . شيء غير طبيعى . . ولكن الشيء غير
الطبيعى كان فى قرارة نفسى . . فإنى لم أكن أعلم أن « على »
سيحضر بعد برهته . . أو على الأصح كنت أعلم أنه لن يحضر
بعد برهته . . فهو لم يتعود قط أن يكون فى الدار فى هذا
الوقت .

ما الذى دفعنى إذأ إلى هذه الكذبة التافهة ؟
أمر واحد . . لا يمكن أن يكون هناك دافع سواه .
وهو رغبتى فى استبقائه ، وفى الجلوس معه ، والتحدث إليه .
كيف حدث هذا ؟ . وكيف انقلب تجاهلى له وإعراضى
عنه . . إلى رغبة فى مسامرتة ؟

أهو ذلك التغير الذى أصابه ؟ . أهى البدلة العسكرية
الأنيقة ، والقوام المشقوق ، والوجه الوسيم ؟
ولكن هذا لا يعتبر تغيراً بمعنى الكلمة ، فوجهه هو هو ،
وقوامه قد يكون اعتدل ونما بعض الشيء . . ولكن لم
ينقلب الانقلاب الذى يوازى انقلاب مشاعرى .
أم ترى التغير حدث فى نفسى أنا ، وأنى أنا التى ترعرعت

وأصبحت أنظر إلى الحياة وإلى سائر الناس نظرة تختلف
جد الاختلاف عن نظرتي وأنا في العاشرة أو الثانية عشرة .
أعتقد أن كليهما صحيح ، وأن النغير المزدوج في نفسى
ونفسه قد سبب ذلك الانقلاب في مشاعرى . . وكما أستطيع
أن أجزم — بنظرة المرأة الفاحصة الناقبة — قد سبب أيضاً
انقلاباً في مشاعره .

أجل . . لا أشك . . أننى قد أحدثت في نفسه الأثر الذى
أحدثته في نفسى ، وأنه رأى أن العامين اللذين لم يرنى خلالها
قد جعلاً من تلك الصبية النحيلة العجفاء البارزة عظام الظهر
والزقوة . . الرفيعة الساقين . . فتاة أخرى . . بارزة الصدر ،
مكتنزة الردفين . . ممتلئة الساقين . . لقد رأى الثمرة الفجة قد
نضجت ، والزهرة في البرعم الأخضر قد تفتحت وتلوّنت
وتضوّع عيرها .
خلاصة القول . . أننا افترقنا : صى وصبية ، والتقينا :
شاب وشابة .



وجلس في الشرفة بجوارى ، وران حولنا صمت سببه
حياء عقد ألسنتنا . . ونفضت عن نفسى الحياء . . فما وجدت
هناك ما يبرره . . إذ كنت أحاول أن أفهم نفسى دائماً أنى

باردة الحس ، جامدة المشاعر .. وأنه لا ضير على من
الجنس الآخر .

واعتذرت لنفسى عن استبقائه بأنى لم أفعل إلا ما تقتضيه
المجاملة وواجب القرابة (كأن القرابة قد نشأت بيننا فجأة) .
ونظرت إليه أخفى حلتى .. وثبتت عيني على علامة
معدنية فى ، ياقته ، تمثل جدياً يمتطى حصاناً ، وقلت متسائلة
محاولة خلق موضوع للحديث :

— علام تدل هذه العلامة ؟

— على السوارى .

— أنت فى السوارى إذا ؟

— أجل .. لقد التحقت به عقب أن تخرجت .. منذ

ما يقرب من شهر .

— أتركب الخيل ؟

وحقق فى ضاحكا وأجاب :

— لا أفعل غير ذلك .. لأنه لا يوجد عندنا حمير ،

— لطيف ركوب الخيل .. كم أود لو تعاليت ، ولكنى

أخشى الاقتراب من الحصان .

— أستطيع أن أعليك إذا شئت .. المسألة لا تستدعى

إلا كثرة مران .. وليس هناك ما يخيف فى الحصان ..

- إنه مخلوق مهذب ما لم نسيء معاملته . . .
- كل مخلوق مهذب ما لم نسيء معاملته .
- ابن آدم . . لا . . ألم تسمعي قول الشاعر :
- « إذا أنت أكرمت اللئيم تمرّدا » .
- لقد ذكرتني بالشعر . . لقد سمعت من أخى أنك
- تقرض الشعر ، وأنت رسام ماهر ، فما الذى حوّلَكَ إلى هذا
- الاتجاه العسكرى ؟
- وأى ضير فى ذلك . . هل حرّم على الضباط قرص
- الشعر والرسم .
- ظننت أنك ستدرس فى الفنون أو الآداب حتى
- تتخصص فى أحدهما .
- هذه أشياء لا يحسن التخصص فيها . . فهى لا تؤكل
- عيشاً . . إني لا أستطيع أن أرزق من الشعر أو من الرسم
- ولكننى أستطيع أن أمتع بهما كهواية .
- وهل أنت سعيد بمهنتك الجديدة ؟
- جداً . . رغم أنها شاقة فى بادئ الأمر . . وخاصة
- خلال فرقة « الركبدارية » . . التى تتعلم فيها فن الركوب . .
- نحن نركب أحياناً أربع ساعات متوالية .
- أربع ساعات ؟ ! على فكرة . . ألم تقع عن الحصان ؟

- كثيرآ .. ألم يقولوا : لا يقع إلا الشاطر .
- وأنت شاطر ؟
- عندما أفع فقط .
- وانطلقت ضاحكة .. ثم عدت أسأله :
- وكيف تمضي أوقات فراغك ؟
- في « الميس » مع الرفاق ، أو في السبنا .
- وحدك ؟
- أحياناً وحدى .
- والأحيان الأخرى ؟
- مع رفيق .
- من أى نوع ؟
- يختلف النوع حسب الظروف .
- إننى أعرف أن الضباط « أشقياء » .. ولا بد أنه قد أصابتك منهم عدوى « الشقاوة » .
- عدوى خفيفة جداً .. لا تزيد أعراضها عن الصداقة البريئة .
- لا أعتقد في الصداقة بين رجل وامرأة .
- ولم ؟
- ليس في هذا الجيل . وليس في هذا البلد .. نحن

لم تتعود بعد أن يصادق الفتى فتاة صداقة بريئة لا تثير
الآقاويل .. إن طبيعتنا الرجعية لا تهضم تلك الصداقة .

— إنما الأعمال بالنيات ، وما دمت واثقاً أن صداقتي
بريئة .. فلا يهمني ما يقوله الناس .

— ولكن الصداقة قد تتطور .

— إلى ماذا ؟

— إلى حب .

— ليكن .. ماذا في ذلك ؟

ثم اندفعت أفصح إليه رأيت في الحب وأعلن له إلخاى به :
— إنى لا أؤمن بالحب .

وتدرج بنا الحديث من موضوع إلى آخر .. وكانت
الشمس قد غربت .. وتسلى الظلام حولنا دون أن نشعر ،
ووجدته ينظر إلى الساعة فى يده .. ثم يقول :

— الساعة السابعة والنصف .. لقد مضى على وجودي
هنا ساعة .. وأعتقد أن « على » قد يتأخر أكثر من ذلك فقد
يكون ذهب إلى السينما .

ولم أكن أتوقع قط أننا أمضينا فى الحديث ساعة ..
فقد مضت الساعة كلبع البرق .. ووجدت لى استبجعت أن
استبقيه ساعة أخرى .. ولكنى كرهت لنفسى أن تتعلق

بمتعة .. وأن تنزلق - وهي الجامدة الباردة الكافرة
بالمشاعر - في أول تجربة .. وعزمت على أن أجرب
لإرادتي التي أجهد أبي نفسه في تقويتها وتربيتها .. وأن أصد
نفسى عن الفتى ، وأثبت ما ادعيت في أول الأمر من أن
ما فعلت معه لم يكن سوى مجاملة وواجب قرابة .

هذا هو السبب الأول الذى جعلنى لا ألح في استبقائه ،
أما السبب الآخر ، وهو الأهم ، فهو خوفى من أن يحضر
أنى وقد حان ميعاد عودته فيجدنى جالسة معه .

قد يقول قائل : وماذا فى ذلك ؟ .. وأى عيب فى أن
أجلس مع ابن خالى ؟

ولست أشك فى أنه لم يكن هناك عيب ، وأن أبى رغم
صرامته وقسوته ، لو رآنى جالسة معه لما أثار ذلك فى نفسه
أى إحساس بتبرم أو غضب ، فما أظنه يحرم على الجلوس
مع « ابن خالى » المعروف بهدوئه وحسن خلقه ، وما أظنه
يجد فى ذلك إثماً أو جرماً ، ومع ذلك فقد كنت أكره أن
يرانى فى جلستى هذه ، لأنى كنت أحس فى باطنى - رغم براءة
الجلسة - أنى قد فعلت إثماً .. وكنت أنا أدرى الناس
بذلك .. أدرى من أى مخلوق لسبب واحد ، لا يمكن أن
يدركه سوى .. وهو أنى أحسست بمتعة فى الجلوس إليه .

لقد سبب إحساسى بالمتعة .. الشعور بالوزر . لأنه كان
يجب على أن أحرم نفسى هذه المتعة .
ووجدتني أمد يدي إليه محبة وأنا أنظر إليه فاحصة من
أعلى إلى أسفل ، ومن أسفل إلى أعلى .
وأصابه شيء من الارتباك وتساءل :
— أبى شيء لا يعجبك ؟
— بدلتك .. وفرط أناقتك .. حتى لتبدو أنك لست
ضابطاً حقيقياً .

— لست ضابطاً حقيقياً ؟ ماذا أكون إذا ؟
— ممثل .

وكنيت أقصد بقولى مجرد المزاح .. ولكن بدالى أنه
قد حمل قولى يحمل الجد .. فقد لمحت فى وجهه علامته ضيق ،
وهممت بأن أعتذر له وأزيل ضيقه ، ولكن سمعت صوت
عربة تقف بالباب ، ثم سمعت صوت أبى مقبلاً .. فلم تكن
هناك فرصة للاعتذار .

وحياها أبى وهناه بالتخرج تهنة مقتضبة .. ثم ودعنا
وولى وجهه شطر الخارج وأخذ يقطع أرض الحديقة بقدميه
فى مشيته العسكرية .

وسرت وأبى إلى داخل الدار ، وبعد برهة حضر أخى ،

وجلسنا للعشاء ، وأنبأته أن « أحمد » أتى لزيارته .
 وبدأ عليه الاهتمام وسألني فرحاً :
 — أحمد .. ابن خالتي !! لم لم ينتظر ؟
 ونظرت إلى أبي ، للمرة الثانية وجدتني أكذب على
 غير إرادة ، وأجبت قائلة :
 — كان علي عجل .. فلم يشأ أن ينتظر .
 — لاشك أنك أسأت استقباله كعادتك .. أنت باردة .
 — أكنت تريدني أن آخذه « بالحضن » ؟
 — يجب عليك أن تنجلي الترحيب بالناس .. أنت لم
 تهدي صغيرة .
 — من قال لك أني لم أرحب به ؟
 — أنا أعرف طبعك .. جافة باردة .
 وكان أخي دائماً يتهمني بأنني إنسان بلا شعور ، وكان
 لا يفتأ يبدي تبرمه بي وبأبي وبحياتنا الجافة ، ولم يكن
 يتورع عن إعلان كرهه لنا . وعن تمنى اليوم الذي يفارق
 فيه الدار .
 ونظر إليه أبي نظرة صارمة وقال له :
 — ليس لك بها شأن .. عليك نفسك .. أنت غير
 مسؤول عن تهذيبها .

ومضت فترة صمت .. ثم سألتني أخى :

— هل كان يرتدى بدلته العسكرية ؟

وأجبتة باقتضاب وبغير اهتمام :

— أجل !

— كيف كان يبدو بها ؟

— لا أدرى .

— كيف ! . ألم تريه ؟

— لا أدرى .

— وقحة .. باردة .

ثم نهض أخى عن المائدة وهو يرميني بنظرة غيظ .

وذهبت إلى الفراش ليلئذاك .. ولست أريد أن أمعن

في المبالغة أو أكون روائية الحديث ، فأزعم أنى قد شغفت

به منذ تلك الليلة حباً ، وأنى قد بت صريعة هواه .. أو أننى

لم أنم من فرط التفكير فيه .. لم يحدث لى بالطبع شىء من

هذا ، وإن كنت لا أستطيع أن أنكر أن جفنى لم يغمضا

بمجرد أن رقدت فى الفراش .. لا لتفكيرى فيه ..

بل لنهى نفسى عن التفكير فيه ، ولإبعاد صورته عن

مخيلتى .. ولأردد لنفسى أنه لا شىء ، وأن سواه من

الرجال لا شىء ، وأنى أستطيع بإرادتى وصلابتى أن أجعل

بنى وبينهم جداراً سميكاً يقينى عدوانهم .

لم يكن ما أصابنى تلك الليلة حب . ولكنه كان مبادئ
استيقاظ للقلب . . تماماً كما يفتح المرء عينيه فى الصباح أول
مرة ثم يتنامى ويتقلب فى الفراش . ثم يغمضهما مرة أخرى
ويروح فى غفلة قصيرة يستيقظ بعدها لينهض من الفراش ،
ويبدأ عمله .

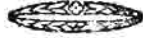
لقد أصاب القلب إذ ذاك . . ما يمكن أن يسمى أول
رعشة . . أو أول هزة . . نفضت عنه ذلك السبات العميق
المغرق فيه . . وأزالت عنه تلك الأتربة السميكه من الحزم
والصرامة والكبت والتريسة التى قد تراكت فوقه . . .
وطرقت قيود الجمود التى كبلته ، وشققت صخور الجليد التى
أحاطت به .

وأغمضت عيني ، وأنا قلقة حائرة . . بين متعة الإحساس
الجديد ، وخوف الخطر المجهول الذى كنت أتوهمه ورامه .
كانت بى رغبة فى الاستزادة منه وخشية من عواقبه .

لقد بت وأنا أتلهف على زيارة أخرى ، وعلى حديث
أطول . . وتمنيت لو استطعت أن أعتمد له ، وأن أزيل

عن وجهه ذلك الضيق الذى سببته له ، وفى الوقت نفسه كنت
أرجو ألا أراه . . وأصمم إن رأيته أن أعود إلى سابق تجاهلى
أياه . .

لقد تمت فى اليوم الخامس من يوليو سنة ١٩٢٧ ، وأنا
أحس أن ناقوس القلب يدق إيداناً باقتراب الخطر ، أو
إيداناً بميلاد جديد . . ميلاد عاطفة . . ميلاد قلب .





البقية تأتي

ناقوس القلب إيداناً بالخطر .. ولكنّه لم يكن
دو خطراً عاجلاً ، فقد خفّت الدقات وسكت الرنين
وعاد إلى القلب سكوته الخيم .. وأعقب رجفته استغراق
في السبات عميق ، وعاد إلى سابق عهده من الجفاف والبرود .
لم تتح لنا الظروف لقاء عاجلاً .. يواصل إيقاظ القلب
ولا يدعه يتناوب ويتمطى ، ثم يغفو ويستغرق في سباته ،
فقد سافرنا في اليوم التالي إلى الإسكندرية ، ومرّ بي صيف
كغيره من سابقه راكد ساكن .. كأنّ فيه من فرط تشابه
أيامه وتكرّر أعماله موظفة حكومية .. ففي الساعة العاشرة
أكرن ، وجدتي ، قد اتخذنا مجلسنا في الكابين ، ويكون أخى
قد ارتبى المايوه وانطلق إلى البحر .

وتمر بنا الساعات متناقلة في الحديث ، أو في عمل وتريكو ،
أو في استقبال بعض العجائز من صديقات جدتي أو
الفتيات من زميلاتي ، حتى إذا حانت الساعة الثانية حضر أبي
ليمكث ربع ساعة أو نصف ساعة ثم يعود بنا إلى البيت للغداء
وبعد الظهر إما أن نذهب إلى سينما ، أو نستريح على
الكورنيش .

كانت الحياة تسير بي هادئة طبيعية مثلي .. وكنت رغم

إحساسى بالفراغ والركود ، ورغم تبرى بها أحياناً .. أحس
إعجاباً لصمودى أمام نظرات الشباب من صحاب وغير صحاب
وترفُّى عن الآعين المحدثه ، والأحاديث المعجبه ، وأحسد
قلبي لأنه لم يلبس ، ولم يتلف ، ولم يحن ، وتناسيت تماماً ما كان
من أمر محركه الأول ، وموقفه من سباته ، وقارع النواقيس
في حناياه ، وموقد الشموع في رحابه .. تناسيته تماماً وحمدت
للأيام هذه المنحة من النسيان .

وعدنا إلى القاهرة في أواخر سبتمبر بعد ثلاثة أشهر ،
وانستقر بنا المقام في دارنا وقد خلا ذهني منه .. ولم أعد
أتوقع منه أية زيارة ، بل ولا أنتظرها .

وفي ذات يوم كنت وجدت في محل « شيكوريل » نبتاع
بعض الحاجيات عندما التقينا هناك بخالتي — والدته —
ولم نك قد التقينا قبل ذلك بأعوام .

وتصالحنا ، ووجدتها تنظر إلىّ في دهش وتمول :
— ما شاء الله .. لقد كبرت يا عايدة ، وأخجبت

عروسة ..

وأصابني شيء من الارتباك ، وخاصة أنى وجدت بعض
رواد المحل يتلفتون إلىّ ويحقدون فيّ بتطفل .. ، كأنما
أرادوا أن يتأكدوا حقيقة أنني قد أصبحت « عروسة » .

ولم أجد ما أدارى به حياتى سوى أن أتكلم فقلت لها
لمجرد رغبتى فى أن أقول شيئاً :

— كيف حال أحمد ؟

— بخير .. الحمد لله .. لقد أضفى هو الآخر رجلاً .

— لقد رأيته فى حلته الجديدة .

— أعرف ذلك .. فقد أبلغنى أنه كان فى زيارتكم ،

وأنه جلس معك مدة طويلة .

وتدخلت جذتى فى الحديث قائلة :

— كيف .. لى لم أبصره .. لم لم تخبرينى أيتها الماكرة ؟

وأجبته فى تلغيم :

— لقد حضر لزيارة « على » ولما لم يحده مكث ينظره

وأظن أنك كنت ليلتذاك فى زيارة عمى « زكى بك » .

ووجدتها توجه الحديث إلى خالتي :

— يجب أن تدعيه لزيارتنا ، لقد كان دائماً صديق « على » .

وأجابت خالتي :

— وما زال صديقه .. إنه يحبه كإخيه .. ولكنه

« واخذ على خاطره » من عايدته .

وتساءلت فى دهش :

— منى أنا ؟

— أجل .. لقد قال لى إنك قلت له إنه كلامثلين .. ،
وقد صمم أن يكف عن زيارتكم منذ ذاك اليوم .
— لقد كنت أمزح .. إني آسفة جداً .. أرجوك
يا دنت ، أن تعتذرى له عني .. إني لم أقصد أن أغضبه أبداً .
وقالت جدتي مؤذنة بانتهاء الحديث هامة بالانصراف :
— دائماً لسانك طويل ، وكلامك فارغ .
ثم ودعنا خالتي ، وانصرف كل منا في طريقه .
وعدنا إلى البيت وأنا أحس في القلب ذبذبة ضعيفة ..
ورجفة خافتة .

وفي اليوم التالي - قبيل العصر - وكنت مضطجعة على
الأريكة في الدور العلوى ، سمعت جرس الباب يدق وفتح
الخادم الباب ، وسمعت خليطاً من صوته وصوت آخر ..
جعلنى - برغى - أنهض واقفة ، وأتجه بحركة لا إرادية ..
إلى المرأة لأطمئن على شكلى .. وأصف شعرى بقدر
ما أستطيع من السرعة ، وأمر بأصابعى على حاجبى لأرتبهما
وأعيد الشعيرات الخارجة إلى مكانها .

ورجعت أنى بهذا العمل السريع الذى فعلته بلا تفكير ،
قد أعددت نفسى للقائه ، كأنى جزمت أنه قد حضر للقائى أنا ،
لا لقاء أخى .. مع أنى - فيما مضى - لم أحاول مرة واحدة

أن أعني بلفائه . . فقد كنت اعتبره في غير دائرة الاختصاص ، وكنت غالباً أتجنّب عن طريقه حتى لا أكلف نفسي مشقة تحيته والترحيب به .

وسمعت صوته يتصاعد إلى من أسفل وهو يقول للخادم :
— سيدك « على » موجود ؟

— لا ياسيدي . . لقد خرج منذ نصف ساعة .

— ألا تعرف متى يعود ؟

— لا أعرف بالضبط . . ولكنه تعود ألا باقى

إلا في المساء .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم سمعته يقول :

— حسناً . . أخبره أنى قد أتيت لزيارته .

وبدا لي أنه يهم بالانصراف . . فتمسكنى الضيق ، ولكنى

سمعت الخادم يرد قائلاً :

— سيدتى « عايدة » موجودة ، أتريد أن أنبئها بحضورك ؟

وحمدت للخادم قوله ، وانتظرت الإجابة ، وأنا أرهف

السمع ويدأى منهمكتان في تصفيف شعري ، وعيناي

مثبتتان في المرأة .

وبعد فترة تردد سمعته يجيبني :

— لا . . لا داعي . . بأنفها سلامي .

وهنا لم أجد بداً من ترك المرأة ، والإسراع إلى أسفل ،
وأما أسأل الخادم بصوت عال كإني لا أعرف من الزائر :

— من بالباب . . يا إبراهيم ؟

— سيدى ، أحمد بك ، .

— دعه يتفضل !

وارتفع صوت أحمد يهيجنى :

— إزيك يا عايدده !

— أهلاً وسهلاً .

وهبطت إليه ومددت يدي أصافحه .

ولأول مرة فى حياتى أشعر أن أصافحه الأيدى منعة ،
ولتلاص الأصابع لذة ، وتبين لى أن الأجساد البشرية
موصل جيد للحرارة الكهربية . . فقد سرى إلى من مس
يده تيار أحدث فى جسدى رجفة وفى قلبى خفقة ،
ووجدتني أضطرب وأرتبك رغم كل ما بذلت من جهد
لكى أتمالك وأبدو طبيعية

وجلسيت على أحد المقاعد وطلبت منه أن يجلس ،

وفظرت إلى وجهى وقال مبتسماً :

— يبدو عليك استمرار البحر ! !

— السمرة تمجيك ، أم البياض ؟

- حسن في كل عين من تود ا
- عدنا إلى الشعر .. ألم تنسك ، الخيل ، إياه ؟
- بل شجعتني عليه .. إنها أشياء متلازمة .. الخيل
والبيد والشعر .

- والهوى ، وليلى ؟ ا
- مالى من ليلى .. الآن على الأقل !
- وبعد ذاك ؟ .
- من يدري ا .
وتذكرت غضبه لإساءتي إياه بتشبيهه بالممثلين فقلت له :
- لقد نسيت أن أعتذر لك ا
- علام ا ا
- على ما بدر مني في المرة السابقة .. إنى ما قصدت به
سوى المزاح .. أرجو ألا تكون غاضباً منى ا
- أنا أغضب منك ؟ . حاشا لله !
- إذا لم قلت لو الدتك إنك لا تزورنا بسببى ؟
- أنا قلت هذا ؟
- قلت ما يشبه هذا .. قلت إنك تحب أخى . وإنه
صديقك الدائم .. ثم قلت إننى أسىء إليك .
وأطرق برأسه برهة ، ثم رفع إلى بصره ، وابتسم قائلاً :

— الواقع أنى لم أعود منك سوى المعاملة الجافة ،
والبرود والتجاهل .. أنكرين ذلك ؟
— لا أنكره ، ولكن بسبب .
— أى سبب ؟
— سييك أنت .
— أنا ؟

— أجل .. لقد كنت أعطيك واحدة بواحدة ، والبادىء
أظلم .. لقد كنت دائماً البادىء بالكبرياء والنفخة والتجاهل ،
فقابلت معاملتك هذه بالمثل .

— هذه مسألة يصعب حلها .. من كان منا البادىء
بالتجاهل ، ؟ .. تماماً كمسألة البيضة والفرخة .. أيها وجد
قبل الآخر ، وأيها نتج عن الآخر . على أنى أعتقد أن خير
طريقة لحل المسألة هو أن نكف سويًا عن تلك المعاملة ،
ومن جانبي أنا .. سأكف عنها ولو لم تكفى أنت ،
وسأعتذر لك عن كل مامضى من نفخة وكبرياء وتجاهل ،
وسأبدأ عهداً جديداً من التواضع .. ما رأيك ؟

— حسناً ، وأنا سأبادلك عهداً بعهدي ، ووعداً بوعد .
— اتفقنا .. دعينا نتصافح على ميثاقنا الجديد .. ميثاق
حسن المعاملة .

وضحكك مقهقه ، ومددت يدي لمصافحه .. وسرى بيننا
نفس التيار الذى سرى أول مرة .
وصمت برهة ثم سألتني :
— أما زلت تريد أن تتعلم ركوب الخيل ؟
— ليتنى أستطيع .
— ولم لا .. سأحضر إليك بالحصان ذات مرة ،
وسأخرج بك للتنزه بين المزارع .
— وإذا وقعت ؟
— تركيب مرة أخرى .. إذا استمر الحصان فى مكانه ،
وإذا جمع تعودين سيراً على الأقدام .
— وإذا كسرت ساقى ؟
— يتبقى لك ساق ثانية
— وإذا قذف بى فى الترعة ؟
— تغرقين إذا كنت لا تجيد السباحة ، وتبتل ثيابك
وتصابين بالبرد إذا كنت تعرفينها .
— ماشاء الله .. أهذا هو ميثاق حسن المعاملة ؟! من منا
البادى بنقضه .. كسرت ساقى ، وقتلتنى غرقاً . أهذه معاملة ؟
— هذه معاملة الخيل .. لست مسؤولاً عنها .
— دعنا من الخيل ، الآن .. خبرنى كيف تقضى

وقتك .. هل ما زلت تتعلم فن الركوب .. أم صرت راكباً
فناً .. أم فناناً راكباً ؟

— كليهما .. لقد انتهت فرقة « الركبدارية » ، وأضخيت
ضابطاً قديماً مسؤولاً ، وتسليت « بلوك » ، وأضخيت قائداً
لأربعين جندياً ، وأربعين حصاناً .. ما رأيك ؟
— كثير عليك .. ماذا تفعل بكل هذا ؟
— إذا لم تكني عن السخرية .. سأبطل الحديث .
وضحكت وأنبأته أني لا أسخر بل أستكثرها حقيقة ...
وقلت وأنا مسترسلة في الضحك :

— لو كنت مكانك وسلوني أربعين حصاناً لا اعتبرتها
كارثة ، وهررت هاربة خشية أن « يرفضني » أحدها .. أو
« يعضني » آخر . حدثني ماذا تفعل بهذا البلوك الذي تقوده ؟
— أدرّب الجنود ، وأتولى رعايتهم والعناية بهم ، وأنا
مسؤول كذلك عن نظافة الخيل ، وطعامها ، وسروجها ،
وتدريبها .

— كان الله في عروك .
— عدنا إلى السخرية !
— هذه سخرية ؟ . أنا أطلب من الله أن يعينك على
الأربعين حصاناً .. كيف تقوم لها بكل ما ذكرت ؟

— أستيقظ حوالى السادسة .. وأكون فى الإسطبل
الساعة السادسة والنصف .. فأنتم على الجنود والخيول ..
وأنا كد أن واحداً منها لم يضع .
— واحد يضع ؟ كيف ؟
— لقد سمعت أن الطوبجية سرقوا ذات مرة بغلا من
السوارى .. ومن ذلك اليوم ، وأشد ما أخشاه أن يسرقوا
منى حصاناً أو عسكرياً .
— وبعد أن تتمم عليها ؟
— نبدأ التفتيش على نظافة الخيل والسروج والجنرد ،
ثم نصطف للتأبور .. وفى الساعة السابعة نتحرك إلى الخانات
وهى أرض مفروشة بالقش نتخذها ميداناً للتدريب ..
فإذا ما انتهى التأبور عدنا إلى الشكنات لسقى الخيل
ولطعامها .. ثم تناول طعام الإفطار ، وتبدأ بعد ذلك عملية
الطومار .. وهى تنظيف الخيل .. وهى أثقل عملية
تصادفنى فى يومى وأشدها مللاً .. فإنى أذرع فيها الإسطبل
ما يقرب من المائة مرة ، وأسرح فى كل شىء .. وأقرض
الشعر ، وأؤلف القصص .. ويبعدونى أن دهر أقذات ،
ثم أنظر إلى الساعة فإذا بها لم تتجاوز نصف الساعة .

لست أدري ما يدفعني الآن إلى تذكر تلك التفاصيل
التافهة .. ولكن يبدو لي أن في تذكرها إطفاء لحرقه نفسي
وتهدئة للوعة قلبي .. إنني أستطيع الآن أن أذكر أقواله كلمة
كلمة .. أستطيع أن أذكر كيف كانت تلك الأحداث التي قد
تبدو لكم تافهة ملة .. ذات وقع لذيذ في مسمعي .. كنت
أصغى إليها باهتمام عجيب .. شاعرة أنني قد بت أمت إلى دنياه
بصلة وثيقة ، وأن عالم الخيل والجنود والطومار ، و حياة
الميس ، ونوادير الضباط وأعمال الثكنات قد أضحت أشياء
هامة لدى ، كما هي هامة لديه .

كنت أحب حديثه عن نفسه .. مدعية لنفسي أنني أحب
الحديث .. كمجرد حديث .. وأن هذا لا يعني قط أنني مهتمة
بصاحب الحديث .

كنت أدعي هذا ، وأنا أعلم في قرارة نفسي أنني كاذبة ،
فما خطر ببالي من قبل .. وقد أمضيت على قيد الحياة
سبعة عشر عاماً .. أن أهتم بالخيال .. أو بالضباط .. أو
بالجنود ، بل ما فكرت لحظة أن هناك شيئاً يسمى «السواري»
بل كنت أعرف أن هناك جنوداً وضباطاً .. ولا أكاد أفرق
بين ضابط البوايس والجيش .

وظل يحدثني ذلك اليوم دون أن يمل من الحديث ، أو أملّ من الإنصات .. حتى سمعت صوت « جدتي » تناديني بأن أصعد لارتداء ملابسى استعداداً للخروج ، فقد كنا على اتفاق بأن أذهب في زيارة إحدى العائلات الصديقة .

وتمنيت أن تذهب وحدها ، ولكنى لم أكن من الجنون بحيث أحاول أن أدعى أى سبب للتخلف ، فقد كنت أكره أن أضع نفسى موضع الشكوك .. لا أمام الناس فحسب بل أمام نفسى .

وعندما سمع هو صوت « جدتي » تهباً للانصراف ، واستأذنى فى أن يصعد لتحية « جدتي » .. فصعدنا سوياً .

وكانت « جدتي » مخلوقة طيبة ، حلت فى حياتى محل الأم ، ولم أكن أجد فيها عيباً إلا شدة شبهها بابنها - أبى - من ناحية الترية والآداب والكرامة ، وغير ذلك مما أثقلوا علىّ به .

ولقبته « جدتي » بالترحاب ... ترحاب العجائز الذى لا يخلو من الرب والبسمة ، ودعوة الله أن يحرسه ويحفظه من العين .

وتقبل « أحمد » دعواتها بالشكر وبعض الخجل .. ثم ودعنا وانصرف بعد أن دعت « جدتي » إلى تكرار الزيارة

خاصة وأن عمله ليس بعيداً عن البيت .
وخرجت مع « جدتي » قبيل الغروب . . وقد تملكني
إحساس بالسعادة لا أدرى كنهه ولا علته .
كنت أحس بنشوة خفية . . كنت على حال من الطرب
والسرور تدفعني إلى حب الناس كلهم وحب الدنيا بآجمعها .
كنت ميالة إلى المرح والغناء . . كنت أشعر برضى عن
كل شيء ، وعند ما عدت إلى الدار وتنازلت العشاء وذهبت
إلى النوم أحسست برغبة تدفعني إلى الجلوس في الشرفة وإلى
أن أفكر كثيراً .

وأحسست وأنا أحرق في النجوم بحنين إلى شيء مجهول
وبدأ لي كأنني شيء ناقص . . مازال له بقية .. هنا أو هناك ،
وأني أتلف على بقيتي . . وبدأ لي أنها تحوم حولي ، أو
أحوم حولها . . وأنها تنوق إليّ كما أتوق إليها ، وأن كلا منا
سيظل يلهث في الحياة ويتخبط حتى نلتقي . . فنصبح شيئاً تاماً
كاملاً ، قائماً بذاته .

ولم أحاول أن أحدد لنفسى على أى شكل خلقت بقيتي
وعلى أى صورة كوَّنت . . ولا حاولت أن أقترّب بها من
الحقيقة فأجسدها على هيئة معينة ، وألبسها لمخلاق بالذات ،

فقد كنت أجب عن ذلك .. كنت أفضل أن أبقى هائمة ..
وأن أقول لنفسي إن هذه أوهام وأحلام .. على أن أعترف
لها بأنني - ببساطة - أسعى إلى الحب ، وأن هذه البقية
التي أتوق إليها .. إنسان حي كائن .. أشعر به يقترب من محيط
حياتي ، ويترك باب قلبي .

كنت أكره أن أعترف حتى لنفسي .. أن رجلاً ، أو
على وجه أدق ، أن ، أحمد .. قد بدأ يتخذ لنفسه في نفسي
مركزاً متمسكاً .. وأني ككل أنثى أوشك أن أتردى في هاوية
الحب .. إن لم أكن قد ترديت فعلاً .. وأن كل تلك المنة
التي حصنت بها ، والمبادئ التي لقيتها .. قد تهاوت عند أول
هجمة من هجمات الحب .

وذهبت إلى الفراش ورأسي خليط من الأفكار وبنفسي
مزيج من المشاعر .. حنين ، وخوف ، وتمنٍّ ، وانتظار ،
وكان كل ذلك قد أحيط بهالة من السعادة والإحساس بأن
أحياناً توشك أن تقع في حياتي ، وبأنني رغم كل ما أدعيه
من السخريّة من الحب .. والإلحاد به ، ورغم جمود حسي ،
وبرود مشاعري .. قد تردّيت في الهاوية .. وأني مهما
ادعيت ومهما زعمت فقد وقعت في الشرك ، وبت أنلطف على
حضوره ، أحمد .. وأنشوق إلى رؤيته .

كيف لا ، وأنا إن قد قاومت تفكيري فيه في يقظتي
هاجني طيفه في نومي ، فلم يدع لي حلاً واحداً أخلو فيه بنفسى
دون أن يشاركني فيه .
قاتل الله الأحلام ، لقد هزمتني شر هزيمة . . لقد كنت
أراه وأجه في كل حلم .





امنیة مشتركة

أحمد ، يتردد بعد ذلك على دارنا في فترات
أفند متقاربة . . وكان حضوره طبعاً . . لزيارة أخى ،
أو على الأقل هذا ما كان يبدو في الظاهر وإن كنت يا حساس
المرأة قد استطعت أن أجزم أنى وحدى كنت مقصده .

ولم تتح لنا فرصة لقاء طويل ، إذ كان يجد أخى فى كل
مرة يأتى إلينا ، وكان إما أن يمكثنا معاً أو يخرجنا سوباً . .
ولم أك أعدم فى كل مرة سبباً يبرر لى أن أدخل حجرة أخى
وأن أسلم عليه وأتحدث معه حديثاً سطحياً عابراً .

وفى ذات يوم ، فى أواخر أكتوبر ، اتفقت مع جدتى ،
على أن أصطحبها إلى إحدى دور السينما حيث كان يعرض
فيلم مصرى ، وارتدينا ملابسنا استعداداً للخروج ، ووقفنا
بالباب . . وعندما كنا نهم بركوب العربة لمحت « أحمد ،
مقبلاً علينا .

وبعدما اقترب منا حيانا وقال متسائلاً :

— « على موجود ، ؟

وأحسست برغبة تصدى عن الذهاب إلى السينما وتمنيت
أنى لو أجلتها إلى يوم آخر . . فقد كان الوقت مناسباً للتمتع
بجلسة لطيفة . . ولكن لم تكن هناك وسيلة للنكوص .

وأجبتة :

— لقد خرج منذ برهة .

ونظر إلى .. وقد بدا عليه أسف ظاهر لم يستطع أن
يخفيه .. أسف لأنه لم يجد أخى ، وأسف أشد لأنى لست باقية
فى البيت .

رلم يملك سوى أن يحيننا .. ويهمّ بالمسير .. ولكن
« جدتى » دعتة إلى أن نوصله بالعربة إلى حيث يريد .
وركب بجوارى ، وسألته « جدتى » :

— لئله أين ؟

— لبس لى مقصد معين ، ربما ذهبت إلى السينما .
— إذا تذهب معنا ، إننا ذاهبتان لمشاهدة فيلم
(الشيطان شاطر) .. هل رأيته ؟

وأحسست أن الأمور قد تطوّرت فى غمضة عين إلى
خير ما أشتهى .. لأنه لاشك سيصحبنا إلى السينما .. وأنى
أوشك أن أجلس بجواره ثلاث ساعات .. وتمنيت أن يقول
إنه لم يره وكان هو عند حسن ظنى ، فأجاب سريعاً :

— لا .. لم أره .. ولكنى سمعت أنه من خير الأفلام .
لأنهم يقولون إنه مضحك جداً .

— كذا قالت لى عابده ، ولهذا أصرّت على أن تدعوني

لمشاهدته .. أنا لا أحب السينما .. ولكن عند ما يكون الفيلم
مضحكاً تصبح محتملة .

وانسابت بنا العربة في « شارع الملك » ثم شارع « الملكة
نازلى » ، وتملكنى إحساس عجيب بالسعادة والرضا عن
جلستى بجواره .. وأخذت أرقبه بطرف خفى .. ولم تخف عليه
نظراتى فسألنى مازحاً :

— أما زلت تربى كالممثلين .. مفرطاً فى الأناقة ..
مفرطاً فى الجدة ؟
وضحكت وأجبت :

— لا .. لقد بدا عليك القدم .. وأوشكت البدة أن
تبل .. بعد شهر ستصبح كالسعاة .
وتدخلت جدتى ناهرة إياى :
— يا بنت .. كنى عن قلة الأدب .
وأجاب هو ضاحكاً :

— دعها .. فسأعرف كيف أغلبها الأدب .. إن بيننا
ميثاق حسن معاملة .. والشتائم فى عرفها من حسن المعاملة .
ووصلنا إلى السينما ونظرت إلى واجهتها فإذا بى أرى إعلاناً
عن فيلم جديد ، وإذا بالفيلم الذى أتينا لرؤيته قد انتهى عرضه .
وكان الفيلم المعروض أجنياً .. وتملكنى خوف

من أن تنكص ، جدتي ، عن الدخول .. وقلت لها :
— لقد انتهى عرض الفيلم .. والفيلم الجديد أجنبى ..
ما رأيك يا نينه ؟

— فيلم أجنبى ؟ أنا لا أفهم من هذه الأفلام شيئا .. كان
يجب عليك أن تتأكدى من برنامج العرض فى الصحف .. حتى
لا تقطع المشوار ، بلا فائدة .

— ولكنك فيلم جيد جداً .. من أحسن الأفلام .
— أحسن الأفلام وأردوها عندى سواء ، لأنى لا أفهم
كليهما .

— سأشرح لك .
— لا .. لا .. لا داعى لتعب القلب .
ومضت فترة صمت لم أستطع أن أخفى خلالها علامتى الضيق
على وجهى وأردفت ، جدتي ، قائلة :
— على أية حال .. يمكنك أن تدخل السينما مع
أحمد ، وسأذهب أنا لزيارة نفيسه هانم ثم أعود إلى
البيت .

ولم أصدق أذن ، فقد وجدت أن الظروف قد كرمت
معى إلى حد التبذير والسفاهة .. وأسرفت فى سخائها إلى درجة
لم أتصورها قط .

أهكذا ينتهى الأمر بنا بمثل هذه السهولة إلى أن ندخل
رحلين سوباً؟ لا .. لا .. هذا كثير !

وكان الواجب علىّ أن أبدي بعض التردد والممانعة ،
وأن أقول مثلاً : لا ضرورة اليوم للسينما ، أو : لا يابننه
سأعود معك ، أو أدعى أن : نفسي هانم ، قد أوحشتنى .
كان هذا الواجب علىّ ، وكانت تلك هى الأقوال
الطبيعية المنتظر منى قولها .. ولكنى خشيت أن ينقلب
الأمر فى اللحظة الأخيرة ، فتوافق : جدتى ، على أن
أعود معها ولا يصيبنى غير الندم .. وعلى نغمها جنت
مراقش . .

وهكذا وجدت نفسى أقول ببساطة وكأنى أمثل لأمر
مجبرة عليه :

— أمرك يابننه !

وهبطنا من العربة ، وأحسست بيده تطبق على يدى
ليقودنى وسط الجماهير المتراصة أمام دار السينما . . وتركنى
قليلاً لبيتاع التذاكر . ثم دلفنا إلى الداخل .

وقادنا عامل المقاعد : بيطاريته ، وسط الظلمة إلى مقاعدنا
وسرنا نتحسس طريقنا وهو يمسك يدى حتى استقررنا على

المقاعد ، وانتهى عرض « الجريدة » ، التي حضرنا في خلالها
وعرضت إشارة الفيلم القادم .

وقلت له وأبا أشاهد الإشارة :

— الظاهر أنه فيلم مدهش !

— نراه سوياً .. إذا لم يكن لديك مانع .

— ولكن « جدتي » ، لا تحب الأفلام الأجنبية !

وخيل إلى أنه يتسم في خبث وهو يقول :

— وفيها إيه ! تذهب لزيارة نقيسه هانم .. حفظها الله

وحلت فترة الاستراحة وأضيئت الأنوار .. وأخذنا

نتطلع إلى الوجوه المحطة بنا ، ووجدته يشير برأسه محيياً ،

وتلفت إلى حيث ينظر فوجدت سيدة وفتاة في مثل سنى وشاباً

يبدو أنه أخوها .. فقد كانا متقاربين في الملاح .

وعندما انتهى من تبادل التحيات والالتسامات ، نظر إلى

وقال مفسراً :

— محمود عبد الرحيم وأخته « ابتسام » ، وأمهما ..

جيرانتا في المنزل .. والأم أعز صديقات أمي .. عائلة طيبة .

وأمرى تحبهم كثيراً .

واسترقت نظرة أخرى إلى الفتاة ، فاحصة إياها فحماً

سريعاً .. فوجدتها على كثير من الجمال .. وخاصة جمال
الوجه .. أما جسدها فقد بدا لي على قدر ما رأيت مائلاً
إلى السمينة .

وقلت مسترسلة :

— الفتاة جميلة ! .

فأجاب بعدم اكتراث :

— بنت حلال .

وعدت أقول مازحة وفي شيء من السخرية :

— أراها تنظر إليك كثيراً ؟

ونظر إلى برأسه محققاً كأنه يود أن يعرف ما وراء

كلامي ، ثم قال وهو يتسم :

— متأكدة ؟

— جداً . ويدولي كأن وجودي معك قد ضايقها !

— معها حق .. أليست عروستي ، المقبلة ؟ على كل حال

سيزول ضيقها عند ما تعلم أنك ابنة خالتي ، وأن ما بيننا مجرد

قراية .. وأن وجودنا في السينما سوياً .. كان عفواً بلا سابق

موعد ولا تدير .

ورغم ما كان في لهجته من مزاح .. ورغم تأكدي أنه

يرد على محاولتي إغاضته .. فإني أحسست من قوله بضيق خفي

حاولت أن أقاومه وأخفيه بأن أفرض على نفسي شعوراً
بعدم المبالاة .

وقلت له في لهجة حاولت جهدى أن تكون مازحة :

— لم كنت تشكر إذا أن لك ليلاك ؟

— ليلاي شيء .. وعروسي شيء آخر .. هذه عروس

بالإكراه .. فقد انفقتم أمى وأما منذ ثمانية عشر عاماً ..

— أى منذ ولد — أنها ستصبح زوجتى .. وأغلب الظن

أنهما قد قرآ الفاتحة و جزء عم ، باكمله .

— وماذا يمنع من أن تزوجها ؟

وعاد يحدق فى غيظ :

— وماذا يجعلنى أتزوجها ؟

— الذى جعل الناس كلهم يتزوجون .

— على أية حال .. أنا لا أعتبر صداقة أى لأمها .

سبباً يجعلنى أودى بنفسى إلى تهلكة الزواج .

— أو تعتبر الزواج تهلكة ؟

— طبعاً !

— إذا فلن تزوج ؟

— إلا أمام عامل واحد . . يتهاوى أمامه كل عزم .

— وهو ؟

— الحب .

— حب ! !

قلتها بمنتهى السخرية والاستخفاف ، وأجابني ضاحكاً :

— آه . . لقد نسيت أنك من ألد أعداء الحب .

وأطنىء نور السينما إيداناً بابتداء الفيلم ، وهدأت الضجة التي كانت تسود المكان خلال الاستراحة ، والتي أتاح لنا أن نتبادل الحوار السابق . . ووجدنا أنفسنا — على غير رغبة منا — قد اضطررنا إلى الصمت وإلى أن تتجه بأبصارنا إلى الشاشة .

وبدا عرض الفيلم . . وحارلت أن أركز تفكيري في الحوادث التي تتابع أمامي ، ولكنني وجدت تفكيري يتفرق بدءاً ، وذهني يشرد فلا أكاد أله ، ولم أستطع أن ألتقط من القصة المعروضة سوى مناظر متفرقة متباعدة لا أعى لها معنى ولا أرى بينها رابطة .

كانت الأفكار تموج في ذهني وتختلط . . أحمد وعروسه المقبلة . . ابتسام وأما وقراءة الفاتحة . . أيمن حقاً

أن يتزوجها ؟ لم لا ؟ ولكن ألم يقل إنه لا يحبها ؟ .. من
تكون ليلاه ؟ ألا يحتمل أن يتزوجها إرضاء لوالدته ؟
ألا يحتمل أن يحبها على مر الأيام ؟
ولكن مالى أنا ولهذا .. ليتزوجها .. أو ليتزوج سواها
من نساء الأرض .. ماذا أريد منه ؟ وأى حق لى عليه ؟
تبأ لى من حمقاء ماجنة !

وبدا بتملكنى إحساس بأنه يسترق النظر إلىّ فى الظلمة ،
وأنه هو الآخر لا يتبع حوادث الفيلم .
وتمنيت لو أننا استطعنا الكلام وعادنا الحديث ..
لكى أقول له - ولنفسى - رأيت فى الحب ، وأعلن له أرى
جامدة العاطفة .. بينى وبين الحب جدار تخين يقينى شره
ويؤمنى عصفه .

وازداد بى القلق .. وخيل لى أنه لم يكن بأقل منى قلقاً ،
ووددت أن تغادر دار السينا ونستبدل بمجلسنا فيها جلسة
فى الشرفة الخضراء المورقة النضرة المزدهرة .. وكنت أعلم
أن القمر الليلة فى تمامه ، وأنه يخلع على الشرفة سحراً عجيباً .
وفجأة وجدت قلقي يزول .. وذهنى الشارد يستقر ،
وأفكارى المختلطة الصاخبة تهدأ وتتركز .. كل ذلك كان
مبعث حركة نافذة بسيطة .

كنت أجلس في أول الأمر وبدأى متشابكتان
في حجرى ، ولكن حدث أن غيرت جلستى وملت
مسندة مرفقى الأيمن - والأقرب له لأنه كان يجلس عن
يمينى - إلى مسند الكرسي مادة ساعدى ، بأسطة كفى على
حافة المسند .

ومدّ هو يده - بقصد أو بغير قصد - ليسند كفه على
نفس المسند . . وشعرت بكفه توضع برفق فوق كفى . . ولم
أحرك ساكناً فقد أحسست بالتيار الخفى الممتع الذى سبق
أن أحسست به عند مصافحته . . ولكنه كان فى هذه المرة
أشد وأقوى ، كانت كفه أكثر دفئاً وحناناً ورقة .
وبدأ بيننا الحديث ، ليس بالشفاه ، ولكن بالأصابع
والأكف .

وإنى لا أكتب الآن ، وأنا امرأة ذات خبرة وتجربة ،
ذقت من كثرة الهوى أعذبها . . ومن متع الغرام ألذها
وأشهاها ، ولكنى أقسم أننى ما ذقت فى حياتى أمتع من
مناجاة يدينا ليلتذاك .

أحسست بباطن يده يتحسس برفق وشغف ظاهر يدي
كما يتحسس البخيل أنفـس ما يملك ، ليطمئن على وجوده . .
أو كما يتحسس الأعـمى العاشق وجه من يحب . . ثم بدأ يدفع

أصابعه أسفل أصابعي فيتحسسها أصبعاً أصبعاً بمنتهى الرقة
كانما يخشى أن تذوب في يده ، أو تنفتت بين أصابعه ، وبدأ
في تحسسه هذا كأنه غير مصدق أن هذه أصابع أو كأنه
لأول مرة يمسك أصابع .. أو كأنه قد أذهله أن يجد
بالكف خمسة أصابع ! !

وأحسست به — بعد ذلك اللمس المفرط في الرقة
والحنان — يحتوى كفى في يده ، ثم يضغط عليها ضغطاً
خفيفاً .. خفيفاً جداً . لا يكاد يحس ، وكأنني به يهتف من
أعماق قلبه ، أنا أحبك . .

وبدأ بعد ذلك دور العناق .. ولم لا أسميه عناقاً
وأنا ما أحسست من العناق الحقيقي بأكثر منه متعة !
لقد تخلل أصابعي بأصابعه فتشابكت أيدينا ، واستقرت
يدي في يده وأحسست براحة عجيبة .. كأنني قد استقررت
في أحضانه .

قد يبدو حديثي مضحكاً ، وقد يستغربه البعض وينكره
البعض الآخر متهمين إياي بالعتة أو الجنون ، ولكنني واثقة
تمام الثقة .. أن العشاق سيفهمونه .. العشاق الذين يرسلون
مناجاتهم مع الرياح ، ويتفاهمون بذبذبة القلوب .. لا بد

أن يقدروا كيف تتفاهم الأكف وتتناجى الأيدي .

ووجدته يلتفت إلىّ في الظلمة ويهمس :

— أراضية أنت عن الفيلم ؟

— نصف ونصف .

— ما رأيك في مغادرة السينما ؟

— إلى أين ؟

— إلى البيت . . نجلس في الشرفة إياها !

وصادف عرضه هوى في نفسي ، ولو أنني أوتيت شيئاً

من الشجاعة لكانت البادئة بعرضه .

وصمت برهة ثم همست به :

— هيا بنا .

ونهمضنا عن مقاعدنا متسللين إلى الخارج ، وقد تملكني

خجل شديد وأحسست أن الناس جميعاً يرقبوننا ، وخيل إليّ

أن عينيّن معنيتين بالذات تحدقان فينا . . هما عينا « ابتسام » .

وخرجنا إلى الطريق ، وتلفت حوله يبحث عن « تاكسي »

ولكنني كرهت أن أحمله أجره ، وأصررت على أن نركب

الأوتوبيس ، وسرنا في « شارع فؤاد » حتى بلغنا تقاطعه

ب« شارع سليمان باشا » ثم اتجهنا إلى أوتوبيس ١٤ .

وحضر الأوتوبيس بعد فترة قصيرة ، واتخذنا مجلسنا
متجاورين على مقعد واحد ، وكانت العربـة - على غير العادة -
تسكاد تكون خالية .

واستغرقنا فى الحديث . . فى حديث طويل لم يقطعه
غير الكمسارى عند ما حضر لإعطائنا التذكـرتين .

ولست أدرى . . من أين كان يأتينا كل هذا الحديث
الذى لا ينضب له معين . . إني لم أك قط ثرثرة . . بل كان
أكثر ما تعييه على " جدتي " هو ميلى إلى الصمت وعجزى
عن مسارعتها والحديث معها ، ولكنى كنت معه طـلقة
اللسان ، أستمـرى الحديث معه وأستعذب الإنصات إليه .

كنا نتكلم وتكلم . . دون أن نحس مرة واحدة أننا
تسكف الكلام . . أو يعيننا موضوع للحديث . . ولم
نكن نعرف ما دمننا سويآ . . أن هناك شيئآ يسمى الملل
أو السآمة . . لأننا ما أحسسنا بمرور الوقت . . فقد كان يمر
بنا كليم البرق . . كان عقرب الساعات يعدو فى سيره . .
أما عقرب الدقائق فلم يكن له فى زمننا وجود .

وكان يجب أن نترك الأوتوبيس قبل النهاية بمحطة . .
ولكننا لم نشعر إلا وقد وقفت العربـة فى نهاية الخط .

وغادرنا العربية .. وكانت المحطة الأخيرة قائمة قرب
« الجامع » المطل على « سراى القبة » ، والكائن فى زاوية ينتهى
عندها « شارع الملك » ، ويتبدى « الشارع المؤدى إلى المطرية
الممتد بحذاء سور السراى البحرى » ، والذي يقوم السراى
على أحد جوانبه ، « وتقوم المزارع على الجانب الآخر » ،
وتظلل أشجار البانسيانس الممتدة على الجانبين .

وكان علينا لى نذهب إلى البيت أن نعود أدراجنا من
« شارع الملك » ، ولكنى رأيت قد توقف أمام الجامع برهة
لينظر إلى أشجار البانسيانس الممتدة فى الطريق الزراعى ،
ونظر إلى ساعته ثم قال :

— الساعة الآن ما زالت الثامنة .. مارأيك فى التنزه

فى هذا الطريق ؟

ولو قال لى إنسان من قبل أنه يحتمل أن أسير مع شاب
— أياً كان — فى مثل هذا الطريق وفى مثل هذه الساعة
من الليل .. لسببته واتهمته بالجنون .. فما كنت أجرو قط
على التفكير فى مثل هذه المشية المشبوهة المسترقة ، وما كان
يخطر ببالى أن أسير فى الطرقات وفى المزارع .. كما يهيم
العشاق المخاييل

ولسكنى فى تلك اللحظة . . والقمر ينسط نوره المهادى .
الربط على المزارع الممتدة ، والجوامع قد بدا أبيض نظيفاً
كأنه قد اغتسل بنور القمر . . والأشجار قد ترامت ظلالها
على الطريق . . فبدت قارعتة وكأنها سجاد منقوش ، والنسيم
يحرك الأوراق فيبعث منها حفيفاً كأنه الأنفاس الناعمة .

وهو ١١ هو . . ذلك المخلوق الساحر العجيب . . الذى
فعلت بى مسة يده . . ما لا تقدر عليه عصا موسى . . الذى
جعلنى — أنا الباردة الجامدة — أذوب . . وأتحلل . . كما
تذوب قطعة الجليد عندما يلقى بها فى فوهة بركان .
كيف أقاوم وقد استعان على بنسيم الليل وضوء القمر
وهمس الشجر ١١

وترددت برهة . . فقد مرّ بخاطرى . . ما يمكن أن يقوله
أى من أهل الدار : أبى أو جدتى أو أخى . . لو عرفوا أنى
أسير مثل العشاق فى مشية شاعرية ؟

وتملكنى خوف . . لا بما يمكن أن يفعلوه بى ، فما كنت
لأخاف إنساناً قط . . حتى أبى ، ولكنى كنت أخاف على
كبريائى أن تتحطم . . كان أقصى ما أخشاه وأكرهه . . هو
أن يقال عنى إنى عاشقة وأنى تردت فى هاوية حب . . حتى

ولو كان حب الرجل الذى سيصبح لى زوجاً .
وقلت لنفسى إن البيت آمن عاقبة .. فإنى فى بيتى أستطيع
أن ألتصم مائة حجة أدفع بها عن نفسى وصمة الحب .. فأدعى
أنه يحضر لأخى ، وحتى لو قال أحد إنه يحضر إلىّ ، فإنى
أستطيع أن أجيب : ما ذنبى ؟ أيمكن أن أطرده ، أو أحرّم
عليه الحجى ؟

كنت أفضل أن ألتصم دائماً — ما دمت أوشك أن أتردى
فى الهاوية — موقفاً سلبياً ، حتى أستطيع التنصل بسهولة .
وهممت بأن أقول لا ، وأنه خير لنا أن نعود إلى
البيت .

ولكنى وجدته لم يستطع على ترددى صبراً ، فجذبني من
بدى قائلاً :

— هيا بنا .. هيا أنا ما زلنا فى السبيل .
وسرت معه مترددة فى بادىء الأمر ، ولكنى تذكرت أن
جلسة الشرفة غير مضمونة ، إذ يحتمل أن يكون أخى قد عاد
مبكراً فيضطر أحمد إلى الجلوس معه .
وأمر آخر ، استطعت أن أقنع به نفسى — أو على
الأصح — أغالط به نفسى ، وليس أسهل على الإنسان من
مغالطة نفسه .

لقد قلت إن المسألة مسألتى أنا أولاً وآخرآ ، وأنى مادمت
واثقة من نفسى ، قادرة على كبح جماحها ، فلا خوف على
كبريائى ، وعلى مقاومتى .

إنى لا أحب ، ولن أحب ، هذا مجرد ترويح عن النفس ،
وإن صحبة إنسان لطيف مهذب ، قريب ، لا يمكن أن تعنى
أنى ترديت فى هواه ، إنه مجرد أخ ، أو صديق .

أما التنزه فى النسيم العليل ، وفى ضوء القمر ، فهذا شىء
طبيعى .. كيف يكون التنزه إذا ؟ فى هجير الشمس وسمارة
القيظ ؟ أكل المتزهون عشاق ؟

لا . لا . يجب أن أكف عن هذه الوسوسة ، وهذا
الخوف .. ويجب أن أكون أثبت جنانا ، وأشجع قلبا ..
لا يجب أن أفر من الحب ، بل يجب أن أواجهه وأفهره .

وهكذا — ككل المنافقين — تمكنت من إقناع نفسى
وطمأنة قلبى ، ولم أحاول أن أتساءل مثلاً : لو كان أخى محل
أحمد ، أكنت أقدم على النزهة معه بنفس السرور .. وبنفس
المتعة ؟

وبدأنا السير فى الطريق .. وعادونا الحديث ، حديثاً عاماً
— حاداً عن مبادئ وآراء ووقائع .. ليس فيه أى أثر من
أحاديث العشاق ومناجاتهم .

وبلغنا منتصف الطريق ، فلاح لنا بين المزارع شبح
ساقية قديمة ، وسور مهدم ، وشجرة توت ضخمة قائمة على
بقايا الساقية .. وبدا منظرها في ضوء القمر .. أشبه بلوحة
زيتية من صنع فنان ماهر .. ووقفنا برهة نتأمل المنظر
الساحر — أو على الأصح — الذى أبدته لنا أوهامنا ،
ساحراً .

وسألني في رقة :

— أنستريح قليلاً على السور بجوار الساقية ؟

ويبدولى أنى كنت فى تلك الليلة قد نسيت لفظ « لا » ،
فقد أشرت برأسى بحية : « كما تشاء » .

واتجهنا يسارنا فى الطريق الضيق بين المزارع ، ولم نسر
إلا مسافة قصيرة ، ثم بلغنا الساقية وجلسنا على حافة السور
مواجهين القمر .

وحتى فى هذه الجلسة .. كنت مقنعة نفسى تماماً ، أن
المسألة ليست مسألة حب ، وأنى لم أشعر بعد بالحب .

أى حمقاء منافقة كنت ؟ ماذا كنت أظن الحب ؟ طارق
يدق الباب ، ويسأل عنى .. ثم يمسك بتلابيى ، ويطبق على
خناقى ، ويقول : « أنا الحب » ؟

أبكنى .. لكى أتجنب الحب .. وأضحى غير عاشقة ..

ألا أتكلّم عن الحب ، وأن تكون كل الأحاديث بيننا
لا تحمل طابع المناجاة ؟ أيكفي أن يكف اللسان عن أقوال
الحب ، حتى يضحي المرء غير عاشق ؟

لقد كان هذا هو مبدئي ، الذي أفنعت به نفسي لكي
أحارب الهوى .. كنت دائماً عفة اللسان ، عفة التصرف ..
إذ كان لساني ومظهرى هما أقصى ما أستطيع التحكّم فيهما ،
أما قلبي فقد كان فوق إرادتي .. كان جاحاً شارداً ،
لا سلطان لي عليه .. كان ناثراً على .. متمرداً على حكمي ،
مستقلاً تمام الاستقلال .. كنت في واد ، وهو في واد ..
كنت أجفل من الحب ، ويمعن فيه . أدعى الجمود والبرود ،
وهو يرقص طرباً بلا خجل ولا حياء . أجلس ثابتة وقوراً
متالمكة متماسكة ، وهو يهفو ويترنح ، نشوان في جنبات الصدر
عريد ، .

قلت له وقد استقر بنا المقام على حافة الساقية .. ومن
حولنا الخضرة المترامية كأنها بحر يحرك النسيم أمواجه :
— حدثني عن آمالك في المستقبل وأمانيك .
وصمت برهة وأطرق برأسه مفكراً .. ثم انطلقت منه
ضحكة خافتة وأجاب :
— أمانى نوعان

— كيف؟

— نوع قريب ، ونوع بعيد . . نوع مستطاع ، ونوع فوق الطاقة . نوع في اليد ونوع على الشجرة ، أو على مدى الجوزاء . هل تعرفين قول الشاعر :

منى إن تكن حقاً تكن أحسن المنى

وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

إن آمياتي تجمع النوعين ، نوع أتمناه وآمل أن يتحقق ، ونوع أتمناه لأعيش به زمناً رغدا ، ولا ضيع به ملل ، الطومار ، وأسرح فيه خلال تأنيب ، القومندان ، ونصائح . ولم أتمالك الضحك وقلت له :

— هذه طريقة مدهشة .

— أجل ، السرحان ، هو خير طريقة لكي لا تسمعين ما لا تودين سماعه .

— دعنا نستعرض أمانيك . . حدثني أولاً عن الأمانى

التي تعيش بها زمناً رغدا .

— لا . لا . إنها أمان مضحكة ، مستجعل منى سخريه ،

إذا ما صرحت لك بها .

— لا بد أن تقولها لي .

— حسناً . . إنها ليست شيئاً كثيراً ، إنها تنتهي بي دائماً

إلى أن أصبح أحد شخصين : شكسير ، أو نابليون ، أقصى
النبوغ في الاتجاهين اللذين أسلكهما في الحياة ، أما عن طريق
الوصول ، فإنى أتخذ طريقاً ليس به قفزة غير معقولة بل أجعل
كل وثباته معقولة ، وأخلق لها الظروف والمناسبات . وأطل
أرتفع بنفسى شيئاً فشيئاً حتى أجدنى فى النهاية قد صرت
— بمنتهى البساطة — أحد الرجلين الخالدين ، تلك هى المنى
التي لن تتحقق ، والتي عشنا ، وسنعيش بها زمناً رغدا .
— بقيت التي إن تكن حقاً .. تكن أحسن المنى .

ولم يتمالك الضحك وعاد يقول يكرر قولى :
— .. تكن أحسن المنى .. لقد تعلبت ترديد الشعر ..
وبعد قليل تتعلمين قرضه .

— من جاور الحداد كوى بناره .. هات أحسن المنى !
— هذه هى المنى المعقولة .. إنى طالب من الله — على
حد قول شحات شهير — ولا يكتر على الله .. فناة حلوة .
ونظرت إليه واستغرقت فى الضحك وقلت مرردة فى مثل
لهجته :

— لا .. بسيطة .. خليها على الله .. ماذا تريد منها ؟
— أحبها ...
— أيضاً بسيطة .

— ونحبنى ...

— ويحب ناقتها بعيرك ؟

— لا .. لا .. لا ناقة لى فيها ولا جمل .. ألم أقل لك
إن شيطان الشعر قد أغواك .
— أهذه كل أمانيك ؟

— لا .. ليست كلها .. أريد من الفتاة أن تشاركنى
حياتى .. وتكون مثلاً للزوجة .. تتوافق ميولنا ، وتحدد
مشاربنا ، وأن تنجب لى ابناً وابنة .. وتكون لهما خير أم
وأن يرزقنى الله عربية صغيرة حمولتها نحن الأربعة ، وفيلاً
بجديقة غناء يلعب فيها الأطفال .

— لا .. لا .. أنت طماع .. يكفيك شقة ، ويلعب
الأطفال فى المدرسة .. أو فى المتنزهات العامة .
— حسناً .. قبلت .. موافق يارب .. تكفينى شقة ،
وعربية نصف عمر .

واستغرقنا فى الضحك سوياً ، ولم يكن هناك أسهل علينا
من أن نستغرق فى الضحك .. كان أى شىء — مهما سخف —
يستطيع إخضاعنا .. فقد كنا نستمد الضحك من أنفسنا
الراضيتين ومن باطننا القدير .
وقلت له :

— هذه أمان متواضعة بسيطة ، سيحققها الزمن لك
إن شاء الله.

ونطقت بقولي مخلصه .. فقد كنت أشعر أنه إنسان
ذو نفس طيبة ، وقلب جميل .. لم أستمعه قط يذم أحداً ..
أو يكره أحداً .. بل كنت أراه نموذجاً للصفاء .. صفاء
الذهن والقلب والروح .
وقلت مردفة :

— بل يبدو لي أنك تستطيع أن تحققها الآن شيئاً فشيئاً .
ماذا يبلغ مرتبك ؟
— اثني عشر جنياً .

— حسناً .. دعني أدبره لك .. يجب أن توفر نصفه
على الأقل كل شهر حتى تستطيع أن تهني مبلغاً من المال
يعينك على تحقيق أمانيك .
— إني فعلاً أحاول ذلك ، إني أقصد كل ما أستطيع
اقتصاده .

— متى تتوقع أن تترقى إلى الرتبة التالية ؟
— بعد ثلاث سنوات أكون ملازماً أول ، وبعد أربع
يحتمل أن أصير يوزباشي .. فإن الجيش الآن في زيادة ،
لأن المعاهدة تنص على أنه لا بد أن يكون لنا جيش قادر حتى
يستطيع أن يقوم بمهمة الدفاع بدل جيوش الاحتلال ..

وقد بدأ التوسع فعلاً .. فقد أضحي السوارى لا يقتصر على
آلاى الخيالة ، بل وضعت نواة لآلايين جديدين ميكانيكيين:
آلاى دبابات وآلاى سيارات .

ولكنى لم أفتع بقوله .. وبدألى مستقبله فى الجيش باهتاً
مظلياً ليس به مجال لنمو ولا عبقرية .. ولم يكن لدى فكرة
حسنة عن ضباط الجيش .. فقد كنت أراهم فارغى العقول
مليئى البطون .. وتخيلته بعد بضع سنين ، وقد ترهل جسده
وانتفخ كرشه من قلة العمل ، وتبلد ذهنه لعدم التفكير ..
ووجدت تفكيرى المظلم قد دفعنى إلى أن أقول له بأسف :

— كم وددت لو اتجهت اتجاهها آخر .. كان خيراً لك أن
تدخل كلية الهندسة أو الفنون أو الآداب ، أى اتجاه آخر ،
كنت تجد فيه مجالاً لإظهار نبوغك ، غير هذا العمل المعطل
للبواهب .

ورأيت وجهه - لأول مرة - يتجههم ويعلوه احمرار ،
ومضت فترة بدا لى أنه يحاول أن تهدأ فيها تأثيرته وأخيراً قال:
— لا أود قط أن تقولى كلاماً كهذا .. انزعى هذه
الصورة الخاطئة من ذهنك .. إنى أحب الجيش .. أحب
ضباطه وجنوده ، كما أحب أهلى . إنى أحس وأنا فى الملبس ،
أو السكنات ، بأنى فى بيتى وبين أخوتى .. لاتكونى غيبة

ككل الأغبياء الذين يقولون ما فائدة هذا الجيش العاطل
الذى لا يحارب؟ هل يظنون أنه مفروض على الجيش أن يخلق
الحرب لكي لا يبقى عاطلاً؟ وأنه - إذا ما طال به السلم -
يجب أن يحمل مهماته وأسلحته ويقول لهم سلام عليكم . أنا
راجح أحارب ، ١ . لم يعمييون الجيش والعيب في الأمة ؟ إن
هذا النعل من ذاك الوطا ؟ ، أو هذا الجيش من تلك الأمة .
أمة محتلة .. ينخر فيها سوس الغاصب .. أمة يئن شعبها الهزبل
تحت وطأة البلهارسيا والانكستوما وماء الترع و .. البتار
الحاف ، . إن هذا الجندي من ذاك الشعب الهزبل المسكين .
ولكننا بدأنا في الجيش عهداً جديداً ، كان الإنجليز
يسيطرون عليه ويتولون قيادته ليضغطوه ويطبقوا عليه حتى
يظل منكشاً . أما اليوم فستصبح لنا دبابات ومدافع .. سنتعلم
أشياء جديدة .. وسيفتح لنا المجال للدراسة والدخول في كلية
أركان الحرب .. لن نكون قط عاطلين .. بلؤكد لك أنه
سيأتي اليوم الذي تعرف فيه الأمة مقدارنا عند ما تستجد بنا
فنقدم لها أرواحنا رخيصة في أكفنا .. لنفعل بها ما تشاء ..
أنا لا أنعصب للضباط ، ولكن تلك هي طبيعتي .. أحب البشر
جميعاً .. ولكني أحب المصريين - مهما كانوا - أكثر من
جميع البشر ، وأحب المصريين ، ولكني أحب الضباط أكثر

من جميع المصريين .. وأحب الضباط عامة ، ولكنى أحب
ضباط الفرسان أكثر من جميع الضباط .. تلك هى شيمتى ،
أحب أمتى وجيشى وميلاحى .

وفعل فى قوله فعل السحر .. فقد لمست فيه إخلاصاً
عجيباً طمس تلك الصورة المشوّهة للضباط .. وبدأ لى كل
الضباط - مثله - عشوق القدر ، رافعى الرأس ، بارزى الصدر ،
ملوهم النشاط والذكاء . وقلت له معذرة وأنا أبتسم :

— أنا آسفة جداً .. لم أقصد بقولى أية إساءة ، ومادمت
تحس للجيش مثل هذا الشعور ، وتكرس لعملك مثل هذا
الإخلاص ، فلا شك أنك ستكون إنساناً ناجحاً ، ولاشك
أن الله سيحقق لك أمانيك .. ويعطيك الزوجة والبنين ،
والفيلا والعربة .. بل من يدرى .. ربما حقق أمانيك ..
التي تظنها لن تتحقق والتي تتخذها مجرد تسلية .. من يدرى ؟
ربما تصبح شكسير .. أو نابليون !

— من فينا الطماع ؟ أنا أم أنت ؟ لقد كنت تستكثرين
على الفيلا منذ برهة .

وعدنا إلى الضحك ، وتنهت جلسة إلى الوقت ،
وخشيت أن يكون قد غافلنا كعادته . وسألته عن الساعة
فأجاب التاسعة .

ونهمضنا عائدين .. فطرق شتى الموضوعات . ضاحكين
تارة جادين أخرى .. وشرد بي الذهن خلال العودة ، فتخيلت
نفسى إحدى أمانيه .. الفتاة الحلوة ، التي يريد أن يحبها وتحبه
وأن تنجب له بنين وبنات ، ويقطن وإياها فيلا ويركبان عربية .
وبدا لي أنه لو سألت القلب العريد المنتبهي لقال : إن هذه هي
أمنية مشتركة بيني وبينه . وإنني وحدي ، الفتاة التي يطلبها من الله .
ووصلنا إلى البيت في نفس الموعد الذي كان يحتمل أن
نعود فيه من السينما لو بقينا فيها حتى النهاية .

ووقفنا في الحديقة على باب الدار ، ومددت يدي إليه
مودعة .. وأحسست بيده تضغط على يدي ضغطتها
الرفيقة الخفيفة ذات المعاني .. ثم رفعها ببطء شديد والتفت
عيناها ، وسمعتة يهمس همساً رقيقاً :

— أسمحين ؟

واستمرت يدي في طريقها إلى شفتيه .. ولم أكن أملك
إلا أن أسمح له .. ومست شفتيه ظاهر يدي ، وأحسست
لأول مرة بلهيب أنفاسه .. وخيل لي أنني لا أقف على قدمي
بل أسبح في الهواء ، وسحبت يدي بسرعة من يده ، ودلفت إلى
الداخل مسرعة كأنني هاربة من خطر يوشك أن يحدق في .
آه من حرقة الأنفاس ولهيب الشفاه ! ! !



عربيد ينقص

الأيام التي تلت تلك الليلة . أيام فضال بين
كانت مبادئ القديمة ومشاعري الجديدة . كنت أحس
أنى أنزلق بسرعة إلى الهاوية ، وأنى أفكر فيه رغم أننى وأنى
لا أستطيع منع تلك اللهفة والغبطة عند ما يرق الجرس ،
وأسمع صوته من أسفل يسأل عن أخى أو عنى .

وبدأت مقاومتي تنهار شيئاً فشيئاً ، دون أن أدري ،
حتى حدث ذات يوم ما جعلنى أفيق لنفسي وأقرر تعزيز
الدفاع وتقوية المقاومة .

لم يكن ما حدث أكثر من كلمات عابرة قالتها « جدتى »
وبدألى فيها أنها تقصد التليح إلى أن « أحمد » أصبح يكثُر
من زيارتنا من أجل ، ولم أدر ماذا تقصد بالضبط ،
ولكننى صممت أن أنخذ خطة تظهر برامتى ، وأن أعود
إلى سابق جمودى وأعمل على قتل مشاعري .

وهكذا بدأت أغير من معاملتى له ، فلم أعد أنتحل
الأسباب لالقاءه إذا ما جلس برفقة أخى ، بل لم أحاول أن
أهبط إليه عند ما كان يأتى ، فلا يجد أخى ، وكنت أتركه
ينصرف دون أن ألقاه .

كنت أفعل هذا وأنا أشبه بفقرام الهندو يعذبون أنفسهم

دون مبرر . كنت أحس ، وهو يحدث الخادم ويسأله عن
أخي فلا يجده وينصرف دون أن ألقاه ، كأنى أرقد على
فراش من المسامير ، وأضع أثقالاً فوق جسدى ، لا لسبب
إلا لأعذب نفسى وأعلمها المقاومة .

وحدث ذات يوم عند عودتى من المدرسة قبيل العصر
وقد حملتنى عربة المدرسة المملأى بزميلاتى من البنات ، أن
وقفت العربة أمام باب البيت ، وعندما هممت بالنزول وجدته
مقبلاً علىّ من ناحية المزارع وقد امتطى جواده .

كانت أول مرة أراه على جواده ، وكان عارى الرأس
مرتدياً قميصاً أبيض ، وقد استقام جسده وبرز صدره ، وبدلاً
كأنه بجواده وبزته من نبلاء العصور الوسطى .

واقترب منى وهو يتشم وأحسست أن أبصار الزميلات
قد سلطت علىّ . . . وتخيلت ما يمكن أن ألقاه من الستمين من
تشنيع « وتريفة » واتهامات . وصورلى الوهم - أو الرغبة
الخفية - أننا لا شك سنبدو أمامنا كالعشاق ، وأننى سأ
« وعشيقى الفارس - موضع أحاديثهن .

ولم أشعر إلا وأنا أحول بصرى عنه وأتجاهله ،
اتخذت طريقى إلى الداخل دون أن ألقى إليه بكلمة أو تحية .
ودفعنى حب الاستطلاع لأن أتلفت خلفى فوجدت جميع

الزميلات بلا استثناء يلوحن له بالتحية ويتسمن له ،
ووجدته يرد عليهن بالتحية مبتسما . . واختفيت داخل الدار
وأغلقت الباب ورأى .

دخلت الدار وأنا غاضبة حزينة . . فقد أحسست لأول
مرة بالغيرة وكرهت نفسي لأنى كنت السبب فى كل ما حدث .
علام كل هذا التعذيب . . والسخف ؟ ولم أنكرته
وتجاهلته وتجهمت له ؟ ما ذنبه ؟ وماذا فعل ؟ وما ذنبى أنا
أفعل بنفسى كل هذا ؟

وقضيت ليلتى قلقة مسهدة . . شاردة الذهن . . مضناة
معذبة من فرط ما أجهدتنى المقاومة .

وفى اليوم التالى علمت أن المشرفة التى كانت تصاحبنا فى
عربة المدرسة قد شككت الزميلات إلى النافرة . . وأن
الزميلات جميعاً — بلا استثناء — قد اعتذرن عما أتينه من
تحيات له وابتسامات بأنه . . . قريبهن !

وعندما عدت إلى البيت وجدته يجلس مع أخى . . وحيته
ببساطة كأن لم يحدث منى شىء . . . وقصصت عليه ضاحكة . .
ما حدث للزميلات وقلت له إن يتهن فتيات جميلات تصلح
أية واحدة منهن لتحقيق آماله .

ولقد أنبأنى بعد ذلك أن حديثى هذا عن زميلاتى قد

صدمه وخيب آماله .. فقد كان حائراً في سبب تحولى عنه
وانقلابى عليه .. وكان يتلف على أن يعرف ما إذا كنت
أحبه أو لا أحبه .

هذا الإقبال منى .. وترك يدي له فى السبى . والسير معه
فى الليل .. والجلوس على حافة الساقية ، .. ألا يحزم كل هذا
بأنى أحبه ؟

ولكن هذا التجاهل والإعراض وعدم اللطف على لقائه
ألا يحزم أيضاً بأننى لا أعيره اهتماماً وأنه عندى غير
ذى موضوع ؟

وأخيراً .. هذه الطريقة الباردة التى تلقيت بها تحيته
للفتيات . وقولى إن هن فتيات جميلات يصلحن له .. كيف
أقول ذلك .. إذا كنت أحب ؟ أهنأك حب بلا غير ؟
وهكذا - كما قال لى بعد ذاك - حطمت آماله .. وضيعت
أمانيه .. وعاد إلى حجرته بالمبىس يائساً ملئعاً .

يا لحماقتى !! علام كنت أعذب نفسى وأعذبه ؟
ولم يكن هو - من ناحية عزة النفس - قد تغير عما كان
وهو صبي .. وبدأ لى أن كرامته وكبرياه أعز عليه من حبه ،
فقد بدأ يحزبى هجرأ بهجر وإعراضاً يعراض .. فكف عن
زيارتنا تماماً . ومرت بى أيام ضيق كنت أخلو فيها إلى نفسى

في الشرفة فأحس بعبء يجثم على صدرى .. ويعتصر قلبي ..
قلبي الحزين الملتاع .. المغرق في بؤسه وبأسه .. الممعن في
وحشته ووحشته .

واستيقظت ذات صباح وأنا أشعر بتناقل في الرأس ..
وهبوط في الجسد .. ولم أجد في نفسى القدرة على النهوض
للذهاب إلى المدرسة .. فاستمرت راقدة في الفراش .
وقيل الظهر أحسست برجفة تسرى في بدنى .. وخيل
إلى أن حرارة تشع من جسدى ووضعت مقياس الحرارة
في فمى فإذا بها مرتفعة ارتفاعاً يخشى منه .
وتملكتنى قشعريرة .. وأخذ بدنى يرتجف كأنى في قر
طوبة وسألهم أن يدفنوني ويدفونى بالأغطية .
وظنوا ما بي أنفلونزا .. وتناولت بضعة أسبرينات ..
كانت تفلح في تهدئة الحرارة مؤقتاً .. ولكنها لا تلبث حتى
ترتفع مرة ثانية .

وفي المساء حضر الطبيب وفحصنى ثم هز رأسه .. وقال
لأنه لا بد من تحليل الدم .

واستمرت الحمى تلهب الجسد طول الليل وأخذت الرعشة
تلتابى .. والإحساس بالزهرير يشتد .. رغم أن البرد لم يكن
قد بدأ بعد .. فقد كنا على ما أذكر في منتصف نوفمبر .

وقيل الفجر شعرت بالحرارة تهدأ .. والرجفة تزول .
واستغرقت في نوم هادئ استيقظت منه وأنا أحسن بأني
قد أبليت بما بي .

وجلست في فراشي هادئة الحرارة .. منتظمة الأنفاس ،
بلا رعشة ولا قشعريرة .. وإن كنت أحس أن جسدي مازال
متعباً مكدوداً .

وأنت ، جدتي ، فضمتني إليها في حنان .. ووضعت يدها
على رأسي قائلة :

— الحمد لله .. أنت اليوم أحسن كثيراً .. إنها كما قلت
« انفلونزا » .. ألم أقل لك لا تجلسي في الشرفة .. فقد برد
الجو ولم يعد صيفاً ؟

وضحكك ووعدها ألا أعود إلى الجلوس فيها بعد ذلك ..
وأقبل عليّ أبي وأخى ليطمئنا عليّ .. وقال أبي في لهجته
الصارمة :

— لا تتركي الفراش حتى نطمئن إلى نتيجة التحليل .
وأجابت جدتي :

— ليس بها شيء إن شاء الله .. لقد كانت انفلونزا
خفيفة وزالت عنها .

— على أي حال ، يجب أن تستريح في الفراش .

وتناولت إفطاراً خفيفاً ، وجلست في الفراش ألهو
القراءة ، ولكنى لم أقرأ ، بل كانت القراءة عندى مجرد
ثبيت عيني على الصفحات ، أما الذهن فلم يكن يعي شيئاً ، لقد
كان منطلقاً في ببداء أوهامه .

لم تكن حتى الليلة الماضية قد تركت لى سبيلا إلى التفكير
فيه إلا في لحظات خاطفة . ولكنى لم أكد أحس بالهدوء
وأخلد إلى الراحة ، حتى وجدتني لا أستطيع أن أفعل شيئاً إلا
التفكير فيه .

قلت لنفسي : إني يجب أن أحمد الله على هذه القطيعة ،
وأن أحاول أن أقتلع مشاعري نهائياً ، وأن أستمز في قسوتي
مع هذا القلب العريبد حتى ينسى ، وحتى يتعود الوحدة
والوحشة مرة أخرى .

كنت أقول : إن ، أحمد ، — ما دمت أنوى الاحتفاظ
بحرية مشاعري — هو أول إنسان يجب الابتعاد عنه ، لأنه
صائدى وسجاني ، وهو لا أحد سواه الذي سيشد وثاقي ويلقي
بي إلى هاوية الحب .

هذا ما كنت أقوله لنفسي ، وأحاول أن أقنعها به ،
ولكنى كنت أسمع الإجابة تأتي من باطني ، كأن القلب يهتف
في حنق وغيط : أي وثاق وأية هاوية ؟ أنت منافقة كاذبة . .

اعترفى بأن تلك الهاوية هى الحياة الحققة النضرة المزدهرة . .
لعترفى بأن الوثاق قد شدك من اليبداء المقفرة حيث الفراغ
والعدم وألقى بك إلى الرياض المورقة الظليلة . ماذا تخشين من
الحب ؟ حب لإنسان قويم الخلق جميل القلب . أهنأك خير منه
تختارينه زوجاً ؟ أعار عليك أن تحبى زوجك المقبل ؟

ويبدو لى أن إعراضه وهجره وطول الفرة وشدة الحنين
قد أضعفا مقاومى ، فقد شعرت فى حديث القلب لذة وممتعة
ووجدته منطقياً معقولاً ، لم يصعب على الاقتناع به

وتميت أن يأتى ، ويجلس بجوارى على الفراش ،
ويحدثنى حديثه العذب الطلى فيقطع به وحشتى ويزيل سآمتى .

وظهرت نتيجة التحليل فكانت سلبية ، واستيقظت فى
اليوم التالى وأنا أحس أنى صحيحة معافاة ، فصممت على الذهاب
إلى المدرسة .

وذهبت إلى المدرسة وقضيت معظم اليوم دون أن أشعر
بشئ . حتى أوشك اليوم أن ينتهى فإذا بى أحس فجأة بالرجفة
تعاودنى وبأن قدى لا تقويان على حملى . وارتيمت على أحد
المقاعد كأنى جثة هامدة .

وحملت إلى البيت حملاً ، ورقدت فى فراشى ، وأنا

أرتجف مقرورة ، وجسدى يلتهب من الحرارة .
وتلقتنى جدتى ، فزعة ، مرتاعة ، وحضر الطبيب يفحصنى
مرة أخرى . وقال بعد الفحص : إنه يشك كثيراً — رغم
سلبية التحليل — أننى مصابة بالمalaria ، وأمر بإعادة التحليل
وبالآغاادر الفراش إلا بأمره ، وأن أتناول الأتبرين .
وبدأت أعالج من مرضى على أنه ملاريا ، وأثبت التحليل
للمرة الثانية .. أننى فعلاً مصابة بالمalaria .. وأخذت الحى
المتقطعة تعصف بنفسى وتذبل جسدى ، وأحسست والمرض
فى أشده أنى قد أضحيت حطاماً .

ولم تكن الآلام التى أعانها مجرد آلام جسدية ، فقد
بدأت أحس والمرض يتناقل على آلاما نفسية خفية منشؤها
شعورى أن أحمد لم يأبه لمرضى ، ولم يفكر مرة واحدة فى
زيارتى وأما طريحة الفراش .

قد يكون له العذر — فى مبدأ الأمر — أن يرد على سوء
معاملتى بمثلها وأن يحزبنى صداً بصد وهجرأ بهجر .
ولكن أيجوز له .. وأنا مريضة ، أهذى تحت سطوة
الداء .. أن يستمر فى إعراضه .. ولا يفكر فى الحضور
للاطمئنان على ، والسؤال عنى ؟

ما الذى فعلت به .. حتى يقسو علىّ إلى هذا الحد ؟

ومتى ينوى السؤال عني؟ أبعء أن أموت ؟
أهذا هو الحب؟ أترأه كان في حبه جاداً مخلصاً؟ أم أن
مافعله لم يكن سوى مجرد تسليية وتضييع وقت؟
وأحسست بالألم يعتصر قلبي، وأنا أجيب نفسي: أجل
لأشك أنه كان يلهمو
ولكن من أدراني أنه يحبني؟ إنه لم يقل قط أنه يحبني .
وبدأت أستعرض تصرفاته معي ، محاولة أن أستخلص
منه حقيقة مشاعره نحوي . أيجبني أم لايجبني ؟
وهكذا تطور الأمر ، فبدلاً من حيرتي في حبه له .
وترجحي بين أن أحبه .. أو لا أحبه .. أصبحت حائرة في حبا
لي .. هل يحبني .. أم لا يحبني ؟
إنني - بتطور ، أسباب حيرتي - قد أصبحت أسـ
جدلاً بأنني أحبه ، ولم يعد هذا الأمر - كما كان أولاً -
مبعث قلق وحيرتي .. بل لم أعد أفكر قط في أن أقاو
حبه .. أو أتمسك بالجمود والبرود .. لقدك المرض
والوحدة والهجر مقاومتي دكاً عنيفاً ، وجعلها أثراً بعد عين
وانتصر القلب في معركة الأولى انتصاراً عنيفاً .. وبت ،
وأنا طريحة الفراش ، أتلهف على حضوره .. وصممت ألا
أحاول بعد ذلك تكرار إنسانته ، بل أعتذر إليه وأؤنبه على

قسوة ردّه .. وتتعاب وتصافي ونبدأ معاً عهداً جديداً ،
عهداً يقوم على الحب العميق ، والإخلاص الأبدي .

ظلت أنتظره يوماً بعد يوم ، حتى تجاوزت خطورة
المرض ، وأوشكت أن أتمائل إلى الشفاء ، دون أن يحضر ،
وكنت في بعض الأحيان ، عند ما يشتد لي الحنين ويعصف
بنفسي الضيق ، أوشك أن أسأله عنه ، أسأل جدتي أو أخي
وأصرخ فيهم : لم لم يحضر ؟ أين هو ؟

ولكنني كنت أجبن عن ذلك . . بل إنني لم أك أجسر
حتى على أن أكون بادرة بذكره ، خشية أن أثير الشكوك
حولى وخشية أن أنهم بأنى أهتم به أو أحبه .

وفي ذات يوم ، وقد أبللت من المرض ، وأضحيت في
دور النقاهة ، جلس أخي يحدثني عن بعض ما رأى وما سمع
ويروى لي الأخبار لتسليتي ووجدته يقول في معرض الحديث :

— لقد قابلت ، أحمد ، اليوم ، أمام سينما رويال ، وأنبأته
بمرضك . ويبدو لي أنه لم يكن على علم من قبل ، فقد دهش
وأبدى أسفه واعتذاره لأنه لم يحضر لزيارتنا للاطمئنان عليك
وقال لي : إنه لو لم يكن قد دعا بعض جيرانه إلى السينما ، لعاد
معي وقتذاك إلى البيت ، ولم يكذبهم حديثه حتى حضر مدعووه
وعرفني بهم : فتاة وأخوها ، كان زميلاً لنا في الثانوى ، يدعى
« محمد عبد الرحيم » .

– والفتاة تدعى ابتسام ؟
– أجل . . أتعرفينها ؟
– رأيتها ذات مرة . . سموداء العينين ، فاحمة الشمر ،
مائلة إلى السمنة .

– أجل . . هي كذلك .
ونهض أخى تاركا إياى ببساطة ، وكأنه لم يفعل شيئا .
وأنى له أن يعرف أنه بقوله هذا الذى لم يتجاوز خبراً
بسيطاً تافهاً ، قد أشعل فى قلبى الملهوف نيراناً آكلة ؟
أنى له أن يعرف أنه قد أزال طابئة الأمان وألقى القنبلة
فى وجهى وانصرف ؟

أنى له أن يعرف أنى كنت كوماً من وقود ينتظر الشرر ،
وأنه - بحسن نية - قد أحدث الشرر فى الوقود ، وولى الفرار ؟
أنى له أن يعرف حقيقة مشاعرى وأما التى كثيراً ما أعلنت
قلة اكتراثى بأحمد ، ولم أترك فرصة تمر ، حتى أظهر عدم
اهتمامى به ، وإقلالى من شأنه ، حتى أنفى عن نفسى ما قد أكون
بعثته فى نفوسهم نحوى - دون أن أدرى - من الشبهات .
لقد كنت أخشى أن أكون كالمرىب يكاد يقول خذونى . .
فكنت دائماً أقول : لا تأخذونى ، لا تأخذونى بتهمة الحب .
أنى للمسكين أن يعرف أنه قد صرعى بقوله . . ليتفرق
بى قليلاً ؟

وتملكنتى ثورة جارفة ، كأنى لم أكن بالأمس أتصل
من حبه ، وأعلن برامتى منه .

لقد تناسبت كل ما كان من مقاومتى وتجاهلى ومبادئ
العقيدة عن الحب ولم أعد أشعر سوى أنى عاشقة مبهضة غيرى .
أمعقول ألا يكون قد عرف بهرضى حتى الآن ؟

وهبه لم يكن قد عرف . . ألم يكن من الواجب عليه أن
يحضر إلى بمجرد أن وصل إليه الخبر ؟

أيصح أن يؤجل بجيئه إلى لى يشاهد السينما ، ويتندر
عن زيارتى لمصاحبتة لا بتسام ؟

أجل . . ابتسام . . هى علة قلبى ، والسوس الذى ينخر
فيه ، والجرح الذى يدميه .

لم يضايق نفسه بزيارة مريضة ؟ أليست مرافقة ابتسام
إلى سينما أمتع من زيارتى ؟

ومن يدري ؟ ربما كان يجلس الآن بجوارها وقد رضع
كفه على كفها ، وأخذ يناجيا بأصابعه كما فعل معى ؟
لشد ما كنت حقا مخدوعة مغرورة .

وفاض بنفسى الأسى ، وبت ليلتى محومة القلب ، مقروحة
لجفن ، مسهدة العينين ، وقضيت ليلة أسود من ليالى المرض .
واستيقظت فى الصباح محطمة مهدمة ، وجلست فى الفراش

شاردة الدهن، غاربة البال، تسألني جدتي عما بي فأجيب لاشيء..
ودقت الساعة العاشرة عندما سمعت جرس الباب يدق ،
وصل إلى من أسفل صوت جعلني أنتفض في فراشي ،
أخذ قلبي يدق بعنف ، ويخفق بشدة .
لقد كان هو .
لقد أتى أخيراً .

ورغم كل ما اتباني من سخط وغيظ ، ورغم ما حاولت
أن أعد من وسائل الغضب والتجاهل وعدم الاكتراث . .
وجدت القلب قد نسي كل ما به من حزن وغضب ، وإذا به
قد خذلني ، وعفا عنه وغفر . ومسه من صوته ما يشبه السحر
فصفق بين الضلوع ، وهفا بين الحنايا .
وسمعه يسأل عني جدتي ويعتذر لـإليها في صوت آسف
بأنه لم يعرف قط أنني مريضة ، لأنه لم يتقابل مع « علي »
منذ مدة طويلة ، إذ كان على سفر في مأمورية .
ورحبت به جدتي ، وصحبته إلى حجرتي ، وأقبل عليّ
وهو يتسم ، ومدّ يده لمصافحتي ، فحيته بفتور .

وغادرتنا جدتي ، وحمدت لها في نفسي هذا التصرف ،
الواقع أن مرضي أظهر لي لطفها عليّ وفرط حبا لي ، فقد
أرثني من التدليل ما كانت تحجم عنه مخافة أني ، وبدا لي أن

صرامتها وحزمها كانا متصنعين متكلفين ، وأن ما أظهرته
ليس من طبيعتها بل كانت تفعل ما أمرها به أبي حتى لا تفسدني
بتدليلها .

وخلوت معه في الحجرة وجلس على حافة فراشي ينظر إلى
صامتاً ، وكنت أنا أنظر إلى السقف وقد كسوت وجهي مسحة
خضيب ، ومضت فترة صمت طويلة ، قطعها بقوله في لهجة
حزينة وفي صوت خافت :

— أنا آسف جداً .

وأجبت بقلّة اكتراث دون ان أنظر إليه :

— علام ؟

— على مرضك وعلى عدم زيارتي لك في خلاله .

— ألم تكن على سفر ؟ . علام الأسف إذا ؟

— لم أكن على سفر ، هذا مجرد عذر .. وكان يجب أن
أحضر إليك حتى ولو لم تكوني مريضة .

وزادت لهجتي حدة وأنا أقول له محدقة فيه ،

— وما الذي منعك من الحضور إذا ؟

— أنت .

— كيف ؟

— عودتك إلى سابق تجاهلك ، وسخافاتك الصبانية .

كنت أحضر فلا نأقيني . فلم أشك في أنك لا تودين حضوري
أو على الأقل لا يهيك حضوري . فحكمت على نفسى بعدم
الحضور ، فى الوقت الذى كنت أتمرق شوقاً إلى رؤيتك ،
ولكننى مع ذلك لو عرفت بمرضك لما استطعت إلا الحضور
كما فعلت الآن ، فقد حضرت ، رغم على أنك لا تودين
حضورى ، أو أن يبارق لك لن تسرك .

— كان خيراً لك ألا تحضر ، فوقتك أئمن من أن تضيعه
فى زيارتى .. إن السينما أفضل .

— السينما ؟

وقلت بصوت ملؤه المرارة :

— أجل .. الحينما .. وابتسام

— ابتسام ؟ .. ماها ابتسام ؟

— ألم تكن معها فى السينما بالأمس ؟

— أجل .. لقد دعوتها هى وأخاها ردّاً على دعوة

سابقة منهما .

— وما الذى جعلهما يدعوانك إلى السينما ؟

— وماذا فى ذلك .. ثم ماذا كان بوسعى أن أفعل ..

أرفض الدعوة ؟

ووجدت نفسى دون أن أشعر أصبح به بحدة وغضب :

— أجل .. ترفض الدعوة .

وبدت على وجهه دهشة استطعت أن ألمح بها ابتسامة خفية وقال :

— لو كنت أعلم أن ذهابي معهما إلى السينما سيفضبك لما ذهبت ، ولكن لم يخطر ببالى قط أنني أتمتع بمركز فى نفسك يؤهلنى للغيرة . ألا تذكرين يوم أن أشرت لصديقانك بالتحية فأنبأتنى أنت نفسك أن منهن فتيات جميلات يصلحن لأن يكن لىلاى ؟

— كان ذلك فيما مضى !

— والآن ؟

ونظرت إليه ثم خفضت بصرى وتشاغلـت بالعبث بأصابعى فى غطاء الفراش . وأحسست بأصابعه تتمـلـل فتشـابك بأصابعى . وضغطت يده على بـدى برفق .. وغادىهمـس متسائلا :

— والآن ؟

— والآن أصبحت مخلوقة أخرى .. كنت أتلف على مجيئك وأنا تحت سطوة الداء .

— أنا آسف جداً .. لم تم تنبئنى من قبل ؟ لقد أضيتنى ولوّعت قلبى .. وعذبتنى بالسواوس والشكوك .. لم فعلت كل هذا ؟

— كنت حمقاء .. كان بي خوف وخشية .

— بمن ؟

— منك .. ومنهم .. ومن أقوالهم وسخريتهم .. إني أكره
أن يعرفوا .

— لن يعرف أحد .

وهكذا اعترف كلانا للآخر ، بأن بيننا ما لا يجب أن
يعرفه غيرنا ، أما ما هو هذا الشيء ، فذلك ما لم يجرؤ أحدهما
على الإفصاح عنه .

وعاد يقول في همس حنون :

— ألن تحيريني بعد ذلك ، ولن تنكثي عهدك ؟ ألدع
قلبي يهدأ ويطمئن ؟ أواثق أنك أنت من قلبك ، ومن مشاعرك ؟
— كل الثقة ، لن يكون في حياتي - إلى الأبد - سواك .

* * *

كيف جسرت على أن أقول كل هذا .. أنا الجامدة الباردة ،
الحية الخجول .. الساخرة من الحب .. الملحدة به .

يا للظروف التي تبدل النفوس وتغير الأحوال وتجبرنا
على أن نركل مبادئنا ، ونسخر من أقوالنا . وبا للقلب الراقص
النشوان ، أثل العريد ، لقد أخذ يهفو مترنحاً ويصفق طرباً .
كيف لا .. وقد انتصر على .. وهزمني - في أول جولة -
شر هزيمة .



فی عجیب سے القبل

ذلك الصباح بداية حبنا .. فقد كنت أشعر أنى
لم يكن بدأت الحب - رغم عدم اعترافى به لنفسى -
قبل ذلك بزمان طويل .. منذ أن جلسنا فى الشرفة أول مرة
بعد تخرجه .. ولكنه كان بداية الحب الصريح المتبادل ..
وبدأه عهد وميثاق جعل كلا منا ملك صاحبه ومالكه ..
وجعلنا شريكين فى الأمانى .. متفقين فى الآمال والآراء
والرغبات ، وفرض على كل منا للآخر الواجبات ، ومنحه
الحقوق .

وأتاح لنا دور النقاهة فرصة ذهبية للقاء .. فلم يغب عن
ذهن جدتى وتجربتها أن « أحمد ، خير وسيلة تساعد على نقاهتى
وتدخل السرور إلى قلبى .. فكانت تلح فى دعوته للحضور
وتلح فى بقاءه إذا ما حاول الانصراف ، وكان قلبى يفيض
بشكر لا أستطيع الإفصاح عنه .. فقد كانت فى استدعائه
واستبقائه كأنها تتحدث بقلبي لا بلسانى ، وتستجيب نداء
نفسى .. النداء الذى لم أكن أجسر على إعلانه .

ولم يكن أبى يلقى « أحمد ، كثيراً ، فقد كان غالباً يحضر
فى فترة غيابه .. وفى المرات التى كان يلقاه .. لم يكن يبدو لى
أن وجوده يضايقه ، فقد اعتاد ألا يرى فيه أكثر من طفل

لا خوف على منه . . أو من يدرى . . ربما كان يتغاضى من
أجل مرضى .

وسمح لي بالخروج . . ولم تمنع جدتي في أن يصطحبني
« أحمد ، في زهات قصيرة بين المزارع ، وكان يأتي إلينا عقب
الغداء فيجدني في انتظاره . . وكان شهر ديسمبر قد حل .
وبدأ الجو يميل إلى البرودة ، وأضحي السير في الشمس مستحجاً
وممتعاً ، فكنا نبدأ سيرنا في دائرة تبدأ من البيت إلى شارع
المملك ، إلى الجامع ، إلى الطريق الموازي للسراى . . والذي
سرنا فيه أول خطوات غرامنا . . حتى نبلغ الساقية القديمة ،
أو مكان اللقاء المختار ، فنجلس على حافة السور المهدم ، كما
جلسنا أول مرة ، متشابكي الأيدي ، قريرى الأعين ، ناعمي
الأنفس ، نسمح من حبنا في عالم نسجت ألوانه من قوس
قزح . . ونرسم خطوط المستقبل ونشيد قصوره .
أية سعادة كانت تفرنا وقتذاك ؟

لم يعيا الناس في تفسير السعادة . . وكيف يتساءلون
ما السعادة ؟ سلوني عنها . . فقد خبرتها زمناً . . خبرتها هي . .
مى . . لا وهم ولا حلم . . سعادة نقية مصفاة تتدفق من معين
لا ينضب وينبع لا يجف ، لم تعب قط في الحصول عليها ، ولم
تكفأ شيئاً ، فقد كانت تفيض من باطننا وتنبع من قلوبنا .

كنا نلون الكون وننمقه ونزركشه ونكلله بزهور من
أوهامنا .. لم نر قط فيه شيئاً باهتاً ، أو مظلماً .. كنا نورق
الشجر وننضر الزهر .. كنا نبعث في الجماد حياة وفي الحياة
سحراً رائعاً .

أى سحر كان بالطريق الخالى والساقية المهجورة ؟
كم من خلى القلب مرّ بالطريق فلم يحرك فيه جارحة ولم
يثربه حساً .. طريق ليس به ما يميزه عن غيره من الطرق ،
يقوم على جانبه سور ، وعلى الجانب الآخر مزارع ، وتقوم
الأشجار على حافته ، ليس به من سحر خارق أو معجزة كبرى .
اذهبوا إليه ، وأنبثوني ، إذا كان يلفت نظركم فيه شيء !
والساقية المحطمة والسور المهدم .. خبروني من منكم
سحرته ساقية خربة ، أو توقف ليمعن فيها بصره ؟
ومع ذلك فما زلت أذكر الطريق والساقية كأنها أشياء
غير كائنة في أرضنا هذه ، بل كأنها منشآت سماوية ومناظر
علوية ، وكأنى بالطريق طريق الفردوس ، والساقية بابه ،
وعلى هذا القياس كنا نبصر كل ما حولنا : نفس الروعة
ونفس السحر .

أيعيىكم بعد ذلك تفسير السعادة ؟ !
ابحثوا عنها في طريق خال ، أو في ساقية مهجورة ،

في الماء ، أو في السماء .. فوق الرب أو في باطن الأرض ، فلن
يعيكم إيجادها ، مادامت قلوبكم ولهى ونفوسكم صبة عاشقة .
ابحثوا أو لا تبحثوا فستبحث هي عنكم وتبحثو صاغرة
تحت أقدامكم .

° ° °

وهكذا أخذنا نسترد سعادتنا من الهواء .. من مجرد
الحديث والنظر ، وتشابك الأصابع ، وتلامس الأيدي .
إذا تلاقينا فكلنا أعين .. وإذا افترقنا فكلنا تذكّر .. حتى
حدث أول حادث إيجائي ، وذقنا أول قبلة .

لم يكن يخطر ببالى قط أنني قد أقف ذلك الموقف الذى
أقرأ عنه فى القصص وأراه على الشاشة البيضاء ، وما كنت
أفكر قط أن الجرأة يمكن أن تصل بى إلى حد الإغراق
فى نشوة قبل ، بل كنت قانعة بما أنا فيه كل القناعة ، لا يدور
بخلدى أن هناك فى الحب شيئاً أمتع بما حصلنا عليه .

كانت مبادئ الأولى ما زالت تتحكم فى رأسى ، وكنت
مازلت أتيه خجولا ، لم تجر على لسانى كلمة حب ، ولم نحاول
قط أن نتناجى أو نفعل كما يفعل العشاق ، بل كانت كل
أحاديثنا جادة عن بيتنا المقبل ، وعن أولادنا ، وعن
المطبخ ، وعن الحديقة .

وحدثت بيننا أول خلوة في الدار .. خلوة قصيرة ،
أتاحها الظروف ولم أحاول أنا منعها .

كان ذلك يوم جمعة .. في يوم من أيام الشتاء . وكانت
الساعة تقرب من العاشرة ، وقد خرج أبي وأخي ، وذهبت
« جدتي ، لطيب الأسنان ، وجلست في الدار وحيدة ..
وانهمك الخدم والطباخ في أعمالهم .

كنت أجلس متكاسلة في أشعة الشمس على مقعد مريح
(فوتيل) وقد أخذت أقلب صفحات إحدى المجلات عندما
أحسست فجأة يدين توضعان على عيني برفق وكأني بصاحبهما
يهتف مازحاً .. من أنا ؟

ولم يتكلم صاحبهما .. خشية أن أعرفه من صوته . ولكني
لم أكن في حاجة إلى أية مساعدة للتعرف عليه .
لم أكن في حاجة إلى سماع صوته .. أو حتى مس يده ، فقد
كنت أعرفه بوحى قلبي .
وقلت له ضاحكة :

— ليتني تمنيت شيئاً أحسن !

— أحسن مني ؟ أمناك شيء أحسن مني ؟

— طبعاً !

— مثل .. ؟

- قطعة لادن ، أو « برطمان مسترده » .
- الله يحفظك . . ظننت نفسي ذا قيمة !
- وهل هذا يقلل من قيمتك ؟ ! أنت لا تدرك مركز
برطمان المسترده في نفسي !
- مركز ممتاز ؟
- جداً . . أموت فيه !!
- بعد الشر عنك وعن برطمان المسترده . . إني لا أكن
له إلا كل حب .. رغم أنه من عواذلي .
- عواذك من هذا النوع كثيرون ؟
- وأنت أيضاً لك عواذك من نفس النوع ، الحرقاق . .
- مثل . . ؟
- سلطنة الطحينية ، « والكشري أبو جبة بمية الدقة » .
- أتحبها كثيراً ؟
- جداً .
- إني أحتج ، لقد جعلت لك عواذل من نوع محترم ،
ولكنك هويت بي إلى أسفل سافلين . . إن المسترده أرقى
كثيراً من « مية الدقة » .
- « مية الدقة » من فضلك « بفتح الدال » لا تكوني

جاهلة حمقاء كأولاد الذوات .. يجب أن تكونى « مددقه »
إن « مية الدقه » ستصبح فى المستقبل من صميم عملك .. هى
« والكشرى أبو جبة » ، لا بد أن تتعلى صنعهما من الآن ،
ولا اضطرت لأن آكل فى المطاعم .

— أتقدم المطاعم « كشرى بجبة » ؟

— طبعاً .

— مطاعم الشعب ؟

— لا .. مطاعم الملوك والأمراء .

— يجب أن تتعلم من الآن أن تحب ما أطهى لك .. لأن

أطهى لك ما تحب .. فاهم ؟

— أمرى إلى الله .. عين الرضا عن كل عيب كيلة .



وساد الصمت .. ووجدته ينظر إلى نظرة أحسست منها
بشئ من الاضطراب والارتباك ، وإن كان اضطراباً لذيذاً
وارتباكاً ممتعاً .

وكنا نجلس على مقعدين متباعدين .

هل لكم أن تعذرونى فى محاولتى وضع تلك التفاصيل
الثافية والمحاورات الصيانية التى لا أظنها إلا حدثت بين كل

عاشقين؟ هل لكم أن تحتملوني بعض الشيء وأنا أثقل عليكم بها؟

احتملوني أرجوكم .. فما دفعني إلى ذكرها إلا إحساسى بلذة من ذكرها ، ومتعة من اجتارها .. إنها ذخيرتى التى أحيا عليها .. إنها زادى فى طريق مفقر أجذب .

إنى أنخيل الحجرة أمانى ، وقد امتدت بها الأريكة الطويلة وتوسطتها المنضدة الزجاجية ، ووضعت عليها زهرية مملوءة بزهور القراولة البيضاء ، وفى ركن الغرفة منضدة أخرى مرتفعة وضعت عليها آنية نحاسية وضع فى داخلها أصيص من الفوجير وعلى الحائط فوق الأريكة علقنت لوحة زيتية تمثل راعى غنم قد وقف أمام بئر .

وفى الجانب الآخر وضع مقعدان كبيران قريبان من النافذة جلس هو على أحدهما وجلست أنا على الآخر .

قلت إن نظرتة سببت لى ما سميتة ارتباكا لذيذا .. فقد كانت نظرة معجبة فاحصة حارة لطيفة ، ووجدتني أنهض على أثرها لأغادر الحجرة مدعية أنى سأعطى بعض أوامر للخدم . وأعطيت فعلا بعض أوامر للخدم ، ثم ذهبت إلى حجرتى ووقفت أمام المرأة .. لقد كان هذا هو ما نهضت من أجله ، وهو الرغبة فى الاطمئنان على مظهرى .. عقب تلك النظرة

ألفاحصة . لقد كنت أريد أن أرى كيف أبدوله .
وكنت أرتدى بلوزة من التريكو كحلية اللون ، مقفلة
الياقة ، قصيرة الأكمام ، وجيب كاروهات من الصوف
الاسكتش .

وكنت بطبيعتي أميل إلى النحافة ، ولكن البلوزة
أظهرت صدرى بحيث بدا بارزاً بشكل ملائى بقليل من
خجل وكثير من طمأنينة ، فقد كنت أدرك بشعور المرأة
أن هاتين الكرّتين هما أمضى أسلحة المرأة ، وأشدّها فتكا ،
وبدا لى خصرى ضيقاً وجسدى مستقيماً متناسقاً ، وكان
شعرى مفروقاً من النصف ، وقد أحاطت حلقاته بوجهى
فأظهرته مضيقاً كما كان هو يقول لى ، فقد كانت هذه الطريقة
فى تصفيف شعرى محببة إلى نفسه ، وعدت إليه وقد ملأت
نفسى الثقة وأردت الجلوس ، ولكنى لاحظت أن المقعدين
قد تلاصقا بعد أن كانا متباعدين ، ونظرت إليه نظرة مهمة
متسائلة ، ولكنى وجدته متشاغلاً فى قراءة المجلة التى كنت
أقرأ فيها . . كأنه لم يفعل شيئاً ، وكان المقعدين قد تقاربا
من تلقائهما .

وابتسمت فى خبث ، ورأيت يرمقنى بظرة متسائلة من
طرف عينيه . . فلم يكن منى إلا أن أعدت مقعدى إلى مكانه

وجلس ، ولكن لم يستقر في المقام حتى وجدته قد قذف المجلة
وقفز من مكانه فاستقر بجاني على مسند مقعدى ، وقال ضاحكاً :
— حسناً . أتأنا . مادام مقعدك يأبى إلا صداً .
وقلت له مشيرة بأصبعى كأنى أزجر طفلاً صغيراً :
— كن عاقلاً ، وعد إلى مقعدك .
وهز رأسه بإصرار وعناد وأجاب :

— الوقت الذى أستطيع فيه أن أكون عاقلاً ، وقت غير
محدود ، لقد مضى على إثني عشر عاماً كنت خلالها فى
تمام العقل ، وما زال فى العمر بقية ، أستطيع أن أمتع فيها بعقلي
كما أشاء . أما الآن فليس من العقل أبداً أن أكون عاقلاً . إن
العقل الآن شيء غير مستحب . يجب أن يتنحى عنا قليلاً ، يجب
أن يبطل عمله ، ويخلد إلى الراحة ، وإلا أضاع العمر سدى ..
لا . لا . لست مجنوناً حتى أوافق على أن أكون عاقلاً .

ولم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك . ورفعت بصرى
إليه فوجدت وجهه يطل على وقد شاعت فيه ابتسامة مشرقة
ونظرة حاملة متمنية ملائتي نشوة ومرتعة ، وأحسست بيده تمس
رأسى فى رفق ، وأصابعه تعبت فى شعرى . فأصابتني من مسته
ومن نظراته رجفة سرت فى جسدى .

لم يقل لى : إني أحبك ، وخيراً فعل . فكلمة : أحبك ،

كنت أستثقلها وأعتبرها بمجوجة مبتذلة ، وكنت أعتقد أن
أبغض ما يفعله محب لكى يعبر عن حبه لمن يحب هو قوله :
« أنا أحبك » .

لم يقل لى « إنى أحبك » ، ولكن عينيه وشفتيه وأصابعه
وكل جارحة فيه ، كانت تنطق ضارخة « إنى أحبك » .
هذه أشياء تحس قبل أن تسمع ، فالمشاعر تسرى من
النفس إلى النفس كأنها شعاع مضى . إنها ليست فى حاجة إلى
أقوال تظهرها .

أطرقت برأسى وأنا أحس اضطراباً شديداً ، وعاد إلى
خوفى القديم من الحب ، وعواقبه . . وصمت على ألا أترك
نفسى تنزلق ، وأن أتمالك وأتماسك ، وأن أقاوم كل متعة ،
وأن أأدع زمام نفسى بفلت منى .

ورفعت بصرى مرة ثانية ، فوجدته ما زال يسلط على
من عينيه تلك النظرة الحارة التى تذيب نفسى وتتركنى على
وشك الانصياع أو التحلل .

كيف المقاومة ؟ أأكسو وجهى مظهر الغضب والنفور
وأصره بأن يعود إلى مقعده ؟ لا أظنها طريقة مثلى ، لأنه إما أن
يفضبه نفورى ، وأنا لا أورد إغضابه ، وإما أن يزيد التمتع
رغبة ، ولا أظننى لو زادت رغبته قيد أنملة ، أستطيع المقاومة .

إذا .. أدعى البرود ، وأريه أنى جامدة لا أناثر .. فيصبيه
الفتور والخجل فتخمد عواطفه ، وأكون بذلك قد انتصرت؟
لا تضحكوا علىّ ولا تسخروا منى .. فما خدع الإنسان
مثل نفسه .. لقد كنت أحاول أن أجد لنفسى فتوى أنال
بها ما حرّمته عليها ، وما أبرع الإنسان فى إيجاد الفتاوى
والمبررات وفى اللف والدوران .. لقد كنت أتلف على
ما أجزع منه .. كنت أريد وأخشى .. حاولت أن أفر من
الخطر لأعود إليه من طريق آخر .

أجل لقد صممت على أن أبدى له الفتور وقلة الاكتراث ،
وأريه أنى متعالمكة عواطفى ، وأننى لا أفقد زماى بسهولة .

كنت لا شك حمقاء . ألسن إنسانة ؟ وعاشقة ؟ !

لننظر ماذا كانت النتيجة ؟

نظرت إليه وقلت له بهدوء :

— ثم ماذا ؟ ماذا بعد جلستك هذه ؟

ولم يجب ، بل انحنى برأسه وهو ينظر إلىّ نظرتة الخنون
اللبنى ، وأحسست بلهب أنفاسه يلفح وجهى ، وبشفتيه تقتربان
من شفتى وتمسهما مساً خفيفاً .

وتمالكت نفسى ، وبقيت كما أنا ، لا أحرك ساكناً ،
وكانى لم أحس به ولا بشفتيه ، وقلت له بمنتهى الهدوء :

— لا فائدة .. إلى مخلوقة جامدة الإحساس .. باردة
المشاعر .. خير لك أن تقبل تمثالا من التماثيل .. فلن تحرك
في من المشاعر أكثر مما تحرك فيه .

ولم تصبه كلماتي بفتور ، أو تراجع .. أو تظني منه
الحرارة التي تشع من عينيه ، أو اللهب الذي كان يستعر في
أنفاسه .

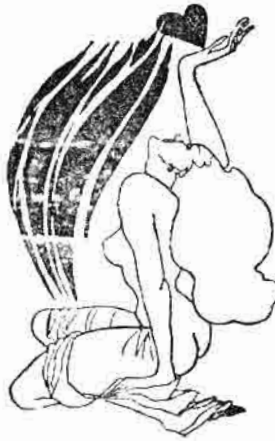
ومن العجب .. أني لم أحس بخيبة أمل .. رغم أن هذا
كان فشلا ذريعا لخطي التي انتهجتها للمقاومة ، ولكنني — كما
قلت لكم — كنت أخدع نفسي ، وعلم الله ماذا كان يمكن
أن أحس به من المرارة لو قد أصابه التراجع والفتور فعلا .
ظلمت أقول له إنني لا أحس ولا أشعر .. وأنني جامدة
باردة ، وظل هو يمس بشفتيه شفتي .. حتى أحسست كأن
الكلمات أخذت تذوب في في ، وأن صوتي يتلاشى رويداً
رويداً .. كأنما قد فقدت قدرتي على النطق .. أو كأنني
قد حققت بمخدر .

ولم أنبس بكلمة .. بل وتناقل جفناي .. ولم أعد أشعر
إلا بشفتيه حاريتين على شفتي .. وأنفاسه مختلطة بأنفاسي ،
وبلاوعي ، ولا إرادة .. وجدت ذراعي .. ذراعي أنا
— اغلوفة الباردة التي لا تحس — تحيطانه برفق ، ثم تضمانه

بكل ما ملكت قواى ، وأغمضت عيني .. ورحت فى نشوة
ممتعة .. وحلم جميل .

وافترقت شفتانا برهة .. كى تنالك أنفاسنا .. ثم عادت
الشفتان إلى لقاء أحر وأعنف .. ومد يده وأخذ يتخلل
بأصابعه شعري .. ويتحسس وجهى فى حنان شديد .

وانقلنا إلى الأريكة وجلسنا فى ناحية منها ، وجلست
بحواره مسندة رأسى إلى صدره .. وبين لحظة وأخرى تلتنى
شفاهنا .. كأننا نهمان صاديان .. لا نشبع من جوع ..
ولا نروى من ظمأ .





الطبیقات کیفی

ذلك الشتاء .. شتاء ١٩٣٨ .. أهنا أيام حياتنا ،
فقد هيا لي المرض من الحرية والتراخي والتدليل ،
ما لم أمنحه من قبل .. وما كنت أحس أنني في أشد الحاجة
إليه .. بعد أن أصابني حميا الحب .. وأثملتني نشوته .

ولقد حاولت جهدى — بعدما أعطيت من حرية نسبية —
ألا أندفع في استغلالها خشية أن أفضح نفسى .. وحاولت
كذلك أن أتمسك بأهداف الرزانة والتعقل ، وألا أظهر قط
أمام الأهل أنى أكن له إحساساً خاصاً .. أو أن أظهر
أن ما يبيننا يتعدى صلة القرابة العادية .

ونجحت في ذلك إلى أبعد حدود النجاح .. فقد كنت
أتمتع بقسوة عجيبة على السيطرة على مشاعرى ، وعلى كبح
جماح نفسى .. وعلى تصنع الهدوء وقلة الاكتراث .. حتى
أكون بمنأى عن الشكوك والأقوال .. وبقيت أحتفظ
أمامهم بمجمود مظهرى وبرود مشاعرى .. ولم ير أحد من
أهلى فى دأحمد ، أكثر مما كان دائماً — ابن خالى وصديق
أخى — اللهم إلا جدتى التى قد تكون أحسب بميل إليه ..
ولكنها لم تر فى ذلك أمراً نكراً .. فقد كانت تحب دأحمد ،
وتلصق فيه نبل الخلق ، وطيبة القلب .. وكنت أحس أنها

تراه زوجاً ملائماً ، ولا تجد - من ناحيتها - مانعاً من
أن نصبح زوجين سعيدين .

وهكذا ظللنا على النهل من حبنا بأناة وروية .. نرشف
من منبعه رشفة رشفة .. ونحتسى من كأسه قطرة قطرة ..
دون أن يشعر أحد بأن في الدار قيساً ولى .. وأن قلبيهما
يستعران بنيران الهوى ولهب الحب .

واستمرت الساقية المهجورة معبدنا المقدس .. نختلس
اللحظات لكي نحج إليه فنجلس فيه متشابكي الأيدي .. بلسانينا
صمت ، وبحشانا حنين ومناجاة .

ومر الشتاء وأعقبه الربيع والصيف ، وانقضى على حبنا
عام أحسنا في خلاله أنه لم يعد لأحدنا غنى عن صاحبه ..
ولم أكن أتصور أنني أستطيع أن أتخذ سواه شريكاً لحياتي
إذ لم أكن أحس له بمجرد حب ، بل كنت أشعر أن كلامنا
جزء متمم للآخر وأنه منى .. وأننى منه .. وأنا نكون
وحدة واحدة لا يمكن فصلها .

وحل موعد سفرنا إلى المصيف بالأسكندرية .. ولأول
مرة أحسست بكره للأسكندرية ، فقد توقعت خلال الرحيل
فرقة طويلة ، لأنه لن يستطيع الحصول على أجازة طويلة ..

ولن يكون الذهاب إلى الاسكندرية بالمتيسر له إلا في فترات
مقطعة خاطفة .

ورحلت إلى الاسكندرية ، وبنفسى ضيق ، مجرد ضيق
لا أكثر ، فقد كانت شدة إيماني بحبنا ، وثقتى فى مستقبلنا ،
تجعلنى لا آبه كثيراً لفرقة مؤقتة ، ولا أحزن لغيبة إلى اللقاء
مصيرها ومنهاها .

ونزلنا هذا الصيف فى فيلا نخمة ، واستبدلنا بها كايبننا
فى شاطيء « جليم » أخرى فى « سيدى بشر » ، فقد كان المال
يتدفق على أبى بلا حساب ، وثروته تتضخم وأعماله تزايد .
وأحسست أننا بدأنا نندمج فى وسط جديد . . الوسط
الاستقراطى الرفيع . . المتكبر المتعالى . . الملتوى اللسان ،
الناطق بغير الضاد .

ولا أكتممكم القول أنى كنت أحس لهذا الوسط الجديد ،
من أهل السمو والرفعة والدولة والمعالي والشرف والوجاهة ،
كثيراً من الرهبة . . فقد بدا لى - رغم ثراء أبى - أنى شئ
أقل من هؤلاء ، وأن أصلى ونشأتى أخفض مستوى وأقل
شأناً . . فهما قيل عن ثرائنا الآن فإنى أحس أنى كنت من
الطبقة الوسطى ، ولم أنس قط أن أبى كان مقاولاً ذا دخل
محدود ، وأنه لا يحمل من الشهادات غير الفنون والصنائع ،

ولا أنسى كذلك أن « جدتي ، فلاحه أصيلة .. ذات وشم
أخضر في ظاهر يدها ، وأنها لا تعرف القراءة والكتابة ،
ولا تستطيع نطق الكثير من الألفاظ الشائع استعمالها .
حقيقة أن أبي قد أضحى باشا ، ولكنه باشا « بالدراع ،
لا بالأصل ولا بالنشأة ، فما كان لنا عراقة أصل ، وما عرف
تاريخ عائلتنا من قبل هذه الرتبة الرفيعة .

وحقيقة أنني ربيت تربية حسنة ، وأني لم أحس قط منذ
مولدي أنني محرومة من شيء ، وأنا لا نعتبر محدثي نعمة ،
أو أثرىء حرب ، ولكني مع ذلك لم أستطع أن أمنع ذلك
الوهم الذي داخل نفسي وجعلني أشعر بالتضاؤل إلى جوارهم .
كيف لا ، وأنا أجد أن ثلاثة أرباع من حولي .. هم
هؤلاء الذين تنشر الصحف صورهم ، وتروي أخبارهم ..
وتقص سكناتهم وحركاتهم ، وتقول إن فلاناً لقي فلاناً ..
وأن فلاناً لعب الطاولة مع فلان .. وأن هذا شوهد يسير
بجوار هذا .. كأنهم كواكب يتوقف على حركاتهم مصير
الكرة الأرضية .. وبقاء المعمورة .

لقد كان عملي في بادئ الأمر هو أن أجلس بجوار جدي
في ركن « الكابين ، وأرقب الناس وأفحص الوجوه المحيطة ،
محاولة التعرف عليها من صورها التي رأيتها ، ولم يكن يخلو

الامر من أن ألقى صاحبة لي في المدرسة أو أحد المقرّبين لي
من الأصدقاء ، فأقطع الوقت بالحديث أو السير معهم .
وفي ذات يوم كان أبي يجلس معنا في « الكاين » ، ورأيت
ينهض من مكانه ويحيي رجلا تبدو عليه سيما المهابة والعظمة ،
لم يكن وجهه غريباً عليّ ، وسمعتة يناديه « بدولتك » . . . ولم
ألبث بعد قليل فخص وتذكر أن عرفت فيه أحد أصحاب
الدولة السابقين .

وسأله أبي التفضل بالجلوس . . . وتقدم الرجل إلى
« الكاين » ، ونهضت لتحيته . وجلس يتسامر مع أبي ،
ويطرقون الحديث عن بعض الأعمال .
وعندما نهض « صاحب الدولة » للانصراف ربت على
كتفي وسألني ضاحكا :

— لم تجلسين وحدك هنا ؟ لم لاتأتين لزيارة « توتو »
و « سوسو » ؟

وقال أبي مبتسما :

— إن شاء الله تزورهم يا باشا .

ولم أجد في قول أبي سوى مجرد رد ، ولم أحاول طبعاً
تنفيذه لأنني لم أكن أشعر بكثير لهفة على معرفة « توتو »
و « سوسو » ، فقد كان إحساسي بالتضاؤل إلى جوار هذه

الطبقة .. تجعلني شديدة النفور منهم ، وكنت إلى جانب هذا متباعدة عن الناس .. أميل إلى الانطواء والوحدة بطبعي وبطبيعة نشأتي وتربيتي .

ولكنني مع ذلك وجدت أن الظروف قد أرادت أن تعرفني بهم ، وقررت أن تزج بهم في محيط حياتي . . . فقد أنبأني أبي بعد بضعة أيام أنه قد دعا « دولة زكي باشا » وعائلته ، إلى تناول الغداء معنا .

وبدأنا الاستعداد لاستقبالهم . . وقام البيت على قدم وساق .. كأن حدثاً خطيراً يوشك أن يقع . . ولم أر أبي يهتم بأمر قدر اهتمامه بهذه الزيارة الجليلة .

كنت أعرف أبي جيداً ، ولم أتمالك أن أهر كتنفي وأنا أتحرك في الدار غادية رائحة كأم العروس « فاضية مشغولة » . وأقول لنفسى : أغلب ظني أن « صاحب الدولة » المتقاعد ،

يوشك أن يصبح « صاحب دولة » عاملاً . . إن أنى لا يضع قعبه سدى ، أو من يدري ؟ ربما كانت المسألة مجرد تشرف .

وقيل الساعة الثانية وقفت أمام باب الفيلا عربية فخمة من أحدث طراز ، وخرج أبي لاستقبال الزائرين ، وسرت وراءه أتبع خطاه .

وبدأت ألخصم وهم يجتازون الحديقة واحداً واحداً .

« دولة الباشا ، يتقدمهم .. بعصاه ومنظاره وطربوشه المائل
على أحد حاجبيه وتامته الفارعة ومنظره المهيب ، وبحواره
أنى يتنسم حياً ، وعلى يمينه شاب متأنق أصفر الشعر ، أبيض
البشرة ، متورد الوجنتين ، أحمر الشفتين ، أميل إلى السمرة ..
وبحواره فتاة في مثل سى نحيفة الجسد ، طويلة القامة ، بها
شبه كبير من أيها لا يكاد يميزها عنه سوى بروز خفيف
في الصدر والردفين .. وأحمر الشفاه .. و« الفستان » طبعاً .
وقلت لنفسي :

— هذه لا شك إحدى الاثنتين .. توتو أو سوسو ..
تري لم لم تحضر الفتاة الثانية ؟

واقربت منهم بحية .. ورد الأب نحني مرحباً ، وقام
بمهمة التعريف بيني وبين ولده وابنته قائلاً :

— أهلاً وسهلاً مدموازيل عايدة .

ثم أشار إلى ابنه اللامع المتورد :

— ابني .. توتو .

وإلى ابنته الطويلة النجيلة :

— بنتي .. سوسو .

إذا فـ« توتو » هو ابنه .. ذكر لا أنثى !

لشد ما خلدني الاسم . ولكن معهم الحق .. فهو في تأنيقه

« وحفلطته ، أحق باسم «توتو» من غيره من أسماء الرجال .
وأجاب الشاب والفتاة على قول أبيهما بانحناء خفيفة
من رأسيهما . . ومسة من كفيهما لكفى الممدودة المفتوحة
وقالا في لهجة أرستقراطية :
— انشأنتيه .

ثم قال « توتو » لأخته باللغة الفرنسية بلهجة رفيعة
لدغة الراء :

— يجب ألا تنسى دعوة الآنسة عايدة إلى حفلة
سان استفانو .
وأجابته أخته :

— طبعاً . . لا بد من دعوتها . . لقد أحضرت معي
تذكرة خصيصاً لها .

ودخلنا إلى حجرة الصالون وجلسنا برهة نتحدث ريثما
يستريح الضيوف ويشربون « شيئاً » .

ولم يكن أبي قد تعود الشرب - على الأقل في البيت -
ولكنه في هذا اليوم خرج عن مألوف عادته . . وأعد بضعة
زجاجات من الويسكي احتفاء بالضيف العظيم .
ودخل أحد الخدم يحمل بضعة كؤوس .
وشرب الباشا « صاحب الدولة » . . وانباشا « أبي » . .

ولم أر في هذا عجيباً ! ولكن العجب الذي أصابني كان عندما
رأيت الشاب والفتاة يشربان ممتهي البسطة . . أمام أبيهما
وأبي ، وكان المسألة ليس فيها مدعاة لتهيب أو خجل .

وسألني توتو بك : لم لا أشرب ؟
وأحسست أن أني تملكه الجرج ، وأنه يتمنى لو كنت
قابعة في غرفتي دون أن أختلط هذين الأرستقراطيين .
وأجاب هو نيابة عني بأني لم أعود الشراب .
ولم تطل جلستنا في حجرة الاستقبال ، ثم نهضنا إلى
حجرة الطعام والتفطنا حول المائدة .

وتحدثت مع الفتى والفتاة . . وأقول الحق أني أصبت
بصدمة من حديثهما . . وأدهشني أن أجدهما على هذا القدر
من السخف والتفاهة ، وبدأت أحس بالتضاؤل الذي كنت
أحسه إلى جوار الطبقة الرفيعة يتبدد ويتطاير . . ويحل محله
إحساس بالكبرياء والتعاضم .

كان أول ماسألني « توتو بك » هو قوله بالفرنسية :

— هل سمعت آخر تانجو ؟

وأجبتة بالعربية وبني شبه أسف :

— لا . . إني لم أسمعه .

— خسارة . . تانجو عظيم جداً .

— وما رأيك في أسطوانة « جيف مى بور ليس » ؟
وفهمت أنه يعنى بالعربية أغنية « إعطنى شفتيك » ..
وهزئت رأسى وقلت بنفس اللهجة الآسفة :
— لم أسمعها أيضاً .

ورفع الفتى حاجبيه دهشاً من جهل المطبق وقال :
— عجيب ! لم يخطر ببالى أن أحداً لم يسمعها .. لقد بيع
منها فى نيويورك وحدها نصف مليون اسطوانة .. وقال
« موديس شيفاليه » نفسه إنها أبدع ما سمع .
وتملكنى الخجل ، وخشيت أن يوجه إلى سؤالاً عن
اسطوانة أخرى .. أو « رومبا » جديدة .. يزيد بها جهلى ،
فأنا لم أسمع قط أسطوانة أفرنجية .
ولكنى وجمته يسألنى سؤالاً أقل إحراجاً .. سؤالاً
أستطيع على الأقل الإجابة عنه :
— ما أحب الأدوار إليك ؟

وبلا إرادة ولا تفكير ، تذكرت أغنية « ردّت الروح » ،
وتذكرت جلستنا على الساقية المهجورة .. و « أحمد » يندندن
الأغنية بصوته الخنون ونبراته الهادئة ، وتملكتنى نشوة
وأجبت قائلة :

— ردّت الروح !

وكانت المناقشة بيننا تجري بطريقة عجيبة ، فهو يتكلم بالفرنسية ، وأنا أجيب بالعربية ، وكنت أستطيع بالطبع أن أجيبه بالفرنسية ، ولكنني لم أكن أجد لها داعياً ، مادام هو يعرف العربية ، وأنا أعرف العربية كذلك .

ووجدته يردد قولي بلهجة أشبه بلهجة الإفريج عندما ينطقون العربية ، واستمر يرددها ويتساءل :

— ردّت الروح . . ردّت الروح !

ثم التفت إلى أخته يسألها :

— كس كي سا .

وهزت أخته كتفها وهي تزدرد الطعام فقد كانت مثله لم تسمع عن شيء اسمه « ردّت الروح » .

وأصابني نفس الخجل الذي أصابني من جهلي بآخر تانجو ، بدا لي أن من العار أن أعرف « ردّت الروح » ، أو أذكرها لي الطعام .

وقلت مفسرة حتى أداري خجلي :

— « ردّت الروح على المضني معك » . إنها قصيدة من

روع ما نظم شوقي ولحن عبد الوهاب .

وانطلقت من صدر صاحبتنا آهة تذكر ، وقال في لهجة

لا تخلو من الاستخفاف والاستهزاء :

— أغنية عربية ؟!

وقلت وأنا أخفض بصرى كأتى قد ارتكبت ذنباً :

— أجل . أغنية عربية .

— لا.. لا.. إني أقصد أغنية من الأغاني المتمدنية .. إني

لم أحاول قط أن أسمع أغنية عربية .

وأحسست بالغضب يغلي في عروقي وتمنيت أن أصفحه

ولكن لم أرد أن أسبب لأبى كارثة ، وقلت له متسائلة بنفس

لهجته المستخفة :

— ولم ؟

— إن الموسيقى الشرقية تتوتر لها أعصابى .

— ألم تسمع لعبد الوهاب شيئاً ؟

وهزّ رأسه بالنفي .

فسألت مستفسرة :

— ولم تقرأ للشوقي؟

واستمر يهزّ رأسه متبرّماً من التهمة .

وعدت أسأل :

— ولا قرأت للمنفلوطى ؟

وانطلق يقهقه كأن النكسة قد أسعفته ، وأجاب فى شيء

من السخرية والاستهزاء :

— منفلوطى؟ أنا لم أسمع إلا عن «المان ، المنفلوطى .
وأجبتة فى كثر من التهم :
— الحمد لله . . إنك تعرف شيئاً مصرى ، حتى ولو كان
«المان ، . .

— أنا أكره كل شىء مصرى . . هذا الشعب ما زال
شعباً بدائياً . . أمامه قرون حتى يصبح شعباً متمديناً . . شعب
«القول المدمس ، والطعمية . .

ولو قال لى أحد غير هذا الأبله ، ذلك القول . . لكان
محتماً . . ولتركته يذهب مع الريح . . ولما ترك فى نفسى
أثراً يذكر . . أما أن يقوله ابن «صاحب دولة ، . . وإنسان
يحتمل جداً أن يصبح فى هذا الشعب المسكين ذا شأن
وذا خطر ، وقد يدفعه القدر الغشوم إلى أن يتولى منصباً
من مناصب الدولة ، ويصبح إنساناً مسئولاً عن مصير هذه
الأمة النعمة .

أما أن يقول هذا الكلام مثل هذا الإنسان . . وأن يكون
رأيه فى المصريين مثل هذا رأى . . وحديثه يمثل هذه اللغة . .
فقد جعل دى يغلى فى عروقى .

أهذه أفكارهم عن أمهم؟ . . أبمثل هؤلاء المخشيين من
أبناء الكبراء ستنى مصر مجدها وتقيم سؤدها . . هؤلاء

الذين تثير أعصابهم الموسيقى الشرقية .. والذين لا يعرفون
من الدنيا إلا آخر رقصة ، وآخر أغنية « لموريس شفالیه »
ولا يهتمون إلا بأحدث « موضة » للأزياء .

هؤلاء الذين يتحدثون عن الشعب المصرى كأنهم ليسوا
منه .. الذين يتبرأون من « الفول والطعمية » كأنها سبة أو معرة .
وتذكرت « أحمد » ، وتذكرت مصريته الحقة ، وتذكرت
« الكشرى أبوجبة » و « مية الدقة » ، وتذكرت حماسه
للجيش .. وحماسه لمصر .. وتمنيت لو استطعت أن أجثو
أمامه وأقبل قدميه .

هذا الرقيع الجالس بحوارى ، قد أعطانى نموذجاً للطبقة
العليا .. أستغفر الله .. بل الطبقة السفلى الرقيقة المدللة
ونظرت إليه ولم أدر ماذا أقول له .. أألعن أباه .. أعنى
« دولة أبيه » .. أم أتركه وأذهب إلى حجرى ؟
ولكن ماذا يقول أبى ؟ ليس أمامى سوى أن أمثل
لإرادة الله .. وأظل أستمع إلى آرائه الرفيعة المتعالية ، حتى
ينتهى من تناول الطعام .

ولم أستطع إلا أن أفرج عن غيظى المكبوت .. بتصو
ماذا يمكن أن أفعله فى تلك الطبقة السفلى .. أولاد الذوات
لو كان الأمر يبدى .

وتصوّرت نفسى حاكمة بأمرها فى هذا البلد .. وأنى
جمعت كل هؤلاء الرقعاء المرفهين المنعمين .. الملتوى الألسن
الذين يربأون بأنفسهم أن ينزلقوا إلى هاوية الحديث باللغة
العربية .. والذين لا تشنف آذانهم سوى الموسيقى الغربية ،
ولا يحتمل مزاجهم الرقيق سوى « التانجو » و « الفالس » ..
والذين يتفاخرون بمسبة الشعب المصرى ويتبرأون منه ..
ويحطون من قدره ويسمونهم : شعب « القبول والطعمية » .

تصوّرت نفسى وقد جمعت هؤلاء الرقعاء .. وشددت
وثاقهم وألقيتهم عرايا فى أحد ميادين القاهرة .. وأمرت
بجلدهم كل واحد مائة جلدة « على الماشى » .. حتى أجعلهم
لا ينطقون بالضاد فحسب .. بل يتأوهون بالضاد .. وأعلمهم
إذا ما جلسوا فيما بينهم أن يتكلموا العربية .. ثم أضع فى
أرجاء الميدان « ميكروفونات » لتذيع غناء « محمد العربى »
و « الشيخ محمود صبح » .. حتى أجعل مزاجهم يخشوشن ..
وأنسيهم كل ما يعلمون عن « وشى جودباى » ..
و « جيف مى يورليس » ... وأجعلهم ينشدون بأعلى
أصواتهم « يا حلوه ياربه ، و « يا عم دانا غريب » ...
و « يا نخيف القوام » .

ثم أتركهم بعد ذلك يعيشون خمسة أيام على « العيش

الحاف ، . . حتى يشتهوا ، الفول والطعمية ، .

وهكذا استطعت بتلك الأفكار والتصورات أن أفرج
عن كربى وأن أسرح بعض الشيء فأتخلص من سمع هراء
ضعفنا وأخته .

وعدت أنظر إليه وهو يحدث أباه بالفرنسية فأحسست
بالرثاء له . . وعدت أتسامل :

« ما ذنب هذا المسكين فيما أخشى عليه ؟ وما ذنبه فى ذوقه
وأفكاره . . إن المسئول هو « صاحب الدولة » نفسه .

المسؤول الأول هم الآباء الذين يترفعون عن التربية
المصرية ويدفعون بأولادهم إلى المدارس الأجنبية .

المسؤول هو « صاحب الدولة » . . الذى لم يؤمن بتعليم
دولته ، وتربية دولته . . فلجأ إلى المدارس الفرنسية
والإنجليزية يستجديها تعليم أولاده وتربيتهم .

ما ذنب الأبناء المساكين وقد نشأوا نشأة أجنبية بحتة ؟
نشأوا فى بلادهم ، وهم غرباء عنها . . فنذ نعومة أظفارهم
قد تولت أمرهم مربية أجنبية — وهذا لاشك من دواعى
نفرهم ونفخ ذويهم — فلما شبوا ألحقوا بالمدارس الأجنبية
فضضحت على عقولهم ، وصبغت نفوسهم . . وغيرت أذواقهم

ولو كنت أفكارهم ، فترفعوا عن أمهم ، وتعالوا على شعبهم .
ما ذنبهم إذا كانوا لم يتلقوا من الثقافة العربية كفايتهم ؟
ما ذنبهم إذا كانوا لا يعرفون شيئاً عن الشيخ « محمد عبده » ولا
يعيزون بين « عبد العزيز البشري » و « خان الخليلي » ؟
ما ذنبهم إذا كان أهلهم نخورين بأجنبيتهن ؟ ما ذنبهم إذا
كانوا لا يجيدون الحديث بالعربية . . كما لا يجيدونه بالفرنسية
أو الإنجليزية ؟

ما ذنبهم إذا كان أبوهم لم يحزنه أن يراهم كذلك ؟ . .
وعدت إلى نفسى مرة أخرى على صوت « توتو بك »
بقول لى :

- هل تعلمت الرقصة الجديدة ؟
- ولا القديمة .
- أنت لا ترقصين ؟
- أجل .
- كيف ؟ هذا أمر غير معقول !
- ولم لا !! إني لا أحب الرقص .
- لا تحبينه ؟! هذه مسألة من ضروريات الحياة . .
- كالأكل والشرب . . كيف تعيشين بلا رقص . لا . لا . لا بد
أن أعلمك الرقص ، سأعتبر نفسى مسئولاً عنك منذ الآن .

ولم أدر بماذا أجيبه .. ولكنى فضلت ألا أدخل معه في
مناقشة فقلت له :
— إن شاء الله .. سأحاول تعلمه .

وانتهت تلك الزيارة على خير ، وتنفست الصعداء وأنا
أودع العائلة الأرستقراطية وأعدهم — وأبي — برد الزيارة .
وبدأ لي بعد ذلك أنه لم يعد هناك مفر من توطيد العلاقة
بيننا ، وبدأ لي أيضاً أن أبي في علاقته الجديدة ، حائر قلق ،
فهو راغب فيها ، كاره لها .. راغب فيها لأنه يهدف من علاقته
بصاحب الدولة إلى غرض معين من ناحية العمل .. ولأنه
— كما كنت أتوهم من قبل — يرى هذه العلاقة مدعاة للفخر .
وكان كارهاً لها لخوفه على منها ، فقد أدرك مدى خطورتها
على ، وأفزعه من أولاده صاحب الدولة ، مسألة الرقص
والشرب .. وهو الذى .. طالما ضيق على الخناق .. وقسا
في تربيتي .

وكنت واثقة أن أبي لن يسمح قط بما يفسد عليه تربيتي
وبما يضيع طول مجهوده معي ، ولو كنت أستطيع أن أحدثه
بصراحة لطمأنت قلبه ، وأظهرت له مدى احتقارى لتلك
الطبقة الرفيعة ، ومدى نفورى منها ومن أسلوبها في الحياة

ولقد له .. إن لدىّ درعاً يقيني غوائلها .. ويجعلني أصد
كل شرور الحياة ومفاسدها .. وهو جبي ولاحمد .. وعزيمى
على الاقتران به .

ولكن .. هل أجسر أن أقول هذا ؟

ولم يجد أبى هناك وسيلة يمسك بها العصا من الوسط ..
فبقى على علاقته مع الأب .. ويجنبني شرور الأبناء .. إلا أن
يقصر علاقته على الرجل نفسه .. فيلبي دعوته وحده ويعتذر
عن عدم حضوري بالمرض .. ويلجأ إلى .. أنه لا يرغب في
أن أتعرف بهؤلاء الأولاد المفاسيد .

ولم أكن في حاجة إلى نصحه بالطبع .. فقد كنت أنا
الراغبة فيه .. وقلت لنفسي : « بركة يا جامع » .. وصممت
على أن تكون زيارتهم لنا .. هي أول وآخر علاقتي بهم ، وأن
أتهرب منهما قدر ما أستطيع .

واستطعت فعلاً .. أن أتهرب منهما .. فقد جلعني
« توتو بك » (استطعت بعد ذلك .. أن أعرف .. أن اسمه
« تهاى » لأن أمه كانت تود لو كان بنتاً .. فأطلقت عليه هذا
الإسم .. رحمة الله .. فقد استجاب الله دعاءها) .

أقول إن « توتو بك » جاءني بضع مرات يدعوني .

الذهاب معه إلى « سان استفانو » ، أو إلى زيارتهم .. ولكنى
كنت أعتذر دائماً بالمرض .

وذهبت ذات يوم إلى « الكاين » .. وجلست على إحدى
الأرائك .. أراقب الناس طوراً .. وأتشاغل بالقراءة طوراً
آخر .. وجماعة وصل إلى أذنى .. صوت بمدود ملحن ..
يصبح بى :

— بونجور عايدة .

وتلفت .. فإذا به « توتو » .. وقد سار مع صاحب له
على شاكلته .. وفتاتين .. ترتدى كل منهما « مايو » من
الساتان .. قد شدد على الجسد وانحصر عن الساقين .. حتى بدت
الفتاتان أشبه بالعاريتين .

وأجبت على تحيته بهدوء :

— بونجور يافندم .. إزاي سوسو ؟

وانطلق « يرطن » بالفرنسية .. رافعاً كل كلفة .. كأننا
أصدقاء العمر :

— لقد عثرت عليك أخيراً أيتها الهاربة .

— إنى أسفة لأنى كنت مريضة فلم أستطع أن ألبى دعوتكم .

— لا .. لا .. أنت تلبينة مكسالة .. لقد أقسمت أن

أعليك الرقص . وما قد أمسكت بك فإن تفلتى من يدي .

والتفت إلى أصدقائه مستدركا :

— نسيت أن أعرفكم ببعض . عابده هاتم . ابنة مصطفى
باشا عبد الرحمن .. وصديق « برى » .. وأخته « ميمى » ..
وصديقتها « كاميليا » ..

وأخيت رأسى قائلة :

— تشرقنا يا فندم .

وتتمم الباقي بعض كلمات بلغات مختلفة .. لم تكن بينها
العربية طبعاً .

وعاد « توتو » يندفع في هنده :

— ما رأيك في أن نبدأ الدرس من الآن ؟

وقلت في دهش متسائلة :

— درس ؟ ! أى درس ؟ !

— لا .. أنت تليذة بليدة لن تغلح معك إلا الشدة .

ثم التفت إلى أصدقائه .. دافعاً إليهم داخل الكابين
صائحاً بهم :

— ادخلوا انتظرونى برهة . خمس دقائق فقط . سأعود
إليكم حالا .

ودخل أصدقاؤه إلى « الكابين » .. ولم يسعنى أمام الأمر

الواقع إلا دعوتهم إلى الجلوس .. وبعد خمس دقائق عاد صاحبنا فعلا ، وقد حمل في يده حقيبة « جراموفون » ، وفي اليد الأخرى كيس اسطوانات .

وبلا كلمة واحدة وضع الميكروفون على المنضدة ، وبدأ في إدارته ، واقترب مني قائلا ببساطة :

— هيا .. سأعليك الآن رقصة بسيطة « فوكس تروت » ، لن تأخذ منا سوى خمس دقائق .. فهي لا تزيد على أربع خطوات : واحد .. اثنين .. ثلاثه .. أربعة .. بسيطة جداً .. كأنك تسيرين .

وكنت أسمع إليه ، وأنا جالسة في مقعدي .. أنظر إليه فظرتي إلى إنسان مخبول .

وهمّ بأن يمسك يدي ، ولكنني نزعتها من يده .. وقلت له :

— أرجوك يا « توتو بك » ، إنني متعبة جداً لا أستطيع النهوض . لقد قلت لك إنني لا أحب الرقص ، ولا أريد أن أتعبه . فأرجوك ألا تضايقني بالإلحاح .

وهكذا لم أجد ما يردعه عني سوى « قلة الذوق » ، فقد جردته كما يقول : « يسوق الهباله على الشيطنه » .

وكنت أنتظر أن ينجعل أو يغضب ولكنه لم يفعل ، بل

أجاني ضاحكا :

— لن أياس منك أيتها التليذة البليدة .

ثم نظر إلى رفاقه وقال :

— دعونا نرقص هذه الرقصة .

وعاد يوجه إلى القول :

— يجب أن تستفيدى بالمراقبة .. اتبعى خطواتنا ..

فهذا سيفيدك فى التعليم .

وهكذا .. ما بين غمضة عين وانبهاتها انقلب « الكاين »

إلى « باللو » ووجدتنى أجلس عن غير قصد منى - بل رغم أننى -
فى حلبة رقص .

وتملكنى خجل شديد ، وغازنى أنى لا أستطيع أن أفعل

شيئاً لإيقافهم ، وأنى لا أجسر على طردهم .

ووجدت أن خير طريقة هو أن أغادر أنا « الكاين »

وأسير على الشاطئ . برهة ريثما ينتهون من مجونهم ، وهممت

بالنهوض فعلا لمغادرة « الكاين » عندما وقع بصرى بناة على
الشخص الذى لم أكن أتمنى شيئاً كرؤيته .

رأيت « أحمد » مقبلا على « الكاين » ، وتملكنى من

رؤيته فرحة فجائية .. كادت تدفعنى لأن أجرى فارتبى بين

أحضانه .. لولا مسكة من عقل .. ولولا فطرة غريبة
رأيتها في عينيه .. نظرة جعلتني أذكر لك المنظر المحيط بي ،
المنظر الماجن والموسيقى الصاخبة والضحكات العريضة ..
التي ألقاها على القدر الساخر .. بلا أى سبب ، وفي اللحظة
المحكمة .. حتى أبدوا أمام أحمد ، - ظلماً وعدواناً -
بما أنا أبعد الناس عنه ، وحتى يبدو له أنى أشارك هؤلاء
المخبولين رقصهم ومجونهم .

ولغت الظروف التي ألفت بذلك الحيوان الأرستقراطي
المهووس وأصحابه الخفي إلى الكابين ، في تلك اللحظة غير
المناسبة ، ولم يسعنى إلا أن أتقدم إلى أحمد ، محيية ، معللة
نفسى بأنى سأوضح له جلية الأمر ، وأخو من نفسه سوء الظن
الذى قد يعلق بذهنه .

ولم يلتمنى أحمد ، باللهفة والحماسة المنتظرين .. فقد صدمه
- كما توقعت - ذلك المنظر الذى لم يكن يتوقعه قط ، وفعلت
به الوسوس والظنون فعلها في لمح البصر ، فأبصرت بوجهه
مخفناً بغيظ مكبوت ودهش واستياء ، وخيل إلى أنه يقاوم
ثورة غضب تعصف بصدره .

وسألني في برود :

— كيف حالك يا عابدة ١٩ وكيف حال عمي . . وبينه ؟
يدولى أنك مسرورة ؟

وتحملت بروده وسخريته . . واثقة أنه بعد دقائق
سينصرف الفتية السخفاء . . وأخلو به وأوضح له الأمر . .
وحتى لو لم ينصرفوا . . فإني أستطيع أن أسير به برهة
أوضح خلالها ما التبس عليه فهمه .

ولكن يبدو لي أن الظروف قد أثبتت إلا أن تعقد الأمر
وتمعن في مضايقتي . . إذ ما كدت أجيب ، أحمد ، على تحيته
وأدعوه إلى الدخول إلى الكابين ، حتى لمحت أبي قادماً .

ولم أشك في أن المنظر الصاخب الراقص قد أساء أبى . .
ولكنه استطاع أن يكظم غيظه . . وسلم على ، أحمد ، وعلى
الفتية الراقصين الذين توقفوا عن الرقص لانتهاه الأسطوانة .
وقال « توتو ، محدثاً أبى بمنتهى البساطة :

— بونيجور عمي . . سأشكو لك عابدة . . إنها كسولة
جداً . . إنها أبعد تليذة رأيتها إلى الآن .

وأجاب أبى متضحكا :

— لا . . لا . . سأقرص لك أذنهما ، حتى تكف
عن كسلها .

ونظر إلى .. ووجد أن خير طريقة ينهى بها ذلك
الصخب ، ويصرف الفتية إلى حال سبيلهم ، هو أن تنصرف
نحن .. فقال لى فى عجلة :

— هيا يا عابدة .. فإنى متعجل .. إنى أريد أن أتناول
الغداء سريعاً لأنى على موعد .
وأجبه مطيعة أوامره :
— حالا .

وبدأت أجمع الوسائد من فوق الأرائك الخشبية المثبتة
فى « الكابين » .. وأدخلت المقاعد .. ولم ير « توتو » بدأ
من أن يغلق الجراموفون ويحملة متهيناً للانصراف .. وسأله
أبى ليجرد الحديث :

— كيف حال « دولة الباشا » ؟

— متوعلك قليلاً .

— كيف ذلك ؟ لا بأس عليه .. سأزوره اليوم
لأطمئن عليه .

وأغلقت باب « الكابين » وانصرف الفتية مودعين ..
وسرت وأبى وأحمد متجهين إلى العربية .. وكان أحمد طول
الوقت صامتاً لا يتكلم ، وتمنيت لو استطعت أن أعجل بالشرح
له ، فقد كرهت أن أسبب له حزناً لا أساس له ، ولكنى

قلت لنفسي .. إن عليّ أن أُنظر حتى نصل إلى البيت ..
فلما شك أنه ستتاح لنا خلوة طويلة .. فأخى قدر حل إلى
مصر ، وجدتي راقدة .. وأبي إما أن يخرج أو ينام .

ودخل أبي العربية ، ودخلت وراءه وأفسحت مكاناً
لأحمد حتى يجلس بجوارى .. متوقعة أنه لا بد أن يحضر
للغداء معنا ، ولكنني وجدته يرفع يده بالتحية مودعاً .

وأحسست بقلبي يغوص بين جنبي ، ولم يعد لي من أمل
سوى أن تحدث أني فيجبره على المجيء معنا ، وفعلنا تكلم
أبي قائلاً :

— إلى أين يا أحمد ؟ ألا تأتي لتناول الغداء معنا ؟

وتمنيت أن يعقل وأن يتروى ولا يعن في غضبه ..
وأن يتيح لي فرصة الدفاع ، ولكنني رأيت وجهه تكسوه
البسامة مصطنعة وقال لأني :

-- أنا متأسف يا عمي .. إني على موعد مع صديق
قد دعاني لتناول الغداء .

وتمنيت لو استطعت أن أصبح به متوسلة .. أركب
يا أحمد .. أرجوك .. سأشرح لك كل شيء .. إني مظلومة .
ولكنني لم أجرو .. واكتفيت بنظرات متوسلة صامتة

أصوبها إليه ، ولكنه لم يحاول أن ينظر إلى ...
وتملكني اليأس .. لا سيما وأنى لم أتوقع من أبى أن يلج
في دعوته .. فقد كان قوله مجرد تأدية واجب .. أو كانت
دعوته « عزومة مراكيبه » .

ولكنه مع ذلك كذب ظنى وعاد يقول لأحمد :
— ألا تستطيع أن تعتذر له بالتليفون ؟
وبدا لى القول كأنه آخر خيط أعلق به قبل أن أهوى ..
وتطلعت إلى أحمد متوسلة .

ولكنه أجاب ببساطة قتلتنى :
— متأسف جداً يا عى .. ليس لديه تليفون .
وكنت واثقة أن أحداً لم يدعه إلى الغداء .. وأنه قد
حضر خصيصاً لرؤيتى ، وكنت واثقة كذلك أنه لا يقل عنى
لهفة على اللقاء ، وأنه قد لقي الأمرين فى سبيل الحصول على
أجازة للحضور إلى ..

وكرهت أن يخذل كلانا .. بلا أى سبب ، وأن يعود
بانساً محزوناً .. ويتركنى شقية ملتاعة .. وأن تفك من
أيدينا فرصة ذهبية كنا نوشك أن تتمتع بها سوياً بين
البحر والرمال .

وجاء قول أبى كأنه حكم على بالإعدام .

— السلام عليكم .. دعنا نراك يا أحمد .

وتحركت العربية .. وحاولت جهدى أن أقاوم نوبة من
البكاء كادت تعصف بي .. واختفى شبح أحمد .. ورأيت
الكباين والناس والبحر .. وسور الكورنيش ، تتواتر أمام
عيني في سرعة زائدة ، وقد ظللتها طبقة من دمع تفرق
في عيني .

لقد كنت في هذه الآونة أشبه بمحموم اعترته رجفة
ورعدة .. وكنت أستطيع أن أخمن ماذا ظن أحمد بي ..
إذ أبصرت على سباه كبريائه القديمة وصلفه وتحديه .
ليته يكف عن كبريائه قليلاً !

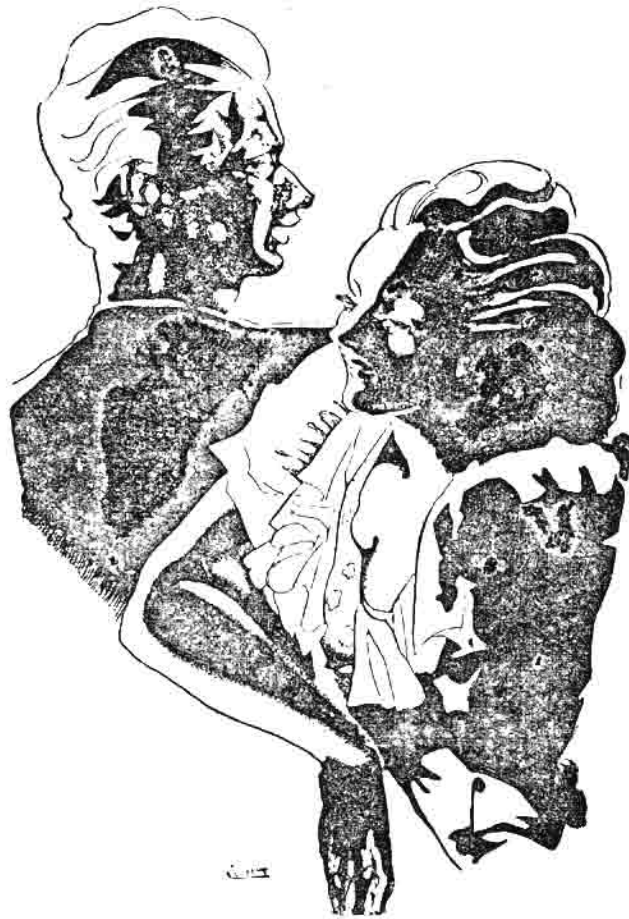
ليته تروى واقتصد في غضبه ! ! ليته ترك لي فرصة
للتفاهم ! !

إنه معذور .. فما من شك في أن ذلك المنظر الذي رآه
في « الكباين » ، يشير أهدأ الناس أعصاباً .
ولكن ما ذنبى ؟ وما ذنبه أيضاً ؟ !

لقد تملكىني وقتذاك حزن مزدوج ولوعة مضاعفة ..
لوعة من أجل نفسى لحرمانى منه .. ولوعة أشد من أجله هو .
فإن حزنه لا شك حزن شديد . حزن يساوى حزنى عندما
أخبرنى أخى أنه شاهده في السينما مع « ابتسام » .

وكرهت ان أجد نفسي عاجزة حيرى . . . وألا أستطيع
أن أعيده إلىّ وأبدد أحزانه وأفهمه خطأ ظنه . . . ولكنى لم
أكن أملك إلا الصمت والسكرن . . . وإلا أن أتركه يذهب
بلوعته ويفرقنى فى أشجائى .
إن شرمائى الحب أن الحب يخلق لنفسه أحزاناً لأشبهه
لا وجود لها .





فین

۱

إلى البيت . . وجلسنا حول المائدة وأنا شاردة
وصلنا الذهن . . أتناول الطعام بطريقة آلية دون أن
أذوق له طعما .

وبدأ لي أن أرى لم يكن أقل منى شروداً . . ولم أشك أن
هناك ما يشغل ذهنه . . واتهينا من الطعام . . ونهض كلانا
في صمت . . وذهب إلى غرفته . . وذهبت إلى غرفتي . .
وارتميت على الفراش في ضيق ويأس . . وأخذت أستعرض
في ذهني كل ما حدث ، وأحسست بكره شديد لذلك الرقيق
المختبئ . . الذي سبب لي كل هذا الحزن . . ورأيت أن خير
ما أفعله هو أن أكتب لأحمد خطاباً أوضح فيه الأمر .

ونهضت من الفراش ، وخرجت من حجرتي أبحث عن
ورقة وقلم . . وزعت ورقة من كراسة لأبي تعود أن يكتب
فيها بعض الحسابات ، وعثرت على قلم ملق في أحد الأدراج
وعدت بهما إلى حجرتي كأنني عثرت على صيد ثمين .

وجلست لأكتب . . وكانت تلك هي المرة الأولى التي
أحاول أن أكتب فيها لأحمد . . أو لغير أحمد . . فسا كتبت
من قبل سوى بضعة خطابات كانت تطلب مني جدتي أن
أكتبها لها لترسلها إلى بعض الأهلين بالبلد .

وأخذت أفكر . . ماذا أكتب له ١٤ وكيف أبدأ رسالتي ؟ شعرت أن المهمة ليست بالهينة . . وأني لن أستطيع بكتابتني أن أقنعه بنفس السهولة التي أقنعه بها فيما لو كنت أحدثه وجهاً لوجه .

ولم أدر ماذا أقول له : « عزيزي أحمد ، . . لا تعبر عن حقيقة موقعه من نفسي . . حبيبي أحمد ، . . ثقيلة على النفس وركيكة في الكتابة .

وأخذت أكتب وأشطب . . فكلما كتبت شيئاً وجدت به ركاكة وضعفاً . . وخيل إلي أنه قد يزيد من غضبه . آه . . لو انتظر .

آه لو أتاح لي الفرصة . . لكي أحدثه وأشرح له . بل ما أظنني كنت في حاجة إلى الشرح والحديث . . فقد كان يكفي أن تشابك أصابعنا ، وتلتقي أكفنا ، وينظر كل منا في وجه الآخر . . حتى ننسى كل ما أحزننا ، ونغفر كل منا للآخر كل ما أثار وسأوسه . . فقد كانت أعيننا أنطق بالحب وأشرح للاخلاص من أفصح لسان .

ومللت أخيراً من الكتابة والشطب ، ومزقت الورقة ، وعدت إلى فراشي متعبةً مكدودة . . يجب علي أن أنتظر شهراً آخر حتى نعود إلى القاهرة . . فنلتقي وأشرح له .

أجل .. إن كبرياءه لن تسمح له بالحضور مرة أخرى
إلى الإسكندرية .. بل لشدما أخشى أن تمنعه أيضاً من
الحضور إلى دارنا بالقاهرة .

ولكن لا .. إني لن أخشى ذلك .. لأنى أستطيع أن
أحدثه بالتليفون .. فلقد سبق أن أعطانى الرقم وسألنى أن
أحدثه فيه إذا احتجت إليه .

وأخذت أتقلب فى قلق .. ولكنى أحسست أن باب
الغرفة يفتح .. ورأيت أبى ينادىنى :
— عايدته .

ونفضت من الفراش .. وتوقعت أنه سيسألنى عن شيء
خاص به : علبة دواء .. أو زجاجة اسبيرين .. أو أى شيء
ما تعود أن يسألنى عنه .
وأجبتة :

— نعم .

— تعالى .

وخرجت إلى الصالة .. ووجدته قد ارتدى ملابسه وبدأ
عليه أنه يهم بالخروج ، وقال :

— سأضطر أن أعود إلى القاهرة غداً .. فإن لدى بعض
الأعمال التى تستدعى وجودى فى القاهرة .

ولم يكن هناك أسهل على من أختن ما يجول بخاطرهم
فقد كنت أدرى الناس به . . وكنت دائماً أعرف ما ورا
حديثه .

وأدرت ببساطة . . مدى التأثير الذى أحدثه فى نفسه
«توتوبك» ورقصه ومجنونه . . وعلمت أن ما كان يشغل ذهنه
أثناء تناول الطعام هى هذه المسألة دون غيرها . . وأنه بات
يحبس من الفتى الرقيق بخطر يحيق به . . من العسير صده أو
الخلاص منه . . وأن التفكير قد انتهى به إلى أن خير طريقة
للخلاص هى العودة إلى القاهرة .
وعاد أبى يقول :

— لست أدرى ما إذا كنت تودين البقاء . . أم تفضلين
العودة معى ؟ أنت . . وماتشائين .
وكنت أعلم أيضاً ما وراء قوله . . فما كان لى قط أن
أختار ما أريد . . أو أفعل ما أشاء . . بل كان على أن أفهم
قوله جيداً . . ثم أختار بعد ذلك ما يريد هو وما يشاء .
هل يعقل أن يتركنى وحيدة فى الأسكندرية . . لو أننى
قد شئت ؟ . ولكنى مع ذلك لن أشاء . . فما أظن رغباتنا
توافقت فى أية لحظة كما توافقت الآن .
إنه يريد أن أعود إلى القاهرة ، وأنا أشد منه لفة على

العودة . لقد كنت أشعر أن معجزة قد حدثت وأن عودتي إلى
القاهرة نجدة من السماء .

لقد اتفقنا في الرغبة ، واختلفنا في المقصد . هو يريد مني
العودة فراراً من « ابن صاحب الدولة » ، وأنا أريدها فراراً
من الفقرة والبعد والأحزان .

وتبددت من نفسى اللوعة وتطايير الشجن ، وأحسست
بالسعادة تفعم نفسى ، وأنا أفكر في القاهرة وأستعرض في
ذهنى جلستنا في الشرفة ، ومسيرنا في الطريق ، ونجوانا على حافة
الساقية ، ووجدتني أقول له :

— أفضل السفر معك طبعاً .

ولم يكن بردى أى نفاق .

وقضيت ليلتي هائلة ، فرحة مستبشرة ، وفي اليوم التالى
حزمتنا حقائبنا وعدنا جميعاً إلى القاهرة مبكرين شهراً عما
كان ينتظر أن نمكث في الاسكندرية ، فقد كنا في منتصف
أغسطس ، وكنا قد تمودنا مغادرة الاسكندرية في منتصف
سبتمبر .

وصلنا إلى القاهرة ، ولم يكن هناك فرصة للحديث يوم
الوصول إذ لم يكن قد استقر بنا المقام بعد ، وكان البيت مازال
في حالة اضطراب .

وفي اليوم التالي استيقظت ربي إحساس المقدم على أمر
خطير . . كنت أندفع إليه دون وعي . . فلقد صممت على أن
أحدثه في التليفون ، وكان بي شعور المغامرة ، فما تجرأت من
قبل على أن أطلبه .

وانتظرت حتى انصرف أبي وأخى ، وانهمك الخدم في
أعمالهم ، وكانت الساعة قد بلغت العاشرة . فحملت جهاز
التليفون إلى الطابق السفلي بعيداً عن مسمع جدتي . ثم بدأت
أدير أرقام القرص .

ووضعت الساعة على أذني وأصغيت ، فحملت إلى أزيز
مشغل الخط . . فأعدتها إلى مكانها .

وبدا لي أن التليفون قد ركب رأسه وأصرّ على أن يمعن
في مضايقتي وإثارتني . . فلقد طلبت الرقم على ما يقرب من
عشر مرات وأنا أجده مشغولاً .

وكنت أخشى أن تضيق الفرصة السانحة ، فرصة خلو
البيت ، وكنت أحس بارتباك شديد وغيظ أشد .
وأخيراً .. وأخيراً جداً ، سمعت الجرس يدق في الساعة
وسمعت صوتاً يجيبني :

— ألو .

— السواري ؟

— أفندم .

— أستطيع أن أكلم أحمد افندى عبد السلام .

— أيهما ؟

ولم يكن لدى أية فكرة أن هناك ، أحمد عبد السلام ،
سواه .. وأصابني الارتباك ولكنني استدركت قائلة :

— أريد الملازم ثاني أحمد افندى عبد السلام .

— انتظري على الساعة حتى نبحث عنه .

وانتظرت طويلا ١٩ .. ربع ساعة دون أن يجيئني أحد ..
ووضعت الساعة .. وتذرعت بالصبر .. وعدت أطلب
الرقم مرة أخرى .. وحمدت الله .. أني لم أجد ، السكة
مشغولة .

وتكررت نفس المحادثة الأولى ، ولم أجد بدا من الرجاء
قائلة :

— أرجوك لا تتركني أنتظر على الساعة . إنني أريده في
أمر هام .

— سنرسل في طلبه من الإسطنبول حالا .

وبعد برهة أجابني نفس الصوت .

— غير موجود يا أفندم .

— أرجوك بمجرد حضوره .. أن تخبره أن «بيت غزالة»
يريده في مسألة ضرورية .

ووضعت السماعة في يأس وضيق ، ولم تمض دقيقة واحدة
بل ماكدت أدير ظهري حتى دق التليفون ، ورفعت السماعة ،
فإذا بي أسمع صوته .. صوته هو الذى لا أميز من الأصوات
سواه .

وقال فى لهجة لا تخلو من الجفاف والحدة :

— ألو .. أنا أحمد .

ولم أشك فى أنه قد ميز صوتى ، ولكنى مع ذلك قلت له
بصوت أشبه بالهمس :

— أنا عايدة يا أحمد .

واستمر فى حديثه قائلاً باقتضاب :

— نعم ؟

ولم أغضب لجفافه فى الرد .. لأنى لم أكن أتوقع سوى
ذلك .. ولأنى كذلك كنت واثقة أن جفافه مصطنع .. وأنه
لاشك كلفه جهداً كبيراً .. وأن وراء بروده الكثير من
الدهش والكثير من الغبطة لحضورى المفاجئ ، ولحديثى معه
أو هذا على الأقل ما حاولت أن أفنع به نفسى ، لكى أتقبل
لهجته الجافة .

وأجبت في هجة رجاء :
— أريد أن أحدثك .
— فِيمَ ؟
— فيما حدث في الكابين ، .
— هذا الأمر لا يعنيني .
— لا تكن عنيداً .. دعني أشرح لك أولاً .. ثم اغضب
كما تشاء .

— من قال لك .. إنني غاضب ؟
— لأنك لم تذهب معنا إلى البيت .
— لقد قلت إنني على موعد للغداء .
— إذاً لماذا حضرت ؟ ! حضرت لكي تتمك بضع
دقائق ؟

— لقد كنت ماراً بالمصادفة .
— أحمد .. أرجوك .. لاتمعن في السخافة .. كفى ما فعلت
في الأسكندرية .

— ما فعلت أنا ؟ .. أنا الذي فعلت ؟
— أجل .. أنت الذي فعلت .. لم يكن هناك قط
ما يستدعي غضبك .
— أنا لست غاضباً .

— إن في صوتك ما ينم عن غضبك .
وهنا سمعت صوت « جدتي » تنادي من الطابق الأعلى
فأجبتها بأني قادمة . ثم قلت لأحمد :
— أرجوك أن تحضر .. ليس لدى وقت للشرح في
التليفون .. إني سأنتظرك .
ولم يجب عليّ .. فعدت أسأل :
— هل ستحضر ؟
— سأحاول .

ووضعت السماعة مكانها ، وصعدت إلى جدتي .
ولست أذكر فيما كانت تريدني جدتي .. أو لعلها طلبت
مني قضاء حاجة من حاجاتها التافهة التي لا تفرغ .
وكان رده سأحاول .. ردّاً غير قاطع .. فقد يحضر وقد
لا يحضر .. بل أغلب الظن أنه ربما ركب رأسه واتبع كبيرائه
وامتدح في الهجر .

واتابني خليط من الفلق والضيق ، والأمل واللهفة ..
وخطر لي أن أطلبه مرة أخرى .. وهبطت فعلاً إلى الدور
الأسفل .. وأنا أشاور نفسي : أخاطبه أم لا أخاطبه ؟
لو خاطبته فقد يزداد عناداً وإصراراً .. ولو لم أخاطبه فقد
يعلن في غضبه .

ثم ماذا أفعل سوى ذلك !! وهل من سبيل لإحضاره
غير مخاطبتي إياه ، ودعوته للحضور ؟
ودق جرس الباب ، وذهبت بنفسى لأرى من الطارق
فوجدته أمامى .

أجل . . وجدته هو . . الذى ادعى البرود وتصنع
الغضب . . لقد حضر إلى بعد بضع دقائق . . كأنما قد
هبط من السماء بالبراشوت .

وكان يبدو أغبر مشعثاً ، يرتدى الحذاء الطويل ، وعليه
بنطلون وقيص ، ولحت عربة صغيرة تقف بباب الحديقة . .
أغلب ظنى أنه قد استعارها من أحد زملائه للحضور بها .
ونظرت إلى وجهه ، فوجدت عليه مسحة غضب
مصطنع ، ورغم أنى قد فتحت له الباب ، إلا أنه استمر يقف
خارجة ، وقال لى بלהجة حادة :

— ماذا تريدین ؟

— ادخل .

— ليس لدى وقت .

— لا تكن طفلاً . . كف عن هذا العناد . . ادخل
ولاً أغلقت الباب .

ودخل يضرب الأرض بحديد كعب حذائه الضخم . .

ثم وقف في الصلاة واضعاً يديه في خصره وقال متحدياً :

— نعم

وابتسمت . . ثم شدته من يده واتجهنا إلى الشرفة وجلست قبالة .

والتقت عينانا ونحن صامتان فترة ليست بالقصيرة . . وأحسست بالهموم كلها تذوب بين عينينا . . وأخذت سحابة الغضب تنقشع عن وجهه رويداً رويداً . . ثم سمعت صوته يهمس في حنان :

— لم فعلت هذا ؟ لم سمحت لنفسك بالبقاء وسط هؤلاء الرقعاء ، ووسط الموسيقى الماجنة ، والرقص الخليع ؟
لني أرباباً بعينيك أن تنظر إليهم .

— كنت مكرهة . . فلقد هجم هو ورفاقه على الكاين ، واحتلوها احتلالاً خاطفاً . . فلم أستطع أن أطرده ، فهو ابن زكي باشا ، صديق أبي ، ورئيس الوزراء السابق . . ولم يكن في وسعي سوى أن أغادر الكاين . . وهممت فعلاً بأن أغادره في اللحظة التي حضرت فيها أنت . . لقد حدثت للمسألة كلها في بضعة دقائق . . كنت خلالها أشبه بالمذهولة .

— وما مدى علاقتك بابن زكي باشا هذا ؟

— تقصد ، تو تو ، ؟

— اسمه «توتو» أليس له اسم غير هذا؟

— له اسم شر من هذا... «تهاني».

— ما شاء الله، وما الذي جعله يحدثك هكذا بلا كلفة؟

— اسمع يا أحمد. لا تضيع وقتنا عبثاً. إنى أسمع لك
بالغيرة، فكل حب لا بد له أن يغار، ولكنى لن أسمع لك
خط أن تغار من مثل هذا الإنسان النافه. إنى أربأ بك أن
تقارن به نفسك، وأربأ بنفسى.. أن تغار على منه..
إنى لا أكن لأمثاله غير شعور واحد.. هو الاحتقار..
هل فهمت؟

ولم يتكلم.. بل رفع يدي إلى فمه ومسها بشفتيه في رفق
واستمر ملصقها بهما، وساد الصمت حتى بت أسمع صوت
أنفاسه تتلاحق وأحسن بدقتها.

وضغطت على يده، ووجدتني بلا تفكير أجذب يده
إلى فمي.. يده هو إلى فمي أنا.. ووضعت يدي في راحته
وأخذت أحركها يبطء.. مقبلة كفها قبلات صامتة.
وسمعتة يهمس:

— إنى آسف أ.

— أنا الـآسفة أ.

— على أية حال، لقد أخذت ما أستحق من عقاب .. لقد
مضى على يومان منذ أن لقيتك في الإسكندرية وأنا أشبه
بمحموم صرخته حى الغضب واليأس .

— يجب ألا يغضب أحدنا من الآخر .. يجب أن تثق
بأنفسنا إلى أبعد حدود الثقة ، فحرام أن نضيع العمر القصير في
أحزان مختلفة .

— ما ظننت قط أنك تؤثرين في نفسى بهذا القدر ..
وما ظننت أن لك فى قلبى مثل هذا المقام .. لقد عدت
بعد أن تركتك إلى المحطة .. وأخذت أول قطار عاد بي إلى
القاهرة . لم أكن مدعواً على الغداء — كما زعمت — ولكن
الغضب أطاش صوابى .. وصمت على أن أجهرك بعد أن
أبصرتك فى هذا الوسط الخالي وبين هؤلاء الرفقاء .. وتركت
العربة تذهب بك .. وأنا أتجلد على فراقك وأنصبر .. وكتمت
السهم فى كبدي .. فأوجعه وأدماه .. وملئت نفسى بالمرارة ،
وكرهت الدنيا ومن عليها .. كيف تفعلين بي كل هذا ؟
إذا رضيت عنك رضيت عنى الدنيا .. وإذا غضبت عليك
رضيت عليها .

لقد جلست فى القطار وأنا لا أحس بشيء مما حولى .
وحاولت جهدى أن أبعد عنى الوسواس ، وأن ألتص لك

الأعذار .. ولكن شيطان الشك كان يثقل علىّ وبكيل لك
التهم ويمحو الأعذار .. ويصورك لي وقد انهكت في الرقص
معهم ، ونسيتني وتطايّرت من رأسك ذكراى ، ونقضت العهود
والمواثيق .

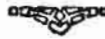
لقد كرهت أن أضحيّ لديك مجرد ذكرى باهتة ، وأن
تمحو الفرقة القصيرة أثرى من نفسك وتنسك نجوانا في
المعبد المقدس .. كنت أشعر أنى أعذب نفسي .. وأحطم
قلبي .. ويزداد عذابى عندما أعود فأقنع نفسي بطهارتك ..
وبشرط إيمانك بى وبجبي .. أحس بأنى قد ظلمتك .. وأنى قد
تركتك تتعذبين كما أتعذب ، وأنت قد تكونين راقدة فى
فراشك تبكين .

كنت أتمنى لو عاد بى القطار لكى أعود إليك وأجثو
تحت قدميك وأعتذر عن سوء ظنى ، ولكنى أعود مرة
أخرى فأذكر الموسيقى الراقصة وأذكر قول الفتى الما جن :
إنك تليذة مكسالة ، وقول أليك : إنه سيقصر أذنك ..
وعدت إلى القاهرة وأنا أحمل هموم الدنيا وشكوكها .

وذهبت إلى الدار ، وإلى العمل ، وكانى قد شيعت
إلى القبر عزيزاً لى ، وكنت أسير كأنى أحمل على ظهري
مائة عام من العذاب واليأس .. حتى أنبأنى عامل التليفون أن

• بيت خالى قد طلبنى ، .. وظننته أخاك فى مبدأ الأمر .. إذ لم
يخطر ببالى قط أنك قد عدت .. ولكن العامل أنبأنى بأن سيدة
هى التى تكلمت .

وأدركت القرص بيد مرتجفة .. فإذا بصوتك يجيبنى ..
وإذا بنشوة تسرى فى رأسى فتشملنى .. كنت أجيبك بغضب
رقلبي بتراقص ثملا .. وقلت لك عندما سألتنى الحضور أنى
سأحاوله .. ثم قفزت إلى أقرب عربة ، كما أنا ، تاركاً عملى دون
أن أستاذن فى الخروج .. غير عابىء بشيء ولا مقدر لمسؤولية
لقد كنت أتحرق شوقاً وأذوب وجداً .. كنت أريد أن
أراك وأخسر نصف عمرى .. أليس ذلك أهون من ألا أراك
ويذهب العمر كله سدى ؟





في انتظاريني

أنصت إلى أحمد . . وأنا أحس من حديثه بمتعة
هلاست عجيبة . عوّضتني عن سابق لوعتي خير عوض ،
وجعلتني أستعذب الألم الذي أعقبه ذلك العتاب اللذيذ . فقد كان
حديثه يفيض رقة ويسيل عذوبة ، وكنت أحس منه بحرارة
الإخلاص ، وفرط الحنين .

وددت لو طالت جلستنا إلى ما لا نهاية ، ولكن اللحظات
مرت بنا حثيثات عجلى . لقد كانت لحظات عجيبة ركز فيها من
المتعة ما لو فرقناه على العمر جميعه لكان العمر كله ممتعاً .
تمنيت وقتذاك لو وقف الزمن . . أو لو خرجنا عن نطاقه ففقد
سلطانه علينا ، وأصبحنا من الأشياء الخالدة مع الزمن كالجبال
والأنهار والكواكب والنجوم ، حتى لا تحين لنا فرقة ولا تحل
بنا نهاية .

ولكن الزمن لم يرحمنا . . بل دقت الساعة الواحدة . .
لتذكرنا بأننا ما زلنا بشراً ، وأتانا لم نصبح بعد كواكب
ولا نجومًا ، وأن على أن أتوقع عودة أبي ، وأن عليه أن يعود
إلى عمله ، ليعتذر عن غيبته المفاجئة .

لقد هبطت بنا دقة الساعة من سماء الأوهام إلى أرض

الواقع ، ونهضنا وقد صفت قلوبنا وسعدت نفوسنا ، وسألني
قبل أن ينصرف :

— أليس من الواجب أن أصعد للسلام على « نينه » ؟
وترددت برهة فلقد كنت أفضل أن ينصرف دون أن تعلم
جدتي ، ولكنني سمعتها تناديني ، ولم أجد بداً من أن أصعد
ويصعد معي .

ولقيته جدتي لقاء حاراً . . جعلني لا أندم على صعوده
لتحياتها ، وسألته :

— لمَ لم تحضر لزيارتنا في الإسكندرية ؟
— لم أستطع الحصول على أجازة طويلة .
— الحمد لله . إننا لم نتمكن هناك طويلاً . . فأنا أكره
الإسكندرية .

وخشيت أن يطول الحديث فأومأت لأحمد بإيماء خفيفة
برأسي حتى . . أذن في الخروج .
وودعته جدتي قائلة :

— لمَ لا تمكث لتتناول الغداء ؟
— عندي اليوم « نوبتجية » ، ولا بد أن أعود إلى الشكنات ،
لقد مررت بالدار مصادفة فوجدت النوافذ مفتوحة ، وأدركت
أنكم لا بد قد عدتم فحضرت لأقول لكم « حمد الله على السلامة » .

وبدا لي أن الجدة العزيزة لم تبتلع الكذبة بسهولة ، وإن كانت قد وافقت عليها ، وخيل إليّ أنها تعلم كل ما بيننا ، وأنها تعرف أني دعوته بالتليفون . على أية حال إنني لم أعد أخشاها منذ مرضي .. فقد أفلعت عن نصائح أبي تماماً ، وضربت بها عرض الحائط ، وتركت نفسها على سيجتها تغمرني بالحنان والتدليل ، وأضحت بطريقة غير مباشرة عوناً لي على حب « أحمد » ، ولم أشك في أنها تقر ميلِي إليه ، لأنها هي نفسها - كما سبق لي القول - كانت تميل إليه .

وانصرف « أحمد » ، وودعته حتى الباب ، وافقت معه على موعد اللقاء التادم .

وعدت إلى « جدتي » فجلست معها انتظاراً لأوبة أبي . وكان « أحمد » موضوع حديثنا . قالت جدتي :

— أحمد . ولد طيب ، وهادي . وابن حلال . ما رأيك

فيه يا عايدة؟

ونظرت إليها نظرة فاحصة ، ولم أحاول أن أجيب قبل أن أفهم ما وراء حديثها . ترى هل تستدرجني الجدة الماكرة ؟ وأجبتها بقلة اكتراث متسائلة :

— من حيث ؟

— كل شيء .. ألا يعجبك ؟

- لا بأس به .
 - أنا شخصياً أجدّه خير من يصلح لك .
 - لى أنا ؟
 - أجل !
 - من أى ناحية ؟
 - ناحية الزواج .
 وأطرقت برأسى . . وتصنعت الاستخفاف . . وإن كان
 حديثها قد صادف هوى فى نفسى . . وأحسست منه بمتعة
 كبرى .
 وعادت جدتى تسأل :
 - ألا تريه زوجاً صالحاً ؟
 - قد يكون . . ولكن الزواج لا يخطر لى ببال الآن . .
 إن وقته ما زال بعيداً .
 - لقد فضجت وأصبحت « ست بيت » . . لى تزوجت
 وأنا أصغر منك بخمسة أعوام على الأقل .
 - فى زمنك كان هذا معقولاً . أما الآن
 ودق جرس الباب ، وسمعت صوت أبى ، فكففنا عز
 الحديث ، وهبطت إلى الطابق الأسفل .

مضت بعد ذلك بضعة أيام قبل أن يحضر « احمد » مرة أخرى .. كان يداعب رأسي خلالها الأمل العذب والفكرة المعسولة .. وكنت أستعيد في نفسي بين آونة وأخرى قول جدتي : « لقد فضجت وأصبحت .. ست بيت .. »

لقد أخذ الحلم البعيد في التجسد شيئاً فشيئاً ، وخيل إليّ أن الأمانى التي كانت حلماً من أحلام الدجى .. توشك أن تصبح حقيقة .

أجل .. إننا نستطيع الآن التفكير جدياً في الزواج .. فكثيراً ما قلت لاحمد عند ما كنا نخوض سويّاً في هذا الموضوع إن أماننا زمناً طويلاً .. وكان ردى الدائم هو : « لسه بدرى .. »

كنت أظن دائماً أنه ما زال علينا أن ننتظر فهو لم يزل في رتبة صغيرة ، لا أظن راتبها - وهو اثنا عشر جنيهاً - يهيئ لنا عيشاً طيباً دون أن نلجأ إلى معاونة أحد .

كنت أريد أن نكون في حياتنا مستقلين ، نكفي أنفسنا دون ما حاجة إلى معاونة أبى ، وكان هو مفعماً بالأمل واثقاً من سرعة ترقّيه ، مطمئناً إلى المستقبل ، يعتقد أن توسع الجيش ، سيضمن له قفزات سريعة إلى الرتب العليا ، وكان يرى أنه لمن يلبث طويلاً حتى يرقى إلى رتبة « الملازم أول »

و . يوز باشى ، وحينئذ يستطيع أن يتقدم لخطبى .. بعد أن يكون قد ضمن لنفسه مرتباً يجعلنا نعيش فى رغد .

وقلت لنفسى إنه يستطيع التقدم لخطبى من الآن .. على ألا تزوج إلا حينما يحين الوقت المناسب .. حتى تتاح لنا فرصة أكبر للقاء .. وحتى أحرر نفسى من سياج الخوف الذى أحيط بها .. وأطلق مشاعرى بلا رهبة ولا خشية .. كنت أريد أن يصبح لكل منا بالآخر صلة واضحة .. تمكنا من التمتع بجنبنا .. ولا تجعلنا نتستر عليه أو نكتمه كأنه منكراً أو جريمة .

وصممت على أن أعرض عليه الأمر ، وأذكر له حديث جدتى فى أول لقاء .

وفى ذات غروب .. هبطت إلى الحديقة .. أستريح فيها وأنسلى بقطف بعض الزهور لتنسيقها فى الزهريات .. وكانت الأحواض كلها خالية استعداداً لموسم الشتاء .. إلا حوضاً كبيراً فى ركن الحديقة .. قد حشد بالدالية العالية الجروع الكبيرة الأزهار .. وخضت فى الحوض .. لى أتنقى بعض أنواع ياقوتية اللون رائعة المنظر .. ويبدو أن الحوض كان حديث العهد بالسقى فقد وجدت قدمى تغوص فى الطين فجأة .. وعند ما حاولت إخراجها خرجت عارية مجردة

وبقي الحذاء مدفوناً في الطين . . ووقفت على ساق واحدة -
الساق التي ما زالت مغروسة بجذائنها في الطين - رافعة الساق
العارية . كأنني « أبو قردان » . . ثم انحنيت بحذر لكي أنزع
« فردة الحذاء » المغروسة . . وكدت ألمسها عندما أحسست
بتوازني يختل فلم أجد بداً من أن أستند يدي على الأرض
حتى أحفظ توازني وغاصت يداي في الطين واضطرت أن
أهبط بقدمي العارية إلى الأرض حتى أستطيع تخليص يدي .
ونجأة أحسست بفراشة تهبط على وجهي فأسرعت بإزاحتها
ياحدى يدي الملوثة فتناثر الطين على وجهي .

فلم أر بداً من ترك الحذاء ، والعودة إلى البيت لغسل
قدمي ويدي ووجهي . . واستدرت لأعود ، فوجدت
« أحمد » قد وقف يرقبني ، وقد ارتسبت على وجهه ابتسامة
مريضة . وقال ضاحكاً :

- ما شاء الله . . منتهى النظافة والأناقة . أجمل بأمهات

المستقبل ! !

وتقدمت منه رافعة يدي في وجهه وقلت مهددة :

- تنح . . وإلا اضطرت إلى احتضانك وتقبيلك !

- ياربيت !

- ألا تخشى الطين ؟

- أبدأ . . . بطينه ولا غسيل البرك . .
 وأمضت في الاقتراب منه وأنا مادة يدي قائلة :
 - ها . . ابتعد خير لك . . وإلا لوئثت بدلتك !
 - أنجسرين ؟ . . ألا تعلين أن من يقطع زرار جندياً
 يحبس ستة أشهر . . فما بالك بضابط . . وأى ضابط . .
 ضابط قديم محترم . . برتبة « ملازم أول » .
 وظننته يمزح . . ولم أكن قد حاولت النظر إلى كتفيه ،
 ولكنني رفعت بصري إليهما . . فإذا بي أرى نجمة جديدة .
 وصحت في فرح شديد :
 - ما هذه ؟
 - « نجوم الضهر » !
 - لم لم تخبرني من قبل ؟
 - لأفاجئك بها . . لقد ظلمت أوجل زيارتي من يوم
 لآخر حتى لا تزينني بغير الرتبة الجديدة .
 وقلت مهنته من أعماق قلبي :
 - مبروك . . يا أحمد .
 - مبروك علي . . والا عليك ؟
 - علينا سوياً !
 وتذكرت ما صممت عليه من قبل ، وهو أن أطلب منه

التقدم إلى أبي لخطبتي ، ورأيت الظروف مواتية ، والفرصة
سائغة .

ومد ، أحمد ، يده فأمسك بيدي الملوثة بالطين ، وسحبني
بحواره .. وحاولت التخلص من يده قائلة :

-- دعني حتى أزيل هذا الوحل . وأعود إليك حالا !

— لا .. لا .. لا داعي لإضاعة الوقت . إن لدى

أخباراً سارة تستحق منك احتمال الطين حتى تسمعها .

ورفعت حاجبي وتساءلت :

— شيئاً غير الترقية ؟

— أجل .. شيئاً أفضل

ومرت بخاطري فكرة الخطبة .. ولم أشك أنه بنوى
أن يفتحنى فيها .

وجلست بحواره على مقعد الحديقة .. حافية القدمين ..

ملوثة اليدين والوجه .. ورفعت وجهي متسائلة :

— ماذا عندك ؟

— سأنال شيئاً أفضل من الترقية .

وازداد دهشى وعدت أكرر قوله :

— شيئاً أفضل من الترقية ؟ .. ما هو ؟

— سأنقل إلى الحرس .

— حقاً؟ ...

— أجل .. لقد استدعاني القائد في مكتبه ، وأنبأني
أنه أبلغ أني قد انتدبت للخدمة في الحرس « الملكي » وهنأني ،
وطلب مني أن أقدم نفسي لقائد الحرس غداً .
وشرد ذهني .. وعادت فكرة الخطبة تلح عليّ ..
وأحسست أني أوشك أن أجن من الفرح .
وعاد هو يقول :

— هل تعرفين معنى أن أنقل إلى الحرس ؟
ولكنني هزرت رأسي متسائلة :
— كلا !

وأجاب هو على سؤاله :
— معناه أني أستطيع أن أحقق أحب أمنية إلى نفسي ..
أستطيع أن أتقدم لخطبتك بقلب قوى غير هباب ولا وجل ،
لقد أصبحت ضابطاً في الحرس « الملكي » . وسيتضاعف
مرتبي ونستطيع به أن ننشئ بيتاً ونحيا حياة هائلة ..
ألا تعتقدين أن خمسة وعشرين جنياً كفيلة بسد حاجتنا ؟
وكانت نفسي تفيض بالحمد والشكر .. كيف لا وقد
أكرمنا القدر إلى أبعد حدود الكرم ! لقد حقق آمالي
بأسرع مما كنت أتصور .

كنت في الظهيرة أسمع حديث جدتي عن الزواج فأحس أنه أمنية صعبة المنال وحلم بعيد التحقيق . . كنت أحس أنه - كما تعودت أن أقول - « لسه بدرى . . » وكنت أمني نفسي بخطبة عاجلة ، وزواج مؤجل ، وأن ننظر حتى يرقى إلى رتبة اليوزباشى .

أما الآن وفي غمضة عين ، فقد أصبحت مآربنا ملء يدينا ولم يعد الزواج أمراً بعيداً . . أو أمنية صعبة ، ولم يعد بنا من حاجة إلى التعلل بالخطبة . ونظرت إلى يدي وقلت له :

— دقيقة واحدة أغسل فيها يدي وقدمي ، فإنى لا أطيق الجلوس بمثل هذه القذارة !

— دعيني أتولى غسلها عنك . امنحيني هذه المتعة . دعينا نحتق بترقتي بغسل يديك على هذا الحوض . سيرى بنا .

وجذبني من يدي إلى حوض قريب وأجلسني على حافته وفتح الصنبور ، وبدأ يغسل يدي ، وبلل منديله بالماء وأخذ في تنظيف وجهي ، ثم مددت ساق أمهفل الصنبور ، واستمر هو يغسل قدمي بأصابعه مزبلا عنها ما علق بها من الطين ، فلما انتهى من غسلها بدأ في عملية « زغزغة » وأنا لا أضحكى شيئا « كزغزغة » باطن قدمي . وانطلقت أضحك وأرفس

بقدمي وأحاول نزعها من يده وأنا جالسة على حافة الحوض .
ونجاة سمعت صوت أبي ، وقد وقف في نهاية الممر الذي
به الحوض ، وقد تجهم وجهه وتساءل في دهشة :

— ما هذا العيب ؟

ولم أكن أتوقع قط أنى أراه وقتئذ ، فقد كان لا يعود
إلى البيت في مثل هذا الصباح المبكر ، وأحسست من مرآه
كان دشاً بارداً ، قد صب فوق رأسي في يوم قرّ ،
وتملكني خجل شديد . وارتج عليّ ، فلم أنبس بينت شفة .
ولم يكن ارتباك أحمد ، ومفاجأته . بأقل مني ، ولكنه
سرعان ما تمالك نفسه واستعاد رباطته . ونهض واقفاً وتقدم
إلى أبي مصافحاً إياه .

ورد أبي على تحيته في اقتضاب ، ثم وجه القول إلى :
— زكى باشا سيزورنا الآن هو وابنته . . استعدى
للقائهما .

ولم يقل أكثر من ذلك ، ثم أدار ظهره ودلف إلى الدار .
ولم يكن المنظر الذي وجدنا فيه أبي بالمنظر الذي يستدعي
كل هذا الخجل والارتباك . . فقد كان لا يزيد على أن يكون
لهواً بريئاً . ولكنني كنت أعلم أن أبي لا يستسيغ بسهولة
مثل هذا اللهو . . وإني لاشك سألتني من لومه وتقريع

الشيء الكثير .. وقد تكون نتيجه تضيق الحناق على ..
وخاصة من ناحية أحمد .

وأحسست بسحابة غم .. تعتم نفسي .. ولكنها سرعان
ما انقشعت عندما تذكرت ترقية أحمد ونقله إلى الحرس ..
وإقدامه العاجل على خطبتي .

لو ضبطني أبي قبل اليوم لرأيت في ذلك فاجعة كبرى ..
أما اليوم فإن آمالي في المستقبل أضحت كفيلة بأن تجرف
في تيارها كل عقبة هم . وكان فرحي طاغياً .. يتضاءل بمجواره
كل حزن وغم .

ووقفت أمام أحمد بعد أن انصرف أبي إلى داخل الدار
وقد أفعمت نفسي بخليط من مشاعر مختلفة .. وأبصرت
في وجهه سحابة هم .. لم أشك في أن مبعثها .. هو زيارة
زكي باشا التي أنبأت بها أبي .

ومددت يدي أشد بها على يده وأقول له في ثقة وإيمان :
— أحمد .. لا تدع هذه الحشائش الطفيلية تفسد علينا
زهور حياتنا .. ما دمنا واثقين من أنفسنا .. فدع الرياح تمر
من فوق رؤوسنا .. دون أن تقتلع جذور هوائنا .

وسرنا سوياً حتى باب الحديقة وقلت في شبه مجاملة :
ألا تبقى قليلاً ؟

— لا .. إني أفضل الانصراف الآن .
— ومتى ستعود ؟
— سأعود غداً لمقابلته .. أى الأوقات أنسب للحضور
— تعال فى الخامسة .. بعد أن يستيقظ من نومه ..
وقبل أن يخرج .. أظن هذا هو أنسب وقت .
واتجه أحمد إلى الخارج ودلفت إلى الداخل .. وصعدت
إلى حجرتى لأبدل ملابسى ولأستعد للقاء الضيوف .
وساءلت نفسى فى دهش : ماذا حدا بهم إلى هذه الزيارة ؟
بل ماذا دفعهم إلى الحضور إلى مصر .. مع أنى كنت أتوقع
أنهم مازالوا فى الإسكندرية ؟
وأتممت ارتداء ملابسى .. ورأسى صاحب بشق
الأفكار .. وفى نفسى فرحة ظاهرة .. وخوف خفى ..
وأمل واضح .. وبأس مهم .
وسمعت صوت عربة تقف بالباب .. ودق الجرس ،
فهبطت لاستقبال الضيوف .
وفتحت الباب وأضأت الأنوار ، ووقفت وأبى متاهبين
للترحيب .. وأقبل « صاحب الدولة » من نسختين .. النسخة
الرجالى .. والنسخة البنائى — أعنى هو وابنته — وحمد الله
على أن « توتو بك » لم يكن معهما .
وجلسنا فى حجرة الاستقبال .. وجرى الحديث بيننا

تافهاً مملاً . . وتحدث أبى مع ، صاحب الدولة ، عن أسعار
البورصة ، والقطن ، والحرب القادمة ، وعن موقف تشمبرلين
مع هتلر ، وعن نجاحه فى إقرار السلم المؤقت .

وانطلقت « سوسو » تخوض فى سير الناس ، فلم تترك
امراً إلا نهشتها بلسانها . . فأبأتى أن ابنة فلان باشا ذهبت
إلى النمسا ووقعت فى غرام أحد الموسيقيين ، وأن زوجة
الوجيه فلان بك تخونه مع صديقه فلان باشا .

ثم انتقلت من النهش فى أعراض الناس إلى أخبار السباق
والجوكية والأزياء . . إلى الفرقة الفرنسية التى ستعمل فى
الأوبرا فى العام القادم . . وتساءلت : لم لا تحضر عشرات
الفرق الأجنبية حتى ترقى الذوق المصرى وتهذب ؟

وأحسست من حديثها باشمزاز شديد ، وقلت لها بهدوء :
— إن الذوق المصرى له طابعه .

— طابع مشوه فاسد .

— أنت مصرية ؟

فأجابت وكأنها تنفى عن نفسها تهمة :

— أنا لست مصرية . . إن جدى لأبى ينحدر من سلالة

تركية عريقة الأصل .

— ألاجل هذا تكرهين المصريين ؟

— أنا لا أكرههم .. ولكنى أرثى لهم .
وتواترت على ذهنى إجابات مختلفة هممت بأن أقذفها بها
ولكنى تذكرت أبى وتذكرت أنهم ضيوف عندنا .
وقلت محاولة تغيير مجرى الحديث :
— الحرارة شديدة فى هذا الصيف .
— وكل صيف .. إن مصر لا تطاق .
وشعرت أنى لا أستطيع تحويلها عن التعريض بمصر ،
فقلت متسائلة فى سخرية :

— وما الذى يبقيك فى مصر ؟
— لولا تلبد الجو السياسى لكننا فى الخارج ككل عام ،
ولولا بضعة الأشهر التى نقضيها فى الخارج كل عام .. لما
أحسننا أننا نحيا .. نحن هنا فى بلد الأموات ، بلد المقابر
والموميات .. أليست هذه من أكبر مفاخرنا ؟
ولم يمكنى نهوض أبىها واستعداده للخروج من الرد
عليها .. وانهمكنا فى التحيات .. وفى الترحيبات ، وخرجنا
لوداعهما .. حتى استقلا العربة .. وتحركت بهما .. وهما
يشيران لنا بأيديهما .

وحمدت الله على انتهاء الزيارة .. فقد كنت فى أشد الحاجة
إلى الهدوء والراحة ، وإلى أن أخلو بنفسى .. فأفكر فى

الآشياء التي حفل بها يومي ، والأحداث الخطيرة التي توشك
أن تقع في الغد .
ترى ماذا يكون رد أبي ؟ هل يمكن أن يخيب أملنا ؟ هل
يمكن أن يرفض ؟

ولكن .. أى عيب يمكن أن يجده في أحمد ؟ هذا المخلوق
النموذجي . هذا الإنسان الكامل ، الجميل الخلق والخلق ،
الطيب الظاهر والباطن ، الحلو الحديث ، اللطيف المعشر ،
القيوم المبادئ ، المستقيم السلوك ، المجد في عمله ، المخلص
في كل تصرفاته . إنسان ذو المركز المشرف والمرتبة المحترمة ،
وهو بعد كل هذا أقرب الناس إليّ . . فهو ابن خالتي ،
وصديق أخى .

لا .. لا .. لا أظن أبى إلا مرحباً به ، بجنباً له بلبه .
إن أبى رجل صارم قاس . . فهو يقسو علىّ حتى يضمن
لى حسن المصير وطيب المآل . وأى مصير يمكن أن يكون لى
أحسن من زواجى بأحمد ؟ إن صرامته وقسوته فى معاملتى
وتربى . . كان يقصد بهما أن يقينى الفساد ، ولا أظن الزواج
من الفساد فى شىء .

وهكذا استطعت أن أطمئن نفسى وأهدى قلبى .
وذويت إلى الفراش ، وأغمضت عيني ، ونمت قريرة .

واستيقظت في الصباح وقد خطر لي خاطر .
لَمْ لَا نحاول أن نستعين بمحدثي . . ولم لَا أخبر أحمد بما
قالتة حتى يوسطها لذي أبي .
ومضى النهار وأنا حائرة قلقة ، ولا أكذبكم القول أني
صليت لله لكي يستجيب طلبي . وكنت أنظر إلى الساعة بين
آونة وأخرى أستحها على السير حتى تبلغ الخامسة . وازدردت
غداً أن أتذوق له طعاما .
وفي الخامسة إلا ربعا . . دق الجرس ، وهبطت لأفتح
بنفسي ، فقد كنت واثقة من أن الطارق هو أحمد .
ولقيته وأنا في حالة شديدة من الاضطراب والقلق . وقلت
له هامة : اعرض الامر على جدتي ، ولكنه أجاب :
— دعيني أسلك أقصر السبل . لا داعي للقف ، ولا للوساطة .
سأخاطبه كرجل لرجل . أنا لم أعد بعد صغيراً . ما دمت ترينني
أستحقك وأستحق حبك . فإن ذلك يملؤني ثقة بنفسى
واعتماداً بقدرى .
— أمرك يا أحمد . ربنا يوفقك . إنى أحس بقلق شديد :
لقد صليت لله ألا يخذلنا ، وقرأت الفاتحة مائة مرة .
وضحك أحمد وشد على يدي . وهمس :
— اطمئني يا عايدو . أين هو ؟

— إنه يرتدى ملابسه وسيهبط حالا .. سأصعد أنا إلى
غرفتي حتى أبدو كأنى لا أعرف شيئاً عما أتيت من أجله ..
انتظره هنا حتى يهبط .

انتظر أحمد فى الصالة ، وصعدت إلى الطابق الأعلى ، وقلبي
يدق بعنف حتى ليكاد يقفز من بين أضلعي .

وسألتنى جدتى :

— من ؟

— أحمد .

— ولم تركبته وحده ؟

— إنه يريد أبى .

— يريد أباك ؟ لماذا ؟

ورفعت كفتى قليلا وأجبت متجاهلة :

— لا أدري .. لم يقل لى شيئاً .

ولم تنطل تلك الا كذوبة على جدتى . فقد كانت هى نفسها

تدري ، لأنها هزت رأسها وتمتمت فى صوت خافت :

— ربنا يوفقه .. ويجعل لكل منكم نصيباً فى الآخر .

واذعيت أنى لم أسمع ، واتجهت إلى حجرتى ، وخرجت

إلى الشرفة ثم عدت إليها ، وارتيمت على الفراش ، ثم نهضت

بعد لحظة وعدت ثانية إلى الشرفة .. لقد كنت على حال

من القلق لا أستطيع معها أن أستقر في مكان .
وسمعت بعد ذلك وقع أقدام أبي تهبط الدرج إلى الطابق
الأسفل ، وزادت دقات قلبي عنفاً . . ثم سمعت صوت أبي /
يحياه قائلاً :

— أهلاً .. أحمد .. أنت هنا .. كيف الحال ؟
— الحمد لله يا عمي .
— أرى على كتفك نجمتين .. مبروك .. لقد ترقيت
بسرعة . منذ متى ترقيت ؟
— الله يبارك فيك .. ترقيت بالأمس فقط .
— عال .. عال .
وسادت فترة صمت قصيرة كنت أحس فيها مدى ارتباطك
أحمد . . وأدعو الله أن يعينه . وأخيراً سمعته يقول :
— إني أود أن أحدثك يا عمي في موضوع خاص ..
أسمح لي ؟
— بالطبع .. إني على موعد الآن .. ولكنني أستطيع أن
أستمع إليك برهة .. تعال .
وسمعت وقع أقدامهما يبتعد ، وبدأ لي أنهما قد اتجاها إلى
حجرة الصالون .
ولم أعد أسمع شيئاً ، وأحسست كأنني أنقلب على جبر

الغضا من فرط القلق والاضطراب وتوتر الأعصاب .
وأخيراً سمعت وقع أقدامها مرة أخرى يسيران في
الصالة .. ثم يتجهان إلى الباب الخارجى ويهبطان الدرج ،
وأسرعت إلى الشرفة فوقفت يبابها ولحت ظهرهما وهما
يتجهان إلى العربة ، ثم ركب أبى بعد أن تصاخفا ، ورأيت أحمد
يسير في طريقه والعربة تتحرك في طريقها .

ترى ماذا حدث ؟ . كيف كانت النتيجة ؟

وظللت أتبع أحمد يبصرى وهو يتتعد .. أحاول أن أقرأ
من مشيته ومن هيكله ما أستشف منه دخيلة نفسه .. وأعرف
منه مقدار فرحه أو يأسه .

أفى مشيته تناقل ؟ . وفى خطواته تباطؤ ؟ .. أفى كتفيه
تهدل ، وفى ظهره انحناء ؟ أفى رأسه طأأة .. وفى هامته
خفض ؟

ماذا قد حوى هيكله المتبعد : أهناء وأمل ، أم شقاء
ويأس ؟

لأن مشيته هى .. مرفوع الهامة ثابت الخطى .
وهيكله هو هو .. بارز الصدر ، مشوق القوام .
أيمكن أن تكون هذه المشية المترنة ، والهيكل الأشم ،
للإنسان خائب الأمل ، مهبط الجناح ؟

لا .. لا . إن أبي لاشك قد أجابه إلى مطلبه .. وإن أمنية
العمر لا بد أن تكون قد تحققت ،
ولكن لم لم يصعد إلى لينبئني ويحتضني ويرف إلى
الشرى ؟

لعله قد خجل من أبي .. أو قد فضل أن يجعل تصرفه
رسمياً ، وأن ينتظر حتى ينبئني أبي ،
بالي من حمقاء .. لقد جرى العرف في هذه الأمور بأن
يوافق الأب مبدئياً .. على أن يوجل البت حتى يأخذ رأي
الابنة .

أجل .. إن أبي لابد سيعرض على الموضوع ويأخذ
رأى فيه .

حقيقة إنى أعرف أنى لا رأى لى عنده ، ولكنى أظن
أنه سيأخذ رأى من باب الشكليات ، وإن كان سيقدر أولاً
مصيرى فيما بينه وبين نفسه .. ثم يتركنى أختار كعادته دائماً
على أن أختار .. ما يريد هو ، وإلا أرغنى عليه .. هذا هو
ما تعود أن يفعله فى كل شىء ، فمن الأولى أن يفعله فى مسألة
خطيرة كهذه .

إنه سيعود ليلاً كعادته ، ثم يتناول العشاء ويقول لى إنه
يود أن يتحدثنى فى أمر هام ثم يبدأ بالمقدمات الطيبة وهى

انى قد نموت ونضجت ، وأنه يود أن يفرح بى ويطمئن على
وأن سعادة الفتاة تتوقف على أن تجد الزوج الملائم .
تلك هى المقدمة التى لا بد أنه قائلها .

وأخذت أصورّ لنفسى بعد ذلك . . كل ما سيقوله
كلمة كلمة . . وحرّفاً جرفاً . . وكل ما سيبألى عنه . .
وأجيبه به .

ثم يهرج بعد ذلك إلى الموضوع مباشرة فيخبرنى أن
أحمد ، قد طلب منه يدى ، وهو يرى فى أحمد خير إنسان
يصلح لى ، ويحدثنى عن رأيه فى خلقه ، وينبئنى أنه قد عين
ضابطاً بالحرس ، وينتهى إلى النتيجة بأنه شخصياً موافق على
قبوله ، ولكن يترك لى حق الاختيار .

وأطأطأ أنا الرأس خجلاً ، وأرتبك وأتلعثم . . ثم أقول
له كما تعودت أن أقول دائماً :

— أمرك يا أبى .

وسيجيبنى كعادته :

— على خيرة الله .

ثم ينهض ويقبّل جبينى .

واعجباً ! أية فنانة ماهرة كنت إذ ذاك وأنا أجلس على
براشى ، وأصورّ لنفسى كل تلك التفاصيل والدقائق وأرسمها

حسبما أشتهى فأنال بها أمني وأنتهى منها إلى أنى قد أصبحت
فعلا خطيبة أحمد .

وأفقت من أوهامى راضية .. مغتبطة .. تماماً كأن
ما صورته قد حدث .

ولكنى عدت أسائل نفسى :

— لم لم يحاول أحمد العودة لإخبارى ؟ ياله من أناى ،
يا بى إلا أن يخص نفسه بالغبطة .

ألم يكن من الواجب عليه .. على الأقل .. أن يحدثنى
بالتليفون ليطمئن قلبى ؟

من يدرى ربما سيتحدث بين آونة وأخرى .

ولبثت أرقب التليفون ، وأعدو إليه كبادق ، ويبعدو
أنى لم أستطع أن أخفى قلقى واضطرابى .. فقد سمعت بجذبتى
تنادىنى ، ثم تأمرنى بالجلوس إلى جوارها وتضمنى إليها ،
وتتحنس رأسى بحنان ثم تقول لى :

— يا بنيتى .. لا تأمنى إلى القدر .. كونى قوية وشجاعة ،
هوذى نفسك الرضا بالواقع واقبلى مانعطين ، لا تكثرى من
الآمال ، فوظيفة القدر هى أن يخيب آمالنا .. حاولى ألا تعطيه
الفرصة للشهامة .. لا تطلبى شيئاً ، بل انتظرى حتى يعطيك هو
وابتنسى شاكرة حتى تخيى أمله بدل أن يخيب هو أملك .



قیدِ قتل

۱۰

الكثير من حديث جدتي المتشائم وتحذيرها
لم أفهم من القدر الشامت والآمال الخائبة ، فما كان
لدى أقل استعداد لقبولها . . أو التفكير فيها .

كيف تنصحنى الآن . . وآمالى توشك أن تتحقق ؟
ساعة ، أو جزءاً من ساعة ، ويأتى أبى فيقطع الشك
باليقين ، ويجعل من الأحلام حقائق واقعة ، ومن الآمال
وقائع ملموسة محسوسة .

بل ما أظن أبى من حاجة إلى الانتظار ، فقد سمعت فى تلك
اللحظة صوت بوق عربتنا يدوى من بعيد ، وكانت نفسى
معهزة لالتقاطه ، وكنت مرهفة السمع متوثبة الأعصاب .
وأغلق باب العربة ، ثم دق جرس الباب ، وجلست فى
مكاني لحظة . . خافقة القلب ، واجفة الفؤاد ، ثم سمعت وقع
أقدام أبى يصعد فى الدرج ، وأقبل علينا على غير عادته ، وبه
لحفة غير خافية ، وقد علت وجهه بشاشة لم تتعدها فيه .

وكان يحمل فى يده صندوقاً من « الشيكولاتة » وضعه على
المنضدة ، وأخذ يسأل جدتي عن « أسنانها » وعن صحتها ،
وانتظرت أن يطلب تجهيز العشاء ولكنه لم يذكره ، بل استمر
يخوض فى أحاديث عابرة تافهة جعلتنى أوجس خيفة وقلت له :

— أ أمر بتجهيز العشاء ؟

لقد كنت أبنى أن يسير الأمر حسب ما تخيلت ..
وأن يتم عشاءه ، ثم يحدثنى فى الأمر الهام
ولكنه هز رأسه وأجاب :

— ليس الآن .

وتمنيت لو استطعت أن أخترق حجاب رأسه أو لو كانت
لدى المرأة الكامنة لأسأله صراحة .. ماذا قلت لأحمد ؟
ومضت فترة خلتها دهرأ .. وهو يتحدث عن مسائل
غاية فى التفاهة ، أو هكذا بدت لى بالنسبة لما كان يشغل
رأسى ، حتى بلغ بى اليأس منتهاه ، واعتقدت والاسمى يملأ
نفسى بأنه لابد قد رد أحمد خائباً ، وأنه لا ينوى أن يذكر
شيئاً عن الموضوع .

رهممت بمغادرة الحجرة .. عندما رأيته يرفع إلى رأسه
ويقول :

— عايدته .. لى عندك بعض الحديث .

وأصابتنى رجفة هزتنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى ..
وتوقفت فى مكافئ والتفت إليه وأنا لا أكاد أتمالك وقلت :

— نعم ...

— اجلسى ...

وجلس على مقعد أمامه ، وقد اضطجعت جدتي على أريكة طويلة ، وجلس هو على حافة مقعد وقد استند برفقه على ركبته ، وبذقنه على راحة كفه .

وبدا قوله في صوت هادئ وهجّة مرتبة :
— لقد أصبحت الآن فتاة كاملة ، وقد أثمرت فيك تريتي . . حتى بت أشعر بالاعزاز بك .
وأخيراً . . تحدث .

أخيراً . . بدأ مقدمته ، تماماً كما توقعت ، نفس الكلام الذي صغته لنفسى .

وكما تصوّرت أيضاً . . أطرقت برأسي في خجل شديد وأحسست بلساني يعقد . . فلم أنبس ببنت شفة .
ولم أع من مقدمته شيئاً كثيراً . . فقد كنت أنعجل النهاية ، وأستبق بفكرى ألفاظه ، وتمنيت لو يوفر على نفسه مشقة المقدمة ، ما دمت أنا نفسى أحفظها عن ظهر قلب .

النهاية . . لقد اجتزناها بسلام . . وسمته يقول أخيراً :
— ولقد كنت دائماً أتوقع لك وأنت خير الفتيات . .
زوجاً ملائماً يضمن لك أحسن العيش ويجعلك سيدة الناس .
وصمت برهة اضطجع خلالها بظهره على ظهر المقعد وغير من جلسته فوضع ساقاً على ساق . . وأتم حديثه قائلاً :

— ولقد وفقني الله إلى إنسان لا أعتقد أننا يمكن
أن نطمع في خير منه .

وقلت لنفسى :

— أجل . . ليس هناك في الدنيا خيراً منه .

واستمر هو يقول :

— وأنا نفسى موافق عليه . ولكنى رأيت قبل أن أعطى
كلمة حازمة أن أستشيرك في الأمر ، وأعرضه عليك حتى أضمن
أنك قريرة راضية ،

وكدت أقول له إنى راضية كل الرضا ، بل إنه لا يرضينى
في الحياة سواء .

ولكن الحياء ورهبة الموقف عقدا لسانى ، فاستمررت
مطرقة الرأس ، مطبقة الشفتين ، منتظرة حتى يكمل حديثه
أو يشرح لى ما حدث بينهما .

وبدأ شرحه قائلاً :

— لقد حدثنى اليوم زكى باشا فى التليفون وأنبأنى أنه
سيحضر لزيارتى فى المكتب بعد الظهر ، لأمر خاص ، ولم
يغب عن ذهنى ما يعنيه بذلك الأمر الخاص ، فقد لمح لى به
مرة من قبل .

ورفعت عيني أحقق فيه فى ذهول شديد .

ذكى باشا ١١ ما دخله فى الأمر .. وما الذى أقحمه
فى الموضوع ؟

واستمر أبى فى حديثه وهو يهز ساقه بهدوء :

— وفى الساعة السادسة .. حضر إلى مكنتى ، وأنبأنى
بعد مقدمة قصيرة أنه طالما أعجب بى وبعضاميتى ، وأنه
يشرفه أن يناسبنى .. وأنه من المرات القلائل اللاتى أبصرك
فيها .. استطاع أن يجزم أنك فتاة كاملة .. هادئة الطبع ،
جميلة الخلق ، طيبة النفس .. فضلاً عن جمالك الذى لا يضارع
وأنه من بين كل من رأى من بنات معارفه وأصدقائه
وأقاربه لم ير خيراً منك ولا أصليح ، وأنه يسره جداً أن
يطلب يدك لابنه ، واستمر الباشا فى مديحه حتى أخجلنى ..
ولم أجد ما أقول له سوى أننا لسنا قد المقام ، وأنه يشرفنا
بطلبه وبمنسبه .

والتقى على أبى نظرة فاحصة يستشف بها دخيلة نفسى .
ولا أظننى فى حاجة إلى أن أشرح دخيلة نفسى
وقتذاك .. ماذا أقول ؟ .. وقد كنت أشبه بإنسان رفعوه
إلى هام السحب ، ثم تركوه يهوى إلى قرارة الأرض
فتناثر حطاماً .

لقد كنت فى حالة لا تساعدنى حتى على الألم .. كنت

مشدوهة مذهولة أحس كأنى واقعة تحت تأثير كابوس
مخيف ، وأن ما حولى ايس من الواقع فى شىء .
وأدهش أبى ما أصابنى من وجوم وإطراق ، واستمر
يتم حديثه قائلاً :

— إتنا لم نكن نحلم قط بمثل هذا النسب ، ولا أظننا
نطمع فى أفضل منه ، بل ما أظن أن هناك أفضل منه ، طيبة
أصل ، وعراقة متحد ، ومال وجاه وسلطان ، وشباب نضر
ومستقبل مزدهر . . إن « تهاى بك » أمامه مستقبل حافل ،
أمامه الالتحاق بالسلك السياسى ، وأمامه الحياة النياية ،
والمناصب الوزارية . . غداً يسلك طريق آبيه ، فالمناصب
العليا شبه وراثية ، و « زكى باشا » يحتمل أن يعود إلى الحكم
فى أول انقلاب يحدث ، فإن الصحف تجمع على أنه رجل
الساعة . . .

* * *

أى سخف يهذى به هذا الآب الآبله ؟ ماذا يهمنى أنا من
عودة « زكى باشا » إلى الحكم ؟ أى مستقبل حافل ينتظر
ابنه التافه الذى لا يصلح لشىء ؟ أى سلك سياسى هذا الذى
يرجون فيه بهؤلاء الرقعاء ، الذين ايس لديهم ذرة من الإيمان

يبلدهم ؟! وأى مناصب نيابية ، وأى مراكز رفيعة يضعون
فيها هذه الأصنام المسوخة ؟

مالى أنا وماله ؟! ليكن من . يكون ، وليعد أبوه إلى
رئاسة الوزارة ، أو ليذهب إلى الجحيم .

إنى أريد أحمد .. ماذا فعل معه ، وماذا قال له ؟

ووصل إلى صوت الأب كأنه صوت ناع يأتى من

جوف قبر :

— لقد وفقنا الله إلى خير نسب . . . إنى شخصياً جد

موافق . ما رأيك أنت ؟

ووجدت صوتى ينبعث متحسراً فى صدرى ، بالرد

التقليدى الذى لا أملك غيره ، وكأن إنساناً غريباً هو

الذى يتحدث :

— أمرك يا أبى .

ووصل إلى رده الأخير . . تماماً كما توقعت :

— على خيرة الله .

ثم نهض فطبع على جبينى قبلة شكلية ، وغادر الغرفة .

يا للسخرية !! لقد بدا لى أن القدر يفرغ فاه على آخره

ويقيم ساعراً ، وتذكرت قول جدتى : لا تكثرى من الآمال

فوظيفة القدر هى أن يخيب آمالنا ، فحاولى ألا تعطيه الفرصة

للشامة بك .. لا تطلبي شيئاً .. انتظري حتى يعطيك هو
وابتسمي شاكرة حتى تخبي أمله ، بدل أن يخيب هو أملك ، .
كيف أستطيع ؟

كيف يمكن أن آخذ ما أعطى ، وأبتسم شاكرة ؟ كيف
يمكنني أن أرضى بذلك الزبد الذاهب جفاء ؟ كيف يمكنني
أن أستبدل بجمال الجوهر زيف القشور ، وبالليث فأراً ،
وبالغدير الصافي مستنقماً قندراً !!

كيف يمكنني أن أعيش مع هذا التافه ، الفارغ الرأس ،
الخواوي النفس ؟ كيف يمكنني أن أعيش بلا أحمد ؟
وسمعت صوت جدتي تتمتم قائلة :

— أيها الأحق .. ستودي بها إلى دهير أمها .. إن
ذنها في عنقك .

ونظرت إليها فوجدت وجهها شاحباً متجهماً ، وبداء
صدرها أقرب ملجأ ألوذ به ، فارتيمت بين أحضانها واندفعت
في نوبة من البكاء .

وبعد برهة سمعت صوت أبي يناديني للعشاء ، وكان
صبراً على أن أنمالك ، وأن أخفي مشاعري ، فهمست لجدتي
وبالبكاء يخفني :

— قولي له إنها ذهبت لتنام ، لأنها تحس صداعاً .

وربتت جديتي على ظهري وأجابت بحنان :
— اذهبي إلى فراشك .. كفكفي دمعك ، وتجلدي .
ذلك هو كل ما قلته لجديتي وقالته لي . . لم نتحدث
بأكثر من ذلك ، ولكني لم أشك في أنها تدرك كل
مشاعري وتفهم كل ما بي .
ولكن ماذا في وسعها أن تفعل ؟
أنا أعرف أبي . . كما تعرفه هي ، ويعرف كلانا أنه
لا فائدة هناك من مناقشته .

ثم أتى لا أجسر أن أقول إني لا أريد فلاناً لأنني أحب
فلاناً . . إني لا أجرؤ قط أن أقول إني أحب . . حتى جديتي
نفسها لم تصرح لها بشيء . بل فهمت كل شيء من تلقاء
نفسها ، ولم تحاول مرة واحدة أن تبحرني بالسؤال
أو النقاش أو الخوض في مشاعري نحو أحمد .
لقد كنت أستطيع أن أتحمل كل شيء إلا أن أقول
لأبي إني أحب .

وفكرت في أخي . . وقلت إن علياً صديق لأحمد . .
ويستطيع أن يفهم إحساساتنا بسهولة .
ولكن ما الفائدة ؟ ما دام لن يستطيع التأثير على أبي ؟
لقد كنت أحس أن بين الاثنين هوة عميقة . . وأنهما على

اختلاف بين في كل شيء . . ليس بين أحدهما والآخر
أى تشابه في المشارب أو تقارب في الأهواء . . كان أخى
إنساناً عاطفياً رقيقاً ، مرهف الحس ، وكان أنى لا يعترف
إلا بالمذهب المادى ، ولا يقدر إلا الشيء الذى يستطيع
أن يمسكه بيده . . ولا يفهم إلا أن الحياة المال ، والمال
الحياة ، وأن النقود هى كل شيء . . هى التى ترفع إلى
السماوات السبع . . أما سواها فأوهام باطلة .

إن أخى سيفهمنى كما فهمتني جدتى ، وكما يمكن أن يفهمنى
أى إنسان له قلب لم يقدر من صخر . . إنسان يدرك أن فى
الحياة أشياء غير المادة الملموسة ، وأن الجسد البشرى يغذيه
شيء غير الماء والطعام والهواء . . شيء يسمى الحب .

ولكن لن تقنعه هذه الخرافات ، ولن يسمح لأحد بأن
يضيع فيها وقته .

ليس هناك فائدة . . لقد وقعت الواقعة ، ولم يعد أمامى
سوى الاستسلام . . أو الانتحار .

ولكنى كنت أجبن من أن أفكر فى الانتحار ، أو على
الأصح ، أشجع من ذلك . . إن الانتحار لا يعنى سوى قتل
الجسد ، ولكنى صممت أن أقتل الروح والقلب والمشاعر

ولا أبقى منى سوى جسد بلا حس ، ليفعلوا به ما شاءوا
وما لجرح بميت لإيلام . .

لقد كان الخطأ خطئى من بادىء الأمر . . أنا الذى
تركت نفسى تتردى فى هاوية الحب . . وتركت إرادتى
تتهاوى ومقاومتى تنهار . . لو لم أنزلق إلى هاويته لكنت
الآن سيدة نفسى . . ومالكة مشاعرى . . أسخر من كل
شئ . . وأتلقى ضربات القدر وكأنى درع من النحاس . .
لا يجيب إلا بالرنين . . تلطمه فيرن ، وتداعبه فيرن .

لو لم أطلق لمشاعرى العنان لاستطعت أن أنفذ نصيحة
جدتى ، فانتظرت حتى يمنحنى القدر أنفه ما عنده وتقبلته
شاكرة ساخرة . . وخيبت أمله قبل أن يخيب أملى .

ولكن لم هذا الخلط من الظروف الماسجة ؟ ألم يجد
بين فتيات مصر جميعاً . . من يضعها فى طريق ابن صاحب
الدولة ، الهمام . . سوى ؟

لانى أجزم أن الملايين منهم يتمين لو كن مكانى ، وإنهن
سيعتبرونه « لقطه » كبيرة . . فلم لم يختار واحدة منهم . .
ويعتقنى أنا لوجه الله !

إنه أرادنى لانى لأريده ، ولو أردته لأبته على الظروف .
وهكذا الظروف تأتى إلا أن تهب لنا ما لا نريده .

ولم أذهب بعيداً .. وأنا ما حاولت قط أن أنتظر
الأوتوبيس (رقم ١٤) في محطة مصر لكي أعود إلى بيتنا
في حدائق القبة إلا ورأيت الأوتوبيس (رقم ١٠) الذاهب
إلى مصر الجديدة .. تتواتر علىّ العربية تلو العربية .. دون
أن يبدو (لرقم ١٤) أى أثر، وفي المرة الوحيدة التي أردت
أن أذهب فيها إلى مصر الجديدة اختفى (رقم ١٠) وأقبل
(رقم ١٤) يتوالى الواحد بعد الآخر .

إذا كانت الظروف تعاكسنا في الأوتوبيسات ، أفلا يحق
لها أن تعاكسنا في الأزواج ، فتمنحنا غير ما نشتهي ؟
ما علينا ..

لقد قضيت ليلة سوداء .. نباحي فيها المضجع ، وجفائي
المرقد ، فلم أذق فيها للنوم طعماً ، وعندما أجهدنى السهر قبيل
الفجر ، استسلمت للنعاس ، فرأيت في المنام أنى وأحمد كلانا
يركب زورقاً يخوض به علب اليم ، وأنه كلما حاول أحدهنا
الاقتراب بزورقه من الآخر ، قذفته الأمواج بعيداً ، وأخيراً
وبعد أن أصابنا الإعياء ، استطاع أن يقترب منى بزورقه ،
وسألني أن أقفز إليه ، ومدّ لي يده فأمسك يدي ، ووقفت
على حافة الزورق ، وهممت بالقفز إليه عندما علت موجة
عانية أبعدت الزورقين ووجدت نفسي أهوى في اليم وقد

جذبتني معي ، وأخذنا نغالب الموج سوياً ، وقد تشابكت أيدينا ،
حتى غلبنا على أمرنا وهوينا إلى القاع .

واستيقظت فرجة مرتاعة ، وأنا أحس أني منهكة محطمة .
وأخذت أتملّل كأن رأسي قد ألغبه حتى خبيثة .

وأقبلت على جدتي فجلست بجوارى ، وضمتني إليها ،
وقالت في صوت حنون :

— لا تيأسى يا بنتي .. لا تفقدى الأمل .. سأحاول معه
ما استطعت .

— لا فائدة .. لا تقولى له شيئاً .

وبقيت في الفراش ذلك اليوم حتى العاشرة ، ثم تركته
أخيراً وكأنى قائمة من مرض أفعدنى أشهراً طوالاً .

وعند الغداء تحاملت على نفسى وهبطت إلى الطابق الأسفل
وانتهى الغداء دون أن ينبس أحداً بيفت شفة .. وقبل أن تترك
المائدة قال أبى :

— زكى باشا دعانا إلى الغداء في عزبته باكراً ، وسنذهب
من الساعة العاشرة لنقضى هناك اليوم بأكمله .

ثم وجه القول إلى أخى :

— أنتحضر معنا؟

وهزّ أخى رأسه بالرفض وأجاب باقتضاب :

— إني مشغول غداً .

وقال أبي في لهجة زاجرة :

— إنه يوم خطبة أختك !

ورفع « علي » حاجبيه ، ونقل بصره بين كلينا في دهش
ولم يرد علي قوله :

— حقاً ؟ .. مبروك يا عايدة !

وتمت بيض كلمات مدغمة خافتة ، قصدت بها « الله
يبارك فيك » .

وتركنا المائدة ، وصعدت إلى غرفتي وقبعت فيها كأنني
كومة عظام .. أهكذا قضى الأمر ؟ ووقعت الكارثة !
ورفعت عيني المبللتين بالدمع إلى السماء وسألتها الرحمة !
وخطر لي خاطر أحسست منه بشيء من التشجيع والعزاء ،
ونفضت إلى « انتم » فتوضأت ، ثم أغلقت حجرتي وبدأت
الصلاة .

وأخذت أركع وأبجد ، وذهني شارد ، ونفسي واهنة
ودعوت الله أن يهب لي معجزة تنقذني مما أنا فيه .

وانتهيت من الصلاة .. دون أن تحدث المعجزة ، ولكن
تملكني شعور بالهدوء والاستسلام ، والسكينة الناتجة عن
اليأس وعن الإحساس بالعجز ، وبأن هناك قوة أعلى تحكم

في مصابرينا .. وأنا لا نملك إلا الخضوع لها ، والرضا
بحكمها ...

ودق جرس التليفون فغادرت حجرتي للرد عليه ..
وأمسكت بالساعة في الوقت الذي رأيت فيه أبي يغادر الحجرة
وقد أتم ارتداء ملابسه استعداداً للخروج .

وسمعت في التليفون صوتاً .. أحدث في جسدي رجفة .
لقد تحدث أحمد أخيراً .. ولكن في وقت غير مناسب .
ورفعت عيني خلسة فأبصرت أبي ينظر إليّ مترقباً .
وقلت متجاهلة صوت أحمد :

— آلو .. مين يا فندم ؟

— أنا أحمد يا عايد .. أريد أن أتحدث معك قليلاً .
وأصابني ارتباك شديد .. ولم أدر بماذا أجيبه .

ورغم أني كنت أتلهف على سماع صوته .. وعلى محادثته
فإنني لم أستطع أن أقول أكثر من :

— لا .. ليس الآن .

ورأيت أبي يهز رأسه مستفسراً ويتساءل :

— من ؟

وخفضت الساعة قليلاً . ثم قلت له :

— أحمد يسأل عن « علي » .

ثم قلت في الساعة :

— إنه غير موجود الآن .. لقد خرج .

وانتظرت برهة لم يجب خلالها أحمد بكلمة واحدة ..
وسمعت الخط يغلق .. فوضعت الساعة بسكون وعدت إلى
حجرتي .

وأحسست بهوم الدنيا كلها قد أثقلت كاهلي وأنقضت
ظهري ، وبدأ لي أن الظروف قد ناصبتني العدا .. حتى كلمات
مسلية في التليفون قد أثبتا عليّ .

وكنْتُ أعرف أحمد تماماً .. وأعرف كبريائه وقوة
إرادته ، وقدرته على كبح جماح نفسه وعلى تحمل أحزانه ،
وكنْتُ واثقة من أنه لن يخطو إلى دارنا بعد أن خذله أبي ، وأنه
سيترفع عن الحضور إلينا مهما كلفه ذلك من مشقة وحزن .

كنْتُ أعرفه صبوراً ، شديد الجلد .. وكنْتُ واثقة من
شدة حبه لي .. ولكنني كنْتُ أعرف كذلك أنه لا ينحني
ولا يطأ طيء رأسه ، وإنه لا يذل نفسه ، بل يكتُم لوعته ويكبِت
حزنه ، وكنْتُ أعرف أن أقصى ما سيفعله هو أن يحدثني
بالتليفون لينبئنني بما حدث وليعرف رأيي في الأمر .

وكنْتُ أتلهف على مكالمته .. لأن لديّ ما أقول ،
ولأن لي رأياً في الأمر أود أن أعلنه به . فقد كنْتُ أشعر

أنى بلا رأى ولا حول ولا قول .. وأنى أشبه بالشاة ..
لا تملك إلا أن تسير إلى مصيرها المحتوم ، وأن تمثل صاغرة
إلى مدية القصاب .

لم أكن أتلف على مكالمته .. لأنى أود أن أدبر أمراً أو
أرسم خطة ، بل كان كل ما أوده .. أن أسمع صوته .. وأن
أستعين منه بكلمات تعيننى على السير فى الففار الموحشة التى
أوشك أن أخوض غمارها .. وتكون زادى فى الفرقة
وسلو فى على البعد والوحدة والوحشة .

وأدركت أنه لن يحاول — بعد ردّى عليه فى التليفون —
أن يعيد الكرة .. وأنه سينأى بنفسه عنا نأياً تاماً
وأحسست بالتمرد والثورة .. وتملكنى حنق شديد .
أوقد حرمت .. حتى كلمات وداع .. هى زادى
إلى الأبد ؟

وسمعت صوت أقدام أبى تهبط الدرج إلى الحديقة ، ثم
سمعت صوت العربى تتحرك .. فانطلقت إلى التليفون مسرعة .
إن الفرصة سانحة لكى أحدثه .. ولكن أين أستطيع
أن أجده ؟ .

من أين كان يتحدث ؟

إنى أعرف له رقمين : رقم الشكنات ، ورقم الميس ..

والساعة تكاد تبلغ السادسة وهو ينتهى من طابور بعد الظهر.
كما قال لى - فى الخامسة والنصف - .. إذا فلا شك أنه قد
تحدث من إحدى الرقنين .

ولكن من يدرينى .. قد يكون تكلم من تليفون
فى الخارج .. أو لعله قد خرج بعد أن تكلم .
على أية حال سأحاول .. فتلك هى بقية أملى .
وأدرت رقم الميس .. وأخذت أنصت إلى رنين الجرس
فترة طويلة .. وأخيراً أجابنى صوت :

- مين يا فتدم ؟

- أيمكن أن أتحدث إلى الملازم أول « أحمد عبد السلام » ؟

- وإذا لم يكن موجوداً .

وإرتبكت برهة إذ لم أتوقع هذا السؤال ، وقلت مترددة :

- إذا لم يكن موجوداً سأحاول أن أطلبه مرة أخرى .

- ألا نقول له شيئاً ؟

- لا .

- لا بد من أحمد عبد السلام بالنات .. ألا يصلح أحد

غيره ؟

وبدا لى أن المتحدث أحد زملاء أحمد .. وأنه يظننى

إحدى الفتيات العابثات .. اللاتى أنبأنى أحمد أنهن كثيراً

مايشاكسن الضباط فى الميس الى حد أن إحداهن كانت تعرف
أدوار نوبتجيتهم ، واحداً واحداً ؛ ولم أشك فى أن الضابط
الذى أجابنى يبنى بحديثه مداعبة وغزلاً .

راحسست بالدمع يكاد يطفر من عيني ، وأجبت به بصوت
مختق :

-- أرجوك إذا كان موجوداً دعنى أتحدث إليه .. إلى
أريده فى مسألة هامة .

وزجرته طجتي الحادة من عبثه ، وقال فى لهجة رقيقة مهذبة
معتدراً :

-- أنا متأسف يافندم .. لكن أحمد قدّم نفسه أمس إلى
المفرس السوارى لأنه منقل إلى هناك وأظنه نوبتجى اليوم .
-- أأستطيع أن أعرف رقم تليفونه ؟
-- أجل .

ثم أملانى الرقم .. وشكرته ، ووضعت السماعة .
وعدت أطلب الرقم الجديد .. وردّ على صوت سألته عن
أحمد فأجابنى بعد فترة :

-- حضرة الضابط معاكى يافندم .

ثم سمعت صوت أحمد :

-- آلو .. مين ؟

— أنا عايدة .
ولم أشك في وقع الإيـسم والصوت على مسمعه ، فقد
مصت فترة قبل أن يجيب بصوت خافت حاول جهده أن
يكسوه ما استطاع من الهدوء :
— أجل يا عايدة ؟
— أنا آسفة .. لم أستطع أن أحدثك لأن أبي كان يقف
أمامى .

— لقد استطعت أن أدرك هذا .
وانتظرت أن يقول شيئاً يطرق به الموضوع ، ولكنه
صمت .. فلم أجد بداً من أن أبدأ أنا الحديث فقلت :
— إنك لم تنبئني بما حدث بينك وبين أبي .
— ألم تعرفي بعد ؟
— عرفت بطريقة غير مباشرة !
— ليس عندي أكثر مما عرفت .
— أود أن أعرف تفاصيل الحديث .
— تفاصيل لا تسر .
— كيف ؟ ماذا قلت له ، وماذا قال لك ؟
— قلت له ما يقوله كل رجل عاقل يتقدم لخطبة فتاة .
— وماذا قال هو ؟

— لا داعى لأن نشكك الجرح .

— أرجوك .. قل لى ! .

— قال لى ما زلت صغيراً ، وأن مرتبى محدود ، فلما

قلت له لى سأقضى خمسة وعشرون جنبها ، ضحك فى سخرية
وأجابنى لى لا أستطيع بهذا المبلغ أن أنشى بيتاً محترماً دون
أن أكون عالة على أحد ، ونصحنى أن لا أفكر فى الزواج
الآن .. وأنه خير لى ألا أرهق نفسى بعبء لا قبل لى على
احتماله .. ثم قال إنه لا يفكر فى زواجك الآن لأنك ما زلت
صغيرة .. فلما قلت له أنه يمكننا أن تتم الخطبة الآن على أن
يؤجل الزواج كما يشاء .. أجاب بأن هذا ليس من مبدئه ..
فإنه يكره أن تطول الخطبة .. ويرى أنها ستشغلك عن
الدراسة .. وقلت له لى أستطيع أن أنتظر ، فأجابنى فى حدة
وهو يتحفز للقيام كأن صبره قد عيل .. إنه لا يستطيع أن
يعد بشئ .. ونصحنى ألا أتعلق بالآمال .. وأن خير
ما أفعله هو أن أصرف نظرى عن هذه المسألة ، وأنى إذا كنت
مصرراً على الزواج فهناك الكثيرات من الفتيات ممن يصلحن
لى .. هذا هو كل ما قلت ، وكل ما قال .. تلك هى التفاصيل
المرّة التى لم يكن ينقصها .. سوى أن يطردنى من البيت ..
ولقد طردنى فعلاً .. فقد قال لى إنه مضطر إلى الخروج

لأن لديه موعداً هاماً .. ثم شدّ على يدي قائلاً ، دعنا نراك ،
وهو يكاد يعنى بها ، لا تدعنا نراك ، .

وكنْتُ أسمع حديثه وأنا أحس به يحز في نفسي ويلهب
رأسي ، وعند ما انتهى منه قلت أنتم معذرة :

— إنني آسفة جداً .. كان يجب ألا أعرضك إلى مثل
هذا الموقف .. ولكنني قلت لك إننا يجب أن نترك جدتي
و نجس النبض ، فأبيت إلا أن تتقدم بنفسك .

— النتيجة واحدة . . كان لا بد لنا من تحمل الصدمة ،
ما دامت تلك هي آراؤه ومبادئه . . ماذا ستفعلين أنت ؟

ماذا سأفعل أنا .. ليتني أستطيع أن أفعل شيئاً لو أن
لي حرية التصرف . ما كانت بي من حاجة إلى أن أحدثه
في التليفون ، بل لفررت من الدار وذهبت لأرتقي بـ
أحضانهِ إلى الأبد .

وأدركت من حديثه أنه لم يعلم شيئاً عن الخطبة التي توشك
أن تحدث ، والكارثة التي توشك أن تحل .. ولم أجد لديّ
الشجاعة الكافية لأن أنبئه بها .. فقد كرهت أن أطعنه بيدي
بالسهم المسموم .. وكنْتُ مازلت آمل في معجزة من السماء
توقف المصاب .. إن دعواتي إلى الله وصلواتي الحارة لا بد أن
تستجاب .. إنها ملجئ الوحيد ، إنها كل ما أستطيع أن أفعل

ولم يستغرق منى التفكير سوى ثوان معدودة ، وأجيبته
على سؤاله :

— وما أستطيع أن أفعل .. سوى أن أترك الأمر لله
وللظروف ؟ .

— أعلينا أن نخضع ونستسلم ؟

— هل لدينا سوى ذلك ؟

— إذا كان هذا هو رأيك .. فكما ترين .

وصمت .. وصمت .. وكانت تجيش فى نفسى عواطف
شتى .. وكنت أود لو ناجيته بأعذب الألفاظ .. ولو ركعت
أمام قدميه وأغرقت يديه بالقبل .. ولكن الألفاظ لم
تسعبنى ولم أجد ما أفصح به عن مشاعرى .

وطال الصمت حتى لم أجد ما أنقطعه به سوى تلك
الكلمة البغيضة :

— دعنا نراك ؟

— إن شاء الله

— مع السلامة .

— مع السلامة .. يا عابده .

ووضعت السماعة ، وأنا حانقة على نفسى .. كان لدى
الكثير مما أود أن أفعله ، ولكنى لم أفل شيئاً .. كنت أعلم

أنه يروح تحت أعباء الحزن والفشل .. وإن كان يتصنع
التجملد وقلة الاكتراث . كنت أود أن أغسل همومه وأزيل
أحزانه ، وأن أقول له إنى سأحبه دائماً ، وإنهم يستطيعون
أن يتحكموا فى جسدى ، ولكن قلبى سىظل ملكاً له ..
لا يخفق إلا بحبه .. ولكنى لم أجسر حتى أن أقول له حقيقة
ما يوشك أن يحدث .. كنت جبانة مترددة .

وهكذا حرمت نفسى العزاء الأخير .. ملوقى التى
كنت أتوق إليها وأتلف عليها .. حرمت نفسى مناجاته
للعذبة ، وحديثه الخلو .. أعز متاع لى فى هذه الحياة ..
وختمت حديثى معه تماماً كما ختمه معه أبى « دعنا نراك » .
أو على حد قوله « لا تدعنا نراك » .. وأدركت أنى لن
أقواه إلا بفعل المصادفات .. وتدير الظروف .. فما أظن
كبريائه إلا فارضة علينا فراقاً أبدياً .. ألم يقل لى هو
نفسه ذات مرة إنه خاصم أعز صديق لديه لمدة عشرة
أعوام لشعوره أنه أهان كبريائه .. وأنه استمر يتجنب
رؤيته ولقائه — رغم حبه له — حتى يومنا هذا ؟ ألم يقل
لى إنه ليس هناك فى هذه الحياة ما يستطيع إذلاله .. حتى
أنا .. وأنه على فرط حبه لى يستطيع أن يرغم نفسه على
نسيانى .. مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ؟

وأحسست أن ذهني يوشك أن ينفجر .. وذهبت إلى
حجرتي ، وارتيمت على الفراش كأتى في شبه غيبوبة .
وفي الساعة التاسعة عاد أبى إلى البيت ، ولم أجد بداً من
التحامل والنزول للعشاء ، وكنت أشعر أنى أنحرك كالأشباح .
وسألنى أبى خلال الطعام :

— ما بك ؟

— لا شىء !

— لم لا تأكلين ؟

— أحس بوعكة بسيطة .

ثم تركت المائدة .. وصعدت إلى حجرتي .. وأويت إلى
الفراش ، وبعد برهة سمعت صوت أبى يصعد الدرج . ثم سمعت
صوت جدتى تناديه . وذهب إليها ، وكانت حجرة جدتى
الاصقة لحجرتى وكان يفصل بينهما باباً مغلقاً .

ووجدتنى أرهف السمع وأنا أسمع جدتى تقول له :

— اجلس .. أريد أن أحدثك .

— أنحسين بشىء ؟ . كيف صحتك ؟

— ليس بخصوصى أنا .

— ليس بخصوصك ؟

— أجل .. أريد أن أحدثك بخصوص عايدته .

- ما لها عأيده ؟
- ألم تلاحظ عليها شيئاً ؟
- لم تأكل فى العشاء ، وقالت لى إن بها وعكة بسيطة !
- إنها لم تأكل منذ يومين
- وله ؟
- ولم تتم طول الليل !
- ما هذا الكلام ؟ . ماذا تقصدين به ؟ لم تأكل
- ولم تتم ؟ . ماذا يمنعها ؟ أ مريضة هى ؟
- ليست مريضة ..
- أفصحى إذا عما تريدن قوله ؟
- ألم يحضر إليك أحمد لخطبتها ؟
- أحمد !! أجل لقد كلبنى بالأمس .
- وماذا قلت له ؟
- ماذا قلت ؟ أ تريدن أن أقدم لك حساباً عما قلت ؟
- أريد فقط أن أعرف !
- رفضت بالطبع !
- وله ؟
- لأنه ليس هناك وجه للمقارنة بينه وبين ابن زكى باشا
- فلا مستقبل له إلا ذلك للترقى المحدود .. ولا دخل له إلا ذلك

الراتب الثابت .. ولا شيء .. يرجى منه قط .. هل تريد أن
تقضى عمرها زوجة صاغ أو بكباشى ، وتظل تعدو وراءه
من العرش ، لمرسى مطروح ، لمنقباد إلى أدنى بمبيشة
الضباط . أى أحق بفضله على ابن رئيس وزراء ؟

— هذا من وجهة نظرك أنت .. فرئيس الوزراء قد
ينفعك أنت .. ولكن الذى سينفعها هو زوجها .

— بل رئيس الوزراء سينفعها أيضاً .. فهو يستطيع أن
يجعل من ابنه شيئاً مذكوراً .. يجب أن نتطلع إلى أعلى ..
أكنت تريدنى أن أرفض ابن زكى باشا .. لأجل أحمد ؟
إلى لم أجن بعد !

— ولكن لست أنت الذى تنتق .. كان يجب عليك
أن تختيرها بين الاثنين .

— لقد استشرتها فى خطبة تهانى بك .. رغم أنى
كنت أستطيع أن أبت وحدى فى الأمر .. لأنى لست
بالغنى الفاقد التمييز ، ولا بالذى لا يقدر مصلحة ابنه .

— أين هذه الاستشارة التى تتحدث عنها ؟ لقد كان
حديثك فرضاً عليها .

— لقد سألتها عن رأيها فأجأت بالقبول !

- ولم تأخذ رأيها في أحمد؟ لم تجعلها تناضل
بين الاثنين؟

- ليس هناك محل للفاضلة .. ثم إنى أدري منبها
بهذه الأمور .

- إنها هي أدري بنفسها .. إنها تفضل أحمد لأنها تحبه .
وصاح أبى فى حنق شديد :

- تحبه ؟! من قال لك هذا ؟! أمى التى قد قالت .. ؟
أمن أجل هذا لا تنام ولا تأكل ؟

- هدىء من روعك .. واخفض من صوتك .. وكف
عن هذا الصراخ .. إنها لم تقل شيئاً .. ولكنى أستطيع أن
أفهم مشاعرها دون حاجة منها إلى التصريح .

- كفى عن هذا الهراء .. لا أريد أن أسمع أكثر
من هذا .. هذه هى التريية التى أجهدت نفسك فيها ؟!
أأسمعحين لنفسك بأن تقولى إنك تدركين أنها تحب ؟!
وإنك تفهمين مشاعرها ! . لقد أفسدتها بتدليلك .. لقد
جنيت عليها .

- أمى جنابة أن تتركها تزوج من تشاء ؟

- جنابة أن أسمع لها بهن المسخرة !

- بل الجنابة هى التى ستفعلها أنت .. إنك مخلوق

أناى منذ الصغر .. إن أنايتك قد أفسدت حياتك
وحرمتك المعيشة الهادئة وستفسد بها حياة ابنتك .. أنت
لا يهيك سوى نفسك ... تنظر إلى كل شىء بمنظار
مصلحتك .. ولا تفهم الأمور إلا من وجهة نظرك
أنت .. أنت تريد أن تفاخر بنسب رئيس وزراء ..
وتنتظر من وراء النسب أبهة وسلطاناً ونفوذاً .. أنت
تريد أن ترضى غرورك وأنايتك ، ولكنك لم تحاول قط
أن تفكر بعقليتها أو تعتبر مشاعرها .. حتى اكفأت بك
أنت الذى ستزوج لاهى .. خير لك أن تدعها هى تبت
فى مصيرها .

— لقد بت فى مصيرها وانتهى الأمر .. لا أريد أن
بناقشنى إنسان فى هذا الموضوع ، وخير لك أن تكفى
نفسك مشقة التدخل فيه ... أنبئها أن تستعد للسفر فى
الساعة العاشرة صباحاً .

ثم ضحك ضحكة ساخرة وأردف قائلاً :

— لا تخشى عليها من الأرق أو الجوع .. فستنام بعد
ذلك ملء جفניה .. وتأكل ملء بطنها .. دعيها لى أنا ..
لا تحملى همها .

وساد السكون بعد ذلك .. وانتهت المناقشة التي عرضت
خلالها قضيتي على بساط البحث .. وانتهى الأمر فيها بتأييد
حكم الإعدام .

لم يخذلني قول أبي كثيراً .. فما كنت أتوقع سواه ،
وما كنت أتتظر منه إلا مثل هذه الثورة والسخرية .. وتمت
لو لم تفتح جدتي .. فقد كنت أود أن أساق إلى دسميري
المحتوم بلا ضجة ولا فضيحة .. وألا أعرض نفسي لمثل هذه
السخرية المريرة .

ما فائدة المناقشة والجدال ؟ متى كان للشاة أن تناقش
قضاياها ؟ وللمحكوم عليه بالإعدام أن يجادل جلاده ؟
يجب أن أنجلد وأن أتماسك .. يجب أن أكنم مشاعري ،
وأخفي قلبي .. بل يد عمرو لا يبدى

وأغضت عيني .. واستمر ذهني يتخبط في أفكاره
واستعصى النوم علي .. واشتد بي الإنهاك .. ونهضت إلى
الشرفة أخيراً أناجى النجم ، وأستلهم السماء الرحمة وأسألهما
للسلوان ، وملأت صدري بنسيم الليل الرطب عله يلطف
حرارتي ويهدي من ثائرتي ، ثم عدت إلى الصلاة أستعين
بها على إطفاء حرقتي ، وتخفيف لوعتي ، وأقطع بها الليل
للطويل ...

وأخيراً منحني الله نعمة النوم ، فقهنت بضع ساعات ،
خارجة عن سلطان الهموم . ، مستريحة من الأثجان
والأحزان . . ليت الله يتم نعمته فيمنحني الراحة الكبرى ،
والهدوء الأبدي .

استيقظت صباحاً فإذا بالشمس قد ملأت الحجر . .
ونهضت مثاقلة وبي إحساس المسوق إلى مشقة .
لا . . لا . . يجب أن أتجلد . . يجب أن أكون شجاعة . .
لن أدع القدر يشمت بي . . إن الشهداء يساقون إلى
ساحة الإعدام وهم يتسمون . . فيجب ألا أقل عنهم
شجاعة .

يجب أن أتعلم النفاق والرياء . . وأن أبتسم وقلبي نائح
باك ، وأن أضحك ونفسي موجعة دامية .

يجب أن أجعل فؤادي يحمد وقلبي يتحجر .
وبمثل هذه الأفكار بدأت أستعد للسفر .
وقبل العاشرة . . تحركت بنا العربة . . قاصدة إلى عزبه
صاحب الدولة ، قرب المنصورة .

وفي الطريق أخذت أرقب الأشجار والمناظر تتوالى
على . . وقد أسندت رأسي على مسند العربة ورحت في شبه
غيبوبة .

وأخيراً توقفت العربية ، وسمعت أبى ينادىنى ويأمرنى
بالزول .. وأبصرت « صاحب الدولة » فى استقبالنا
وبجواره « سوسو هانم » و « توتو بك » خطيبى الميجل .
إن ذاكرتى لا تكاد تمى من ذلك اليوم الأسود شيئاً ،
إن ما وعاه ذهنى من العزبة والبيت ومن كل ما أبصرته
يومذاك لا يزيد على صور باهتة شاحبة ثقيلة معتمة .
أما الشيء المحسوس الذى عدت به ، فهو خاتم .. دس
فى أصبعى .

خاتم ١١٩ استغفر الله ، لقد كان قيداً أطبق على يدي
أو حبلاً لف على عنقى .. حقاً ما ظننت قط أن الإنسان
يمكن أن يخنق من إصبعه .

لقد عدت إلى القاهرة ، وأنا لا أحمل من الرحلة التعبة
سوى هذا الخاتم المنحوس ، والقيد الثقيل .. ماذا كنت
أريد شراً من ذلك ؟





الطير يفتد

إلى القسامة .. وأنا أتخيل أن الأمر كله ليس
عمر سوى كابوس خفيف ، أو حلم مزعج .. وأتوهم
كل ما حولي أشباحاً وأطياناً .. لكن شيئاً واحداً هو الذى
كان يعيدنى إلى وعي ويشعرنى بالواقع المرير ، هو القيد الثقيل
الذى كبلت به والذى كان يحز فى أصبعي وفى قلبي .
أجهدتني مشقة السفر وضجيج الحوادث التى حفل بها
يوم ، فأويت إلى فراشي مكدودة متعبة ولم يستعص النوم
على جسدى المحطام فسرعان ما أغضض الكرى عيني ورحت
فى سبات عميق .

حيا الله النوم .. لقد كنت أفضى فيه أسعد أوقاتي ، كان
ينقذني من شقاء ملح وعناء مقيم .. كنت أختصر به يقطتي
التعب ، وكنت أخرج به عن نطاق التفكير فيما أنا محاطة به
من وقائع مروعة ، وقد بكر مني أحياناً .. فيهب لي فى الأحلام
لقاء مع أحمد ، ويعيد إليّ ذكريات خوالى .

واستيقظت فى الصباح وأنا أشعر ببعض الراحة والهدوء
والقدرة على الصبر والتجملد ، ونهضت أباشر أعمالي فى البيت
وأعطى أوامرى للخدم كما تعودت أن أفعل من قبل عازمة
على أن أكف عن ذلك الإنهيار ، وألا أعطى أبى فرصة

للسخرية أو التأنيب أو التحكم . . وأن أدور طبيعة مهما كلفني الأمر .

وتناولنا الإفطار ، وتقبلت تهنئة أخى وأنا أرسم على وجهى ابتسامة متكلفة مصطنعة ، وجلس أبى يتناول الشاي ويتشغل بقراءة صحف الصباح ، ثم رأبته يدفع إلى ياحداها وقد وضع أصبعه على مكان معين .

وقرأت نبأ خطبتي فى أخبار المجتمع ، ولم يكن فى النبأ — بالطبع — شىء جديد ، ومع ذلك فقد أحسست منه وخزاً فى قلبى .

ألا يحدث لكم أن تكونوا على علم بوفاة إنسان . . ولكنكم مع ذلك تتأثرون بقراءة نعيه أو تلاوة رثائه ؟ لقد كان للخبر فى نفسى وقع النعى ، ووجعة الرثاء .

وتذكرت أن أحمد سيقرا النبأ ، كما قرأته ، وتصوّرت وقوعه عليه ، فأحسست بجرحى يدمى وقرحى ينكأ ، وكان الكارثة قد وقعت مرة ثانية .

كنت ما زلت أرجو أن يحدث شىء . . كنت ما زلت أتوقع معجزة السماء . . ووددت لو خفى الأمر على أحمد ، حتى يحدث المعجزة . . فأقص عليه المسألة كلها . . وكأنها قصة مسلية .

أما كان يجب علىّ أن أخبره ، حتى لا يظننى مشتركة في
الجرم ، ويتوهم أنى خدعته ؟
وشرد ذهنى ، فأخذت أنخيله وهو يقرأ النبأ ، وكيف
سيحاول التجلد والتمايل ، وهو مروّع محزون .
وطويت الصحيفة فى صمت ، ووضعتها على المنضدة . .
وصعدت إلى حجرتى وكأنى قد شيعت ميتاً .

بدأت بعد ذلك فترة من المشاغل ، فقد أصرّ أبى على
مبدئه فى أن يقصر فترة الخطبة ما أمكن ، ورأيت نفسى أنهمك
فى أشياء مختلفة متباينة تضعى كل وقتى ، ولا تترك لى فرصة
التفكير فى أحزانى .

كنت منهمكة فى أحب ما يمكن أن تنهمك فيه أية فتاة
مقدمة على الزواج ، وهو التجهيز لعرسى ، شراء الأقمشة ،
والنفصيل ، وقياس البروفات ، وانتقاء الأثاث والفضيات
والأطعم المختلفة ، وكان لى مطلق الخيار فى أن أطلب ما أريد
بلا قيد ولا شرط ، ولكنى لم أطلب شيئاً قط ، بل كنت
أوافق على كل ما يقدم لى .

لقد كانت العملية فى حد ذاتها عملية مسلية ، شغلت كل
وقتى ، وكان تأثيرها مساوياً لتأثير النوم ، وهو إنقاذى من

عناء التفكير في الواقع ، ولكنى مع ذلك كنت أحس أنها
ستنتهى يوماً ما .. وستكون نهايتها بداية الكارثة الحقة .

كنت أتمنى أن يطول التجهيز للزفاف إلى الأبد .. فقد
كنت ما زلت آمل في الخلاص .. وكان إيماني في رحمة السماء لم
يتبدد بعد .. وكنت أجد في فترة التجهيز فسحة للأمل .. وكانت
رغبتي في أن تطول تلك الفترة أشبه برغبة إنسان يشيع عزيزاً
لديه فهو لا يود قط أن تنتهى الجنازة حتى لا يصل إلى القبر بل
يود أن يطول به السير إلى ما لا نهاية .

وكنت أفكر أحياناً .. كيف كان يمكن أن تكون تلك
الفترة .. فترة الاستعداد للزفاف .. لو أن الأمور سارت في
طريقها الطبيعي .. ولو أنه لم يحدث هذا الخلط من القدر ؟

كيف كنت أقضى فترة التجهيز .. لو أن أمتية النفس
تحققت .. وتمت خطبتي لأحمد ؟ أى نعيم كنت أفرح فيه لو أن
هذا الهرج والضحج كان استعداداً للزفاف إلى أحمد ؟

ولكن لا .. لا أظننى كنت مهتمة كثيراً بهذه التوافه .
فقد كانت سعادتي بأحمد نفسه تطفى على كل هذه الصيانيات
والماديات .

لقد كان هو وحده الآمل المنشود .. كان يكفى
ن أعيش معه في صحراء جرداء مقفرة موحشة ،

في الحصول على الرق سوباً . ونجاهد في سبيل العيش معاً .
إن كل هذه المتع الزائفة تتضائل بجواره . إنها لا تستطيع
أن تجلبه ، ولكنه يستطيع أن يجلب خيراً منها .. وهو الشديد
الإيمان ، القوى الأمل ، الأني النفس ، الكريم الخلق .

وكنتم أخلو إلى نفسي - خلال هذه الممعة من
المشاغل - في بعض الأمسيات ، فأجلس في الشرفة المحبوبة ،
وأذكر حديثه عن الأمانى التي كان يأمل تحقيقها ، والتي يريد
أن يعيش بها زمناً رغداً .. ويمعن في الخيال ويداعبني
الأمل ، فإذا بي أغرق في أحلام عجيبة .. وأنخيل نفسي ليلة
الرفاق باكية حزينة .. وقد فقدت كل أمل .. ثم يطرق أذني
وسط ضجيج الناس وصخبهم وقع حوافر خيل تفرع
الأرض وأسمع صهيلاً وهممة . ثم أبصره بقامته المشوقة ،
وحذائه الطويل ، كفرسان العصور الوسطى .. وقد أمسك
بيده مسدسه .. والقوم قد خيم عليهم الصمت وكان الطير علا
رؤوسهم ، وفروا من الدهش أفواههم ، وجلسوا في مقاعدهم
لا يتحركون كالنمل .. وهم يقترب مني باسمياً .. فيرفهني
بين ذراعيه .. ويفتاد القوم المشدوهين المبهوتين ، ويخرج
ني من وسط الضجيج والأنوار ، إلى هدوء الليل وظلمته
فيرك جواده ، ويضعني أمامه .. وينطلق .

ينطلق .. وينطلق .. وينطلق .. لا يستقر أبداً على
نظير الأرض .. وأمكت متهية في أحضانها وهو ثابت على
جواده يسابق به الريح .. حتى يستقر بنا المقام في بقعة خلت
من المكان وهجرها القطان .. أياً كانت هذه البقعة — حتى
لو كانت قبراً تتوسد أحجاره سوباً — إنها أحب إلى نفسي
من جنة الخلد .

تلك كانت أمانى المجنونة .. التي كنت أعزى بها نفسي،
وأمتحها بتصورها .. زمناً رغداً .. وأنزعها — للحظات ..
من وسط هذا الشقاء الذى أيسبها وأذبل عودها

وكننت خلال هذه الفترة أدعى من أن لآخر .. مع
الخطيب الكريه .. إلى حفلات مختلفة .. كنت أجلس
فيها شاردة الذهن ، صامتة اللسان لا أجيبه .. إلا بقدر
ما أسكته .. وعودت نفسي طابع ابتسامة ترسم على شفهي ..
دون أن يكون لها أى صلة بمشاعري .. بل كانت مجرد
طابع ، أو قناع أضعه على وجهي .. بلا أقل جهد
ولا مشقة .

وأخيراً حدد موعد الزفاف ولم يكن قد بق عليه سوى
بضعة أيام .. عندما أبصرت أخى ذات مساء .. قد ارتدى
بدلة السهرة وأقبل على يسألني عن « بيوت » ، أى الأسود

الذى يرتديه مع قميص السهرة .. لأنه لا يجد « البيون » .
وسأله وأنا أعطيه « البيون » : إلى أين هو ذاهب ؟
ولم أدر وأنا أوجه السؤال .. أنى كنت كمن يرفع - عز
جهل - طاية الأمان لقبيلة ، فإذا بها تنفجر فى يده
وتركه حطاماً .

ماذا تتصورون إجابته 11؟

لقد قال ببساطة :

— مدعو إلى زفاف أحمد ، إنه سيتزوج الليلة .
لقد انفجر فى ردة .. الذى ألقاه بمنتهى السهولة
والبساطة .. كما انفجر أشد الألغام فتكا .
ماذا روعى من النبأ ؟ ..

ألم أكن أنا نفسى أوشك أن أزف بعد بضعة أيام ؟
أكنت أنتظر منه أن يقضى عمره أعزب ؟ .
ماذا يصيرنى إذا تزوج الآن ، أو تزوج بعد حين ،
ما دمت قد فقدت الأمل فيه .. وما دمت البادئة بالخذلان ؟
ولكنى مع كل ذلك ، وجدت نفسى أوشك أن أتهاوى
لقد كنت أشعر — مع كل ما حدث — أنى لم أفقده
بعد ، وأنه ما زال هناك أمل .
أما الآن ، فقد ذرت الريح أملى .

ماذا يمكن أن آمل ، بعد هذا ؟
لقد أصبح أحمد - أو يوشك أن يصبح بعد بضعة
ساعات - زوجاً ، لقد أصبح إنساناً ، لا أمل لي فيه ،
ولا رجاء لي منه .

وأحسست من تلك الصدمة أنى بت على استعداد لأن
أثور على كل شيء ، وأحطم كل تقليد ، وأن أواجه أبى
وأقذف فى وجهه بكل ما يحول بخاطرى ، وأن أقول له إنه
رجل أنانى ، وأن أنطلق هاربة من البيت ، متحدية كل قوة
وكل سلطان . . لقد أعطتنى الصدمة قوة خارقة ، ووهب لي
اليأس ثورة عنيفة .

ولكن ما الفائدة ؟

ما الفائدة ، وقد أضخى أحمد ذلك سواى ؟
ماذا يمكن أن أرجو منه ، وقد أضخى زوجاً ؟
لقد استطعت أن أتجلد أمام كل ما سبق من الصدمات ،
أما هذه الصدمة فقد جعلتنى أنهار تماماً

وانسكأت على المنضدة وأمسكت بها ، حتى لا أتهاوى
على الأرض ، وأحسست بحلقى يجف ، وذهبت نصوت
خافت مجوح :

- أحمد . . سيتزوج ؟

وبهت أخى من لهجتي ، وروّعه شحوب وجهي ، وترك
البيون يسقط من يده ، ثم تقدم إليّ وأمسك يدي وسألني
في دهش :

— ماذا بك يا عايدہ ؟ تعال اجلسي على الاربكة .
وحاولت أن أتحمّل على قدمي ، ولكنني تهاويت على
الاربكة .

وعاد عليّ ، يتساءل في فزع :
— ما بك ؟ . . . تكلمي ؟
وبلا إرادة وجدت نفسي أردد :
— أحمد . . . سيزوج ؟
وأحسست بشفتي تحتلجان . . . وعضضت شفتي السفلى
حتى كدت أدميها . . . محاولة أن أكتنم نوبة البكاء التي توشك
أن تجتاحني .

وجلس أخى بجواري وضممني برفق وهتف بحنان :
— عايدہ ؟ . . عايدہ ؟ ما بك ؟ ! تكلمي ! ! قولي شيئاً .
وجفر قوله الحنون منبع الدمع في مقلتي ، فلم أشعر إلا
وأنا أنشج . . . واندفعت في البكاء أرتجف بين يديه كريشة
في مهب الريح .

واستمر أخى يضمّني إليه ويربت على خدي حتى هدأت .

ثم مدّ يده إلى ذقني ، ورفع وجهي ونظر إلى عيني
المغرورقتين وبدأ لي أنه قد فهم كل شيء ، وهمس قائلاً :
— لم لم تقولي لي . . لم لم تتحدثي من قبل . . لم
رضيت بخطبتك ؟

— وما الفائدة ؟

وبدا عليه الحنق وقال بحدة :

— ما الفائدة ؟ . . هذا مصيرك . . مصيرك أنت
وحدك ! أنت التي ستشقين . . أو تسعين به ! كيف تخضعين
صاغرة ذليلة . . دون أن تعترضي ، أو تنبسي ببنت شفة ؟
— وماذا كنت أقول ؟

— ماذا كنت تقولين ؟ ! ! توري وقاومي . . حطمي كل
شيء . . اصرخي . . استنجدی . . هذه حيائك . . أتركيها
تذهب سدى ! ! إننا لم نعد بعد في زمن الاستعباد . . كيف
ترغمين على زوج لا تربدينه . . هذا منك جبن وخور .

— لقد حدثته جدتي !

— وماذا قال ؟

— سخر وثار . . وقال إن الأمر قد انتهى ، وليس
لأحد أن يعترض عليه . وإنه هو أدرى الناس بمصلحتي .
— وماذا ستفعلين ؟

وتهدت في يأس وأجبت :

— لا شيء .. ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لقد قضى الأمر
وليس أمامي سوى الخضوع والاستسلام .. هذه مشيئة الله ..
ورأيت يطرق برأسه ، وقد بدا عليه الشقاء والحزن ..
وكرهت أن أغرقه في أحزاني ، وأن أشركه في مصابي ،
فقلت وأنا أتصنع الجلد :

— قم .. يجب عليك أن تذهب .. كل شيء سيهون ..
الزمن كفيل بمحو كل شيء .. إنه ينسينا ما نحب ويعودنا
ما نكره ..

كان مجرد كلام أعزى به نفسي ..
كلام هراء .. كنت آخر من يصدق أو يقتنع به
أي زمن هذا الذي ينسينا ما نحب ويعودنا ما نكره ؟
أهناك شيء يمكن أن ينسيني أحمد .. ويعودني البلية
الأخرى ؟

ونفض أخى .. وقد ألقى « بالبيون » على الأرض ..
يسار إلى حجرته بخطوات متعاقلة ..

ودلفت إلى حجرتي .. وارتيمت على فراشي .. كأنني جثة
هامدة .. ولم أحاول أن أخرج إلى الشرفة .. ولا أن أضرع
إلى السماء ، أسألهما الرحمة .. ولم أحاول أن أصلي أو أدعو الله ،

لقد ينسب من كل شيء . . . وكفرت بكل شيء . . . ولم أعد
أومن لا بالسما ولا بالمعجزات . . . ولا عدت في حاجة إليهما .
لقد حطمني النبأ . . . وجعلني بلا حس . . . وأفقدني كل
أمل ، وأطفأ أمانى كل شعاع . . . وطمس كل بارقة .
لم فعل أحمد هذا ؟ . . . لم تعجل ؟ . . . ألم يقل لي إنه
س يدفعه إلى الزواج إلا الحب ؟
أتراه قد أحب ؟ . . .

لا أظن . . . أترأها الرغبة في النار لكبريائه الجريئة
وكرامته المهدرة . . . والرغبة في أن يكون هو البادي
في الزواج ؟ .
أتراه قد تزوج لإغاضتي والانتقام مني ؟ بعد أن أناه
نبأ خطبتي ؟

ولكن ماذا ؟ . . . ما حيلتي في الأمر ؟
لشد ما أخطأت بعدم إعلانه بالخطبة . . . كان يجب أن
أخبره بها وأوضح له ظروفها ، وأبين له أني مكرهة عليها . .
وأنني لم أخدعه ، ولم أفضل عليه « توتو » .
لني حتى الآن خجلة من ذكره اسمه . . . ولكن ماذا
أسميه ، وأبوه نفسه كان يدعوه به . وإذا كان اسمه الآخر
« ترائي » ، شرأ منه . . . فماذا أسميه ؟

كان يجب أن أوضح له الأمر بنفسى وأنبئه أنى سأظل
مخلصة له أبد الدهر ، وألا أتركه يفاجأ بالنبا فى الصحف ..
فاظلم نفسى ، وأتركه يتهمنى بما أنا منه بريئة .

ولكن ما الفائدة من كل هذا ؟ .. ما الفائدة فى أن أكون
لديه بريئة أو مظلومة ، وأن يعرف أنى نسيته أو أنى سأذكره
إلى الأبد ؟ ما فائدة هذا ؟ . ما دمت قد خضعت للقيّد والذل
ورضيت بأن يذهب كل منا فى طريقه ، وأن يمزق كل ما كان
بيننا من مواعيق وعمود !

ولكنى كنت مكروهة .. أما هو فما عذره ؟ .

أما كان يجب عليه أن يتريث قليلا ؟ أو قد هنت عليه بمثل
هذه السهولة حتى يستبدل بى أية مخلوقة ، ليجعلها تحل محلى ..
وتتخذ فى حياته بوضعى ؟ !

أريد أن يربى أنى وغيرى سواء .. وأن أية فتاة يمكن
أن تغنى عنى ؟

أيمكن أن يكون هذا صحيحاً ؟ ! وأنه لم يعد به من حاجة
إلىّ ، وأنه قد طردنى من ذاكرته ، بل ومن قلبه ، ليضع هذه
أتى تو شك أن يزف إليها مكاشى ؟

ولكن من هى ؟

ابتسام ١١٩

عجبا . . . أى شيطان دفع إلى رأسى بهذا الإسم
أجل لاشك أنها هى دون غيرها

لقد وضع الأمر . إن أمه قد أحست بصدمته ، وعرفت بنبا
خطبتي ، وخيبة أمله في ، وبأسه مني ، ولم تجد وسيلة لتعويضه عن
الفشل ، ولرد الإهانة ، سوى أن تعجل بزواجه من ابتسام ، التي
كانت تراها - على حد قوله - عروسه الأصلية وزوجته العتيدة .

وسمعت صوت « على » ينادى أحد الخدم . وعجبت لعدم
ذهابه . وصممت على أن أرجوه أن يذهب ، حتى لا يحقد
على أحمد ، وحتى لا يظن أنني أنا التي جعلت أخى يمتنع عن
الذهاب ، وحتى لا يظن أننا قد صمنا على مقاطعته ، وذهبت
إلى « على » ورأيتهم يخلع ملابسه . فقلت له بلمحة متوسلة :
- « على » . أرجوك أن تذهب . . حتى لا يحزن أحمد ،
وحتى لا يظن أن بيننا خصاماً .. اذهب من أجلي أنا .

ولنظر إلى « على » ثم أخذ يرتدى ملابسه ثانية ، وقبل
أن يخرج سأله هامسة :

- من سيتزوج ؟

- الفتاة التي قلت لك مرة إنى رايتها معه في السينما . .

ابتسام .

مرت الأيام القليلة الباقية على موعد زفافي .. بطيئة
مثاقلة .. وكنت أحس أني أعيش وأنحرك وسط ضباب
معتم كثيف .. يريني كل ما حولي من مرئيات ، كأنه أشباح
باهتة .. أو ظلال سوداء .. ولا أكاد أبصر خلاله أو
وراءه .. سوى أكداس من الظلمات .. تفرق المستقبل
الموحش البغيض .

وأخيراً حل يوم الزفاف .. وكنا في أواخر سبتمبر ..
وهو أحب شهور العام إلى نفسي .. وأملؤها بالذكريات
الحلوة .. واستيقظت قبيل الفجر وأنا أحس ببرودة صباح
الخريف تنسلل من الشرفة .. فأغلقت بابها ، وعدت إلى
الفراش ، ولكنني ظللت أنقلب دون أن يعاودني النوم ..
ففادرت الفراش .. وخرجت إلى الشرفة ، واستقبلني النسيم
الرطب ، يمسح وجهي بكفه الندية .. ووجدتني أنسم منه
شبهتاً طويلاً أغسل به حنايا صدري وأندي به حرارته .

وكانت السماء منمقة بسحب الخريف المنثورة في الأفق
الحمرية الحواشي .. الموشاة الأطراف .. إيداناً بمطلع
الشمس ، وأوراق الشجر قد كسيت بقطرات الندى المتلاثلة
المنساقطة إلى الأرض كالدموع الصامتة ، وأبصال الزنبق
تملأ الحديقة .. وأعواده المحملة بالزهور البيضاء تمايل

مع مهبّ النسيم... وأوراق الورد الأحمر متناثرة على الطمر
والداليا تتأفل زهورها على أغصانها العالية.. وحوض الماء
الذى أجلسنى ، أحمد ، عليه وغسل لى ساقى فيه .. تتساقط من
صنبوره قطرات الماء..

ما أقدر المناظر المعينة.. والأجواء المخصوصة.. على
بحسب الذكريات.. وعلى إثارة الشجن.. رب صوت عابر
أو نسمة رطبة ، تعيد إلى نفوسنا حشداً من الأحداث...
وننقلنا إلى عالم آخر.. رب نقيق ضفدع ، أو زقزقة عصفور ،
تنكأ في نفوسنا جرحاً أبل وقرحاً شفى .

رب ورقاء هتوف في الضحى

ذات شجو صدحت في فنن

ذكرت إلفاً وعهداً سالفاً

فبك حزناً فهاجت حزنى

فبكائى ربها أرقها

وبكاها ربها أرقنى

ولقد تبكى فما أفهمها

ولقد أبكى فما تفهمنى

غير أنى بالجوى أعرفها

وبهى أيضاً بالجوى تعرفنى

لم تكن ورقاء هائفة ، هي التي حركت شجني ، وأندت مآقي ،
بل كان كل شيء حولى .. السحب المنخفضة ، والنسيم الرطب ..
ومدامع الورق .. وأعواد الزنبق .. وأوراق الورد .. وزهور
الداليا .. وحوض المياه .. كل هذا تعاون على "فدوب" نفسي ،
وأضرم الحنين في قلبي .

ووجدت نفسي أتسلل إلى الحديقة ، وقد وضعت
على كتفي معطفاً ، ولففت رأسي " بإيثارب " ، وانتعلت
حذاء خفيفاً ، وتسلك من الدار في سكون ، وسرت في
الطريق ، تحملني قدماي إلى الساقية المهجورة .. إلى المعبد
المقدس .

وكانت الشمس قد بدأت تتسلل برأسها من وراء الأفق
كانها تستكشف الأرض ، والأشعة البرتقالية تغمر أعالي
الدور وأطراف الشجر ، وقد خلت الطرقات إلا من الجمال
المحملة " بالكرب " تأتي من طريق " الوايلية " متجهة إلى
شارع " الملك " .

وسرت بحذاء السلك الشائك المحيط بشكنات الحرس ،
أخوض المزارع .. متخذة طريقاً قريباً .. بدل الدورة الواسعة
عن طريق الجامع والشارع المجاور للسراي .
ووجدت نفسي أخيراً أشرف على الساقية من ناحية

المزارع ، وبدأ لى طريق السراى محوطاً بأشجار البانسيانس
القائمة على جوانبه .

وجلست حيث تعودت أن أجلس ، وحيدة صامتة ..
أحس فى جلستى بالكثير من العزاء ، وأتمنى لو استطعت أن
أخلد فى موضعى لا أغادره أبداً الدهر .. وأن أضحى جزءاً من
ذلك المنظر الخرب .

وكان يراود نفسى أمل خفى فى أن . أحمد ، قد يأتى ، وأنه
قد يكون أصابه ما أصابنى من حنين .. ودفعه ذلك الدافع
الخفى الذى دفعنى إلى الهجى ..

أجل .. إن مجيئى لا يمكن أن يكون عبثاً .. لقد حركنى
قلبى ، ولا بد أن يحركه قلبه .. إن موضعى الشاغر لا بد أن يملأ
بعد فترة .

وأخذت أسترى السمع إلى كل صوت يقترب ، وأمعن
البصر فى كل شبح يبدو على الطريق .

ومضى الوقت ، وأنا فى جلستى — كما أنا — مغرقة
فى الصمت والوحدة ، وأخذت الشمس تغلو فى الأفق ،
والحياة تدب من حولى ، وأصوات الفلاحين والدواب
تتعالى .

وأخيراً نهضت للعودة ، أتلبس طريقى بين المزارع ..
فاشلة المسعى .. غائبة الرجاء .

أى حمقاء أنا ؟ .. أى وهم صور لى حضوره ؟ .. أو قد
نسيت أنه متزوج وأنه لا بد أن يكون فى هذه الساعة منعماً بين
أحضان زوجته ؟!

لقد أضخيت عنده غير ذات قيمة .. ولم يعد لى مكان فى
قلبه ولا ذهنه .

ولم أحمل عليه ، وغداً أكون مثله ؟ غداً أصبح زوجة ،
ويصبح حبه جريمة كبرى وخيانة زوجية .

إن من الجنون أن أحاول التفكير فيه . يجب أن أقتلعه
من نفسى اقتلاعاً .. يجب أن أنسى حبه ، وأن ينسى حبنى ، إن
لم يكن قد نسيه بعد .

ومضى اليوم ، لا أدرى كيف مضى ، ولكن الدار
كانت تمج بالحركة ، وتضج بالاستعدادات ، والحديث
قد انقلبت — بالمناضد التى وزعت فيها — إلى منتدى
عام ، والأسلاك المحملة بالثرثبات الكهربائية تتناثر فوق
الأشجار .

وكننت أنا أجلس كالتمثال ، مسلوقة الرشد ، فاقدة القدرة

على التصرف أو التفكير ، أقرب ما يحدث كآنى مجرد
مشاهدة ، أو عابرة سبيل ، وكأن كل ما يحدث لا يعنى ،
أو كآنى لا أقوم بدور البطلة ، فى وسط هذا المسرح القائم
على قدم وساق .

وأقبل الليل ، وبات البيت شعلة من النور ، وبدأت تتوافد
على الدار بعض العربات

وكان علىّ أن أبذل جهداً كبيراً فى التجلد والتماسك ،
وأن أخرج إلى القوم فأقبل تهاينهم وتحياتهم ، وأرحب بهم
وابتسم لهم .

وخرجت ، بعد أن تعمدتني الأيدى بالزينة وبعد أن ضمتني
جدتي بين أحضانها وطبعت على جبيني قبلة حنان .

وكان أول من لقيت « صاحب الدولة » وابنته ، وكانا
يجاسان مع أبى فى الصالون ، وهما يرحبان بي فى حرارة
وحماسة ، وأخذت « سوسو » تصلح لى زهرة حلى بها
كنتف ثوبى ؛

وأخذ المدعوون يتوافدون زرافات ، فامتألت الدار بهم
وضاقت دحاب الحديقة على سعتها .

ثم حضر « توتو » أخيراً فى حشد من أصدقائه الذين

عرفني بهم في فترة الخطبة ، وكان يبدو متأنقاً لامعاً برّاقاً ،
والواقع أنه كان حلو القسما ، جميل التقاطيع ، أرستقراطي
المنظر ، وكما قلت من قبل إنه قد يستهوى ملايين الفتيات ..
وانني لولا سقم تفكيره .. وتفاهة عقلية .. ولولا أنني
لم أكن أملك قلى .. لما اعتبرت زواجه كارثة ، بل لما رأيت
فيه إلا كما رأى أبى « لقطة كبيرة » .

وأقبل « توتو بك » وأصدقائه يحيطونني بهالة من
الإكبار والإعجاب ، وحاولت جهدى أن أباد لهم مرحهم ،
وقلت لنفسى إننى يجب من الآن أن أكون مخلوقة جديدة ،
وأن أحاول ألا أدع حب « أحمد » يتسرب من مكمنه ، بل
يجب أن أندى ، وأن أبذل كل جهدى لأظهر بمظهر المرحبة
بحياتها الجديدة .

ولم أكن قد رأيت أخى طيلة اليوم ، وعجبت لغيبته ..
ولكنه بدا لى أخيراً .. وتقدم إلى متكلفاً المرح
والسرور .

ولم أشك فى أنى قد نجحت فى التجلد والتماسك إلى أبعد
حد ، بل إنى وجدت المسألة أسهل كثيراً مما كنت
أتصور .. ورأيتنى أروح وأغدو ضاحكة مبتسمة .
« أى جهد ولا مشقة » .

واتحى بي أخى جانباً .. ثم همس فى أذنى :

— لقد دعوت أحمد .. فهل يسوءك هذا ؟

وأخذت بقوله .. وأصبت منه بما يشبه لسع الجر ..
ولكن لم هذه الرجفة ؟ ألم أدع أنى قد انتصرت على
مشاعرى ، ووأدت حى ؟

وقلت له وأما أنكلف قلة الاكتراث :

— يسوءنى ؟ لا .. لا .. على الرحب والسعة .

— لقد كان لابد أن أدعوه .. ردّاً على دعوته ..
ولا أخذ على خاطره ، ، وظن — كما قلت — أن
بيننا خصاماً .

— أجل .. أجل .. لقد كان لابد أن تدعوه .

ولقد تملكنى إحساس بالرهبة والخوف . ولكنه
كان خوف تمتع .. ورهبة لذيدة .

ألم أكن أوشك أن أرى « أحمد » ، وأتحدث إليه ؟

ولكن أين ما ادعيته من كبت المشاعر ، وقتل القلب ،
وواد الحب ١١ وعلام هذا الإحساس بالمتعة .. والشعور
باللذة ؟

أحقاً قد وأدت حى ؟

ولكن لم لا أوجل وأده هذه الليلة ؟ ليلة واحدة ١١

أأستكثر على نفسى ليلة واحدة ، أتزود منها للعمر كله ؟

وأخيراً انتهت الإجراءات الوهمية التى أجراها الشيخ
المعمر الذى لقبوه « بالمأذون » ، ووجدت نفسى فى غمضة
عين قد صرت زوجة .

آية سخرية هذه ؟ لقد جلست أنظر إليه وهو منهمك فى
الكتابة ثم تتم كلاماً لم أسمعه وأخذت أردد معه أقوالاً كأنى
يغاه ، وأنا شاردة الذهن ، أصوب النظر فى لفافة عمامته .
وأخيراً سمعت ألفاظ التهئة تتواتر على مسمى .

أهكذا انتهى الأمر ؟

أهذه الإجراءات التى تبدو كأنها « عقد إيجار » أو
« صفقة شراء » ، يقام لها من الوزن والاعتبار ما لا يقام لكل
ما أملك من مشاعر نحو أحمد ؟

أتفاهم الأرواح ، وامتزاج الأنفس والقلوب ، لا يحلل
الصلوات التى أحلها ذلك الشيخ المعمر بكتاباته وقرائاته ؟
أأضخى بهذه التفاهات الشكلية ملكاً لرجل لا تربطنى به
آية صلة ، ولا أحس نحوه أقل عاطفة ؟

أتزيل هذه الكتابة كل عقبة .. بينى وبينه .. وبقف
الحب العميق القوى مكتوف الأيدى ؟

أنتيج لى تلك الوثيقة المخطوطة .. أن أفعل .. ما لو فعلته
بدونها — حتى مع أحمد — لا عبرت فاسقة ، واستحققت
الرجم بالحجارة ؟

يا لحق التقاليد وسخفها ؟

لقد قضى الأمر وأصبحت زوجة بفعل هذا المأذون ..
الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه !

وأخذت الدار تعج بمن فيها .. واختلط الحابل بالنابل ،
وامتلات الحجرات والصالون .. واحتشدت الحديقة بمن
فيها .. ووقفت أنا بين الجموع أقلب فيهم البصر ، وأتطلع
إلى الباب بين آونة وأخرى .

ونجاة أحسست بقلبي يدق بعنف .. وزال عني
كل ما ادعيت من تماسك وتجلد .. فقد رأيت أحمد يشق
طريقه بين المدعوين ويلتفت يمنة ويسرة باحثاً عن شخص
يعرفه . حتى التقت عينانا .

وتقدم إلى بئبات ، وقد كما وجهه شبح ابتسامة ،
ثم شد على يدي قائلاً :

— مبروك يا عايدة .

— الله يبارك فيك .. وأنت أيضاً مبروك .

وتتم برد خافت .. وبدأ عليه كأنه يقاوم اضطراباً

شديداً ، وأخذ يتلفت حوله كأنه يبحث عن مفر حتى وقع
بصره على أخى .. فاستأذن منى واتجه نحوه ، وسرعان
ما اختفيا بين المدعوين .

وتملكنى ضيق شديد ، وكرهت ألا يكون بيننا فى اللقاء
الآخر أكثر من كلمتي تهنتة .. أو على الأصح تعزية !
وأحسبت بدافع شديد يدفعنى إلى أن أخلو به ، وأن
أتفاهم معه .

حرام أن نختم حبنا بمثل هذه الخاتمة الجافة الباردة ..
إذا لم يكن من الفراق بد .. فلا أقل من وداع جميل ..
يعزينا عن البعد والحرمان .

يجب أن أشرح له الموقف كله ، حتى أرفع عن نفسى
الظلم .. وحتى نفترق حبيبين .. أو على الأقل صديقين .
وتسللت من بين الجمع الذى أحاط بى ، وذهبت أنتقل
بين المدعوين فى الحجرات وفى الحديقة باحثه عنه ، دون
أن أجد له أثراً .

وأخيراً عثرت على أخى ، ولكنه كان وحده وحجبت
أن أسأله عنه .

ووقفت أمامه برهة .. وقد بدا على التردد .. وكأنما
قرأ ما يحول بذهنى فقد قال لى متسائلاً ؛

— ألم ترى أحمد؟ .. لقد كان معي حالا .. وقد ذهبت
لتحية نجيب بك .. ثم عدت إليه فلم أجده .
وهزرت رأسي بالنفي ، ثم تركته وعدت أبحث وأتقب .
ألا يحتمل أن يكون قد رحل ؟
وأحسست بغىظ شديد .

هذا العنيد المتكبر .. لم عجل بالانصراف ؟ .. لم لا
ينتظر ؟ لم يأتني على متعة الوداع ؟

وسرى إلى نفسي الحزن واللوعة وبت أضيق بكل هذا
الضجيج والصخب والأنوار .. وتلهفت إلى لحظة سكون
وخلوة ، ووجدت نفسي أنسحب من بين المدعوين
وأنتجه إلى الشرفة الخلفية المطلة على الجزء الساكن من الحديقة ،
والتي شهدت ميلاد حبنا .. عندما رأيته أول مرة بعد
تخرجه .

وفي الظلمة السائدة رأيت شجراً يستند بمرفقه على حافة
الشرفة وقد أولانى ظهره وأخذ يحرق في الأشجار المعتمة .
وأصابني رجفة ، وهتفت بصوت خافت :

— أحمد !

أجل لقد كان هو بعينه أحمد .

ترى أى إحساس قد دفعه إلى المجيء إلى الشرفة ؟ أى شعر
كما أشعر . . ويحس كما أحس ؟

أيريد أن يشهد الشرفة نهاية حب ولد فيها ؟ أيريد أن يجعل
من المهد لحداً ؟

ليكن له ما يريد .

ومضت برهة قبل أن ينبس ، ثم أجاب دون أن يستدير
ليواجهنى ، بل استمر مولياً وجهه شطر الحديقة :

— نعم .

— لم فعلت ما فعلت ؟

واستدار ببطء ليواجهنى . . وأجاب فى لهجة مريرة
مستكرة :

— أنا الذى فعلت ؟

— أجل . . لم تنتظر ؟

— أنتظر ؟! أى شىء أنتظر ؟

واقتربت منه ومددت يدي فأخذها بين يديه ، ومضت
برهة وكلانا ينظر إلى صاحبه فى صمت وهمست قائلة :

— لا تحقق على ؟ لم أكن أملك من أمرى شيئاً . . لقد

تعوّدت دائماً أن أخضع . . أنت تعلم كيف نشأت ، وتعلم

أنه لم يكن في وسعي أن أقاوم أو أرفض .. وكان الأمر
يبدو لي أنه لا يمكن أن يتم وأن السماء لن تتركني .. كنت
أصلي ليل نهار ، وأنتظر معجزة تنقذني .. وكنت واثقة
أنى سأعود إليك في النهاية ، حتى علمت أنك قد تزوجت ،
فأصابني صدمة قاسية .. حرّلت نفسي وقلبي رأساً على
عقب ، وأحدثت في نفسي ثورة جامحة ، جعلتني أحس أنى
أستطيع أن أقاوم وأصرخ وأرفض .. ولا أخضع
كعبدة ذليلة .. لقد بت أشعر أنى أجرو على كل شيء ،
وأنى على استعداد لأن أنطلق معك هاربة ، وأن أتبعك
حتى نهاية العمر : عشيقه ، زوجة ، خادمة ، أى شيء بات
يرضىنى ، فما أصبحت أقيم لهذه الشكليات وزناً مادمت
أضمن أن أكون معك دائماً ، ولكن ما فائدة هذه المرأة ،
وقد جاءت في النهاية ، بعد أن قضى الأمر .. وأصبحت
يائسة منك !

ورفع يدي إلى شفتيه وأخذ يلم أطراف أصابعي وظهر
يدي وباطنها ويمسح فيها وجهه بحنين بالغ .
وسحبت يدي من يده ، فقد أحسست بنفسى تهاوي
وتهار ، وشعرت بحرارة تسرى من شفتيه ووجهه إلى كل
جسدى .

وعلت على وجهه سحابة يأس واكتئاب . . فقد أحزنه
أن أبخل عليه يدي بعد ما وهبت له من قبل شفتي . .
وتملكني حزن لحزنه . . واكتئاب لاكتابه . . وكرهت
أن أكون سبباً لشقائه .

وترك يدي من يده ، وأطرق برأسه وقال :

— لا فائدة . . يجب أن نفرق . . من الحق أن نحكم
شد أنفسنا برباط سيودي بنا سوباً إلى الهاوية . . لا أمل
لأحدنا في الآخر . . فيجب أن نفرق وأن ننسى ونستعين
بالصبر . . إن الحياة لا تستطيع أن يفعل الإنسان فيها
كل ما يجب . . ولا أن يحب كل ما يفعل .

وهمت بأن أجيئه ، ولكن تحشرج صوتي وتجمعت
الدموع في مآقي ، وحاولت مغالبتها فلم أستطع ، وأحسست
بها تنساب على صفحة وجهي .

ولمح هو دموعي تلمع في الظلمة . . فأمسك يدي بين
يديه . . ودفن فيهما وجهه . . وشعرت بدموعه الحارة
قنهمر قنبللهما .

وأصابني رجفة شديدة . . وبلغ بي التأثر أشده . . فما
رأيت به يسكني من قبل .

ومضت فترة صمت ، وتعطلت لغة الكلام ، وانقطع كل
تفاهم بيننا إلا بلغة الدموع الصامتة . . التي كانت تنهمر من
أعيننا في سكون فتجلو صدأ نفسينا وتغسل أحزان قلوبنا ،
وتحمل لنا العزاء والسلوان .

ما كان أمتعته من بكاء ١١

هل تصدقوني إذا قلت لكم إنني ما أحسست في حياتي
براحة كتلك التي أصابتنى من ذلك البكاء الصامت المشترك ؟
وأخيراً رفع إليّ وجهه وقال في هدوء :

— إنني لا أريد منك شيئاً ، لا شيء مطلقاً ، وسأحاول
أن أهب لك هبة لا أشك أنك في حاجة إليها ، إنني لا أستطيع
أن أمنحك اسماً ، ولا مالا ، ولا بيتاً ، ولا بنين ، ولكني
أستطيع أن أهب لك صداقتي . . أوجي الصامت الذي
لا أريد له مقابلاً ، إن كل إنسان يحتاج إلى قلب مخلص أمين
يضع فيه ثقته . . ويستعين به في التوائب والملبسات . . إنني
سأكون لك أمّاً وأباً وأخاً . . يجب أن نفترق على هذا ، على
أن يذكر كل منا صاحبه ولا ينساه أبداً . . وأن نستبدل
بالحب صداقة . . ما رأيك ؟

وأحدث قوله المملوء بالخمالة والإخلاص في نفسي
فعل السحر ، وأثر فيّ تأثيراً بالغاً ، وشد كل منا على يد صاحبه

اتفقنا على أن نستبدل بحبنا الجارف صداقة متينة ثابتة .
وقد تسألون أنفسكم : هل يستطيع عاشقان أن ينزعا
عنهما ليغرسا مكانه صداقة ؟ وهل تقوى النفس البشرية على
مقاومة رغباتها وتبديل مشاعرها وتحويل أحاسيسها ؟
وعلى أية حال . . أستطيع أن أؤكد ، أننا كنا في عزنا
وقدناك صادقين مخلصين ، وكنا نحس تماماً أن هذا هو خير
عزاء يمكن أن نهدى به أنفسنا ونطفي به حرقه قلوبنا .
وتناول يدي مرة أخرى وهم برفعها إلى شفتيه ، وهو
ينظر إلى نظرة استئذان خشية أن أعجبها منه كما فعلت قبل ،
لقد سحبتها منه فعلاً . . لأمدها برفق هي ويدي الأخرى
فأحيطه بذراعي . . وأضمه إلى بلاوعي ولا إرادة .
قد أبيت عليه يدي . . ومنحته شفتي .
ما عليّ من بأس ولا حرج . . قبله أخيرة . . هي زاد
العمر كله .

أليس من حق الصائم أن يتزود لصيامه حتى يستطيع
أن يصلب عوده ويقيم أروده ؟
قبله واحدة وبعدها الزهد الدائم . . والصوم الأبدي !
والتقت شفطنا في لطفة عنيفة وشوق مستعر ، وتمتبت

أن تظل شفتانا ملتصقتين حتى آخر العمر ، وأن يحمد في علي
فه .. فلا ينزع أحدهما عن الآخر أبداً .

وأخيراً أيقظنا من نشوتنا صدح الموسيقى المنبعث من
الناحية الأخرى من الحديقة ، فغادرنا الشرفة ، وبنا طرب
النمالي وذهول النشاوي .

أى مجنونة كنت عندما أقدمت على ما فعلت ؟

ماذا كان يحدث لو رأنا أحد ؟

من يصدق أنى أجرو على ذلك في يوم زفافي ؟

ليحدث ما يحدث .. إلى ما ندمت على القبله قط .. فقد

كانت القبله أمتع عندي من يوم الزفاف .. وما بعد الزفاف .

وخرجت إلى زوجي ١١ أجل زوجي ١١ ألم يجعله

لما ذون كذلك ؟ ١١ خرجت إليه وبنفسي شجاعة وجرأة ..

ليفعل بي ما يشاء .. فلقد أمسيت قريرة النفس ، مطمئنة

البال .. ليأخذ من جسدي ما يشاء .. فإن مالك قلبي .. ما زال

يلك .





عبدالله الثاني

الشهر الأول من زواجي « شهر العسل » ، في فندق
قضيت « مينا هارس » .. ولست أستطيع بالضبط أن
أحدد مشاعري خلاله .. بل ما أظن كانت لدىّ فرصة
لكي أشعر بشيء .. فقد كنت أشبه بجواد في حلبة سباق ! ..
سباق بين الحفلات ، والدعوات ، والسهرات ، والمآدب
الحافلة بصنوف اللهو وضروب التسلية .

لم يكن لدىّ وقت لكي أهدأ أو أفكر .. وكانت حياتنا
مثلا للفراغ والجدّة .. ولكنه كان فراغاً أشق من العمل
وأملًا بالحركة والجهد . ولم أحاول أن أقاوم ، أو أرفض ،
أو أخلد إلى الراحة .. فقد كان يبدو لي أن ذلك هو خير
معين لي على تحمل حياتي الجديدة .. وأنه خير منقذ لي من
التفكير والخلوة .. وبين حقيقة مشاعري .. كنت أفضل
أن أستمّر هكذا كطفل يحملونه من أطراف يديه ويلفون
به لفات سريعة حتى يصاب بدوار .. كنت أحس أنني بتلك
اللفات السريعة المنهكة من اللهو .. لا بد أن أصاب بدوار ،
ولا أعود أشعر بما حولي .

ولم يكن هناك مفر من أن أتعلّم الرقص .. وعلام
المقر ١١٩ لقد أبدى لي « توتو » ، أن هذه مسألة حيوية خطيرة .

فلم أجد بداً من موافقته . وبدأت الدروس ، وبعد بضعة أيام كنت أستطيع أن أشاركه حلقات الرقص ، وأدور معه بين الراقصين .

وتعلت كذلك احتساء الخمر . ولم لا . . وقد أفهمنى زوجي أن من الحطة والمعرّة والجهل أن أرفض الشراب . . وآنى لابد أن أعود شرب كأس أو كأسين حتى لا أخجله بين رفاقه وزملائه . . وشربت في المرات الأولى كأنى أشرب دواء مرأ . . ولكنى تعودت بعد ذلك . . إن العادة تسهل لنا كل أمر وتذل كل صعب .

وانتهى شهر العسل وعدنا إلى بيتنا الجديد . . فيلا أنيقة في الدقي أعدت لنا خلال الشهر الذي قضيناه في « مينهاوس » . . وتوقعت أن يهدأ من حولي ذلك الصخب والضجيج . . وان أبدأ في الدار حياة مستقرة . . وصممت على أن أقوم بواجبي كزوجة خير قيام ، وأن أرى شئون الدار . لقد كان « توتو » ، رغم تفاهة عقليته وسخافة تفكيره ، رقيقاً معي في شهر العسل إلى أبعد حدود الرقة . . فصممت على أن أبذل جهدي لكي أخلص له بذهني وتفكيري . . وأن أحاول أن أنزع أحمد من قلبي شيئاً فشيئاً . . وأحله محله . لو استطعت .

وبدا لي أنه بشيء من الإرادة أستطيع أن أنجح فيما نوبته
ولاسيما أنني لم أعد ألتقي بأحمد . . وأوهمني البعد أن تأثيره
علي قد خف ووهي .

وفهمت من « توتو » أن إجازته انتهت بانتهاء شهر العمل
وأنه عين في منصب رئيسي في إحدى الشركات الأجنبية
الكبرى . . وتوقعت أن يبدأ عمله . . وأن يخرج في الصباح
ويعود في الظهر . . كما يفعل كل ذي عمل . . وأن الأمر قد
لا يخلو من ذهابه أيضاً بعد الظهر . . وصممت على أن أبدأ
عملي في الدار كما كنت في بيت أبي . . وأن أشرف على أعمال
الخدم ، وأراقب المطبخ . . وأن أكون « سيدة بيت » بمعنى
الكلمة .

ولكنني وجدته يخرج أول يوم ، ثم يعود بعد ساعة .
ويطلب مني ارتداء ملابس للذهاب إلى جروني . أو إلى
« نادى سبورتنج » أو إلى أحد النوادي الأخرى ، لنقضي
الصباح بين « شلة » من أصدقائه المتزوجين والعزّاب .
وأدهشتني عودته . . ولكنه أنبأني أنه قد أنهى عمله .
وأنه لا يستطيع أن يعطيهم من وقته أكثر من ساعة . . بل
إن ساعة كثيرة عليهم .

والظاهر أن الساعة فعلاً كانت كثيرة عليهم . . فقد بدأ

ينخل بها وأصبح لا يكاد يذهب إلى الشركة إلا لأخذ مرتبه .
وما العجب في ذلك ؟ ! وأى عمل يمكن أن يقوم به
توتو بك ؟ وهو الذى طالما صرح أنه لا يكره شيئاً كالعمل .
إن العجيب حقاً هو أن يعطوه عملاً ، إذ كان كل ما يطلب
منهم هو الراتب الشهري ، مراعاة لحظاظ « صاحب الدولة »
وتوقعاً لعودته إلى الحكم .. وكانت الشركة بعيدة النظر فلم
ينخل عليه به لأنها لا تريد جهد « توتو بك » أو خبرته ..
ولكنها تريد نفوذ أبيه .

وهكذا بدأت أجد نفسى مرة أخرى في شهر عسل
جديد ، وقد يكون قضاء شهر في الفراغ واللهو أمراً يمكن
احتماله ، أما أن نقضى العمر كله هكذا فذلك ما أفرغنى .
لقد تعودت دائماً أن أفعل شيئاً ، وأن نقضى بعض
الوقت في اللهو للترويح عن نفسى بين آونة وأخرى ، ولكنى
لم أتصور قط أن أضيع كل وقى في اللهو .. لقد كان هذا
فوق طاقتى ، فما كان لي جلد على ذلك الإجهاد والسهر .
لقد أخذت السامة والملل تعتربنى .. حتى بدأت أجد
بعض التسلية في أحد النوادى التى يعلم فيها ركوب الخيل .

كنت أفضل أن أضيع وقى — ما دام لا من تضيق
الوقت — في هذا النادى دون غيره من الأماكن المضيعة

للموت ، لأنه كان أكثر هدوءاً . . ولأن رواده كانوا قلة
محدودة . . وكانت جلسته أقرب إلى أن تكون جلسة منزلية
عائلية .

وكان النادى محبباً إلى نفسى ، وكنت أشعر بارتياح
شديد إليه . . وكنت أعجب بمنظره وأبنيته والجو المحيط به . .
لست أدري لم أأفكثيراً ما يرتاح الإنسان إلى شيء دون
أن يحاول أن يناقش نفسه في سر ذلك الارتياح .

كان يعجبني كل شيء فيه . . صالونه الزجاجى الذى يطل
على الميدان الأخضر الفسيح ، تبدو في أفقه أشجار الكافور
والجازورينا ، والسرو المحيطة به . . والمدخنة التى تترامى لى
في أقصى الأفق من وراء الأشجار . . والذى قد تناثرت فيه
حواجز القفز . . وتفرقت فيه الخيل تسير خيلاً وقد اعتدل
عليها ركابها . . وبدأ شعرها في الشمس فضياً لامعاً أو أشقر
براقاً .

وكنت أجلس على الاراتك المنخفضة أقرب الميدان
من وراء الزجاج أو أتسلى بالقراءة في أشعة شمس الشتاء
الدافئة التى تسمح الزجاج بحرارتها ، بعد أن حجب عنا برودة
الريح .

كان كل شيء يشعرنى بارتياح . . صور الخيل الملونة

الأنينة المثبتة على الجدران ، والفضاء الخلقى المغلق المفروش
بقش « السبلة » .

و كنت كذلك أستطيع عندما أمل الجلوس والحديث
والقراءة أن أخرج إلى منضدة « البنج بنج » الموضوع في
الشرقة الخارجية ، فأتسلى باللعب مع بعض الصديقات
لوا الأصدقاء .

كل ذلك كان يجعلنى أفضل النادى على سواه من
الاماكن التى كنا ترتادها كجروبي أو نادى « أسبورتج »
أو غيرهما .

و ثمة سبب آخر .. سبب خفى لم يكن يحسر على أن يطل
برأسه صراحة بجوار غيره من الأسباب .. ولا أن يتخذ مكانه
فى ذهنى .. ويهرؤ على أن يحول بخاطرى دون خجل .. ولا
خشية .. بل كان يرسم فى قرارة نفسى قابلاً منزوياً .. فى
سكون وهدوء كأنه غير كائن .

كان السبب أقواها جميعاً .. بل لى عند ما أحاول الآن
أن أحلل مشاعرى وقتذاك أجده هو وحده أساس ذلك
الارتياح والرضا والتفضيل .

كنت أحب الفروسية والركوب والسبلة ، وكل ما يمت
إلى الخيل بصلة .. لأنى كنت أشم فيها عبق الماضى العطر ..

واسمع فيها لحنه الممتع .. كنت أرتاح إلى كل هذه المناظر لأن
فيها أصدااء من الذكريات الغابرة .. . وكنت أكاد أبصر فيها
« أحمد » .. وأذكره بخذائته الطويل ، وقوامه الفارع ، وجلسه
على الحصان .. وحديثه عن الاصطبلات والطومار وأحواض
السقي والعليق .

كنت رغم محاولتي الإخلاص لزوجي بالجسد والذهن ،
ورغم نجاحي في ذلك .. . وقناعتي بحياتي الجديدة ، ورضائي
بمحالي الراهنة .. . وتوهمي أن حب « أحمد » قد تضام في قلبي
وانكمش .

كنت رغم ذلك كله لا أستطيع التخلص من ذلك الحنين
الخنفي .. الذي لا يجرؤ على الظهور والذي يجعلني أستريح إلى
مكان معين دون أن أدري لارتياحي سبباً .

ولم أحاول طبعاً أن أدخل في روعي أن ارتياحي
للفروسية وبميلي الخنفي إلى الخيل ، يعتبر خيانة لزوجي ، لأنني
كنت واثقة من نفسي مطمئنة إلى قدرتي على أن أعصم نفسي
من الزلل .. . بل إنني كنت رغم رؤيتي لكثير من ضباط
السوارى والحرس . ورغم توقعي أن أرى « أحمد » في أي
يوم ، لم أحاول أن أسمح لنفسي بأن أتلهف على لقائه أو أتوق

إلى رؤيته .. بل كنت أكثر من ذلك أشكر الظروف لأنى لم أراه فى النادى قط .

وسارت حياتى على وتيرة منتظمة لا تختلف يوماً عن يوم ، واستطعت أن أعود حياة الخمول والفراغ فلم أعد أتبرّم بها كثيراً .

كنا نستيقظ فى التاسعة أو العاشرة ، وبعد مضى ساعة من الاستيقاظ نكون قد انتهينا من الإفطار ، وارتدينا ملابسنا ، ثم نخرج قاصدين إلى النادى ، أو جريدى ، أو إلى إحدى دور السينما ، ثم نعود فى الثانية بعد الظهر إلى البيت للغداء .. إذ لم نكن قد دعينا لتناوله عند بعض الأهل أو الأصدقاء .. وبعد الظهر نذهب إلى أحد الأماكن التى لم نذهب إليها فى الصباح ، وفى الليل إما أن نذهب إلى السينما أو إلى حفلة راقصة ، أو إلى ملهى من الملاهى الليلية .

وكنا فى معظم زهراتنا .. مع صحبة معظمهم من الأزواج الذين لا يختلفون فى مشاربهم وأهوائهم وتقاهاتهم عن زوجى .. والزوجات اللاتي لا يختلفن عني كثيراً بعد أن أضحيت زوجة .

وهل أستطيع أن أنكر أنى قد صبغت بصبغهم المدللة

التافهة؟ ألم يقل المثل « من جاور الحداد كوته ينساره » ،
« ومن عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم » ؟
وكان معظم لقائنا مع الصحبة في النادي ، ولا أنكر أن
الفترة الأولى من صداقتنا لهم كانت برتبة لانشوبها شائبة ،
أو على الأقل ، إني كنت مخدوعة بمظهرهم ، حسنة النية في
ظني بخلقهم . . ما ظننت قط أنهم عصبة ذئاب ينهش بعضها
ظهور البعض الآخر .

لم أكن أتوقع قط أن يخيب أملى في ذلك النادي
المحبب إلى نفسي بمثل هذه السرعة ، وأن يتضح لي أن النادي
للخيل وللذئاب .

كنت حسنة النية حتى بدأت ألاحظ ذات يوم أن أحد
الأصحاب ، العزّاب ، يلزم زوجة صاحب آخر كظلمها ،
وأهما كثيراً ما يختليان في أحد الأركان فيقضيان الساعات
في همسات خافتة . وأدهشني الأمر ، وقلت « لتوتو » : إن
فلاناً وفلانة لا يبدو منظرهما وتصرفهما مستساغاً ، وأنه
يجب عليهما أن يراعى مشاعر الزوج .

ووجدت « توتو » ينظر إلى ثم يضحك في سخرية :
— الظاهر إنك ما زلت « غشيمة » . . . هذه الأشياء
طبيعية جداً .

وأصابني الدهش وقلت متسائلة :

— ما هي تلك الأشياء الطبيعية التي تتحدث عنها؟

— سرقة الزوجات من أزواجهن ، والأزواج من

زوجانهم .. هنا ناد ، وخاطبة .. كان يجب أن يطلقوا

عليه ، النادي الشرعي ، لكثرة ما يحدث فيه من حوادث

الطلاق والزواج ، أو على الأصح .. النادي غير الشرعي .

وأجبتة مستنكرة :

— عجبا ! ما ظننت أشياء كهذه تحدث في ناد محترم ،

وبين قوم لهم مكاتهم ..

— وما دخل ذلك في الاحترام .. هنا يطلق الأزواج

ويتزوج العزّاب .. إذا دخل متزوجاً خرج أعزب ، وإذا

دخل أعزب خرج زوجاً .. لذلك كنت أفضل أن أدخله

ولياك قبل الزواج حتى نخرج منه زوجين بدلا من أن

نخرج مطلّقين .

— هذا تشنيع منك ؟

— تشنيع ؟ . هذه أقوال تستند على وقائع .. اسمعي ..

هل تعرفين على بك رسمي .. لقد اشترك في النادي عزباً ، أما

درجته فقد كانت زوجة أحمد عبد الله .. هذه واحدة . عدي

على أصابعك ، أما مدام سمّاحه ، فهذا ثالث لقب لها ، فقد

كانت منذ بضعة أشهر . مدام فتوح ، ، ومنذ ستة كانت
. مدام محرز ، والأزواج الثلاثة أصدقاء وزملاء في النادي .
وعلى فتح الدين ، لقد ، لطش ، زوجته تلك من . مسيو
سكارابي ، ويبدو لي أن الأخير يوشك أن يستعيد هاتمه ،
وابراهيم زكي ، وعلى عبد الرحمن . . تبادلا زوجتهما .
ما رأيك ؟ أتعبرين أقوالى تشنيعاً ؟

— هذه أشياء عجيبة ، لا يصدقها عقل !

— على أى حال . . لا يقلقك أمر محمود ، ودعى زوجته
تناجى مع فتحى ، حتى تتيج له الفرصة لمرادة أخته . ميسى .
إنها حلقة مفرغة ، ليس فيها خاسر ، فهذا ينهش ذاك ، وذاك
ينهش هذا .

واقشعرت بدنى ، من أقواله ، وبدأت أحس بكره للنساذى
واحتمار لأعضائه ، ولم أعد منذ ذلك الحين أشعر بذلك
الارتياح الذى كنت أحسه من قبل ، وبدأت أتوجس من كل
نظرة خيفة ، وأتوقع وراء كل حديث شراً .
ويخيل لي أن أقوال زوجى لم تكن سوى مقدمة لأحداث
توشك أن تقع ، وأنه هو نفسه كان ينوى أن يتخذ مكانه
في الحلقة المفرغة ، وأنه كان يستعد لخوض معركة الذئاب . .
والاشتراك في عملية « النهش » .

كان من بين أصدقائنا الأقربين .. زوجان : محمود وشكري
وزوجته فاطمة صالح ، أو كما كنا ندعوهما : حوده ، وطمطم ،
وكان الزوج أحد أولئك المخلوقات التي حرّمها الله أية مزية من
المزايا التي يمكن أن ينعم بها على عباده .. إلا مزية واحدة
عوّضته عن بقية المزايا خير عوض ، وهي أنه خرج إلى الحياة
فوجد في انتظاره بضعة آلاف من الأقدّة ، ركوماً من النقود
قد كدّ في جمعه أجيال من الآباء والأجداد ، وبذلوا في سبيل
الحصول عليه ما ملكوا من عرق وجهد ، وصحة وشباب ..
وقد يكونون ضحوا من أجله بالكرامة والخلق .. ولقوا من
وراء جمعه صنوف الشقاء في الدنيا ، واستحقوا العذاب
في الآخرة .. لقد ضحّت الأجيال المتعاقبة بالعاجلة والآجلة
لكي يجمعوا كل هذا الحشد من الثراء .. ثم ذهبوا جميعاً ،
وخرج صاحبنا الغني المقعد المكسّال .. الذي لا يستطيع
أن يكسب مجرد القوت .. ليجد كل ماشق التعساء في جمعه ،
لقمة هنيئة مريثة ، ويمجد كل مهمته في الحياة محصورة في أن
يصرف ذلك الكوم من الثراء .. وأن يأكل تلك اللقمة
السائغة الجاهزة .. لا يطلب منه إلا جهد الصرف ، ومشقة
المضغ ، ولو استطاع أن يستعين بمن يفتح له فيه ويحرك له
فكيه .. لفاعل .. كان الله في عونته .

هذا هو « حوده بك » ، وظيفته في الحياة .. غنى . أو ..
وجه .. أو « صريف » .. وكنت أرى فيه — هو وأمثاله —
نصف إنسان .. فالإنسان الطبيعي وظيفته في الحياة .. هي
الحصول على النقود لكي يصرفها في سبيل العيش .. أما هو
فكان نصف إنسان .. النصف المتمم .. للنصف الأول ..
وهو أبوه الذي أورثه ما ملك .. كان أبوه يحصل على النقود
ولا يصرف .. أما هو فيصرف ما لم يحصل عليه .. صدق من
قال « مال الكنزى للزهى » ، أما طمطم .. فقد كانت تقوم
بدور « أوجه الصرف » ، أو البالوعة التي تنسرب فيها ثروة
الآباء الكرام .

كانت امرأة فاتنة .. جمالها من النوع الصائح الصارخ ..
الصاحب الضاح .. الذى يمسك بتلابيب الأبصار ، ويفخر
الأنفواه .. « ويلوح » الرقاب .. كانت عند ما تجلس أو تسير
قشرتب إليها الأعين وتمتد الأعناق .. فإذا سارت ظلت
العيون تتبعها حتى تختفى .

ليس من السهل على المرأة أن تعترف بجمال امرأة أخرى ،
ولكننى أقر وأعترف أنها كانت أجمل من رأيت .
كانت عاجية الجسد ، بيضاء نقية ، وكان وجهها مرسوماً
بمتهى الإنفاق لا عيب فيه ولا هنة ، وكانت به استدارة

حلوة ، وكانت شفتاهما مصنوعتين جيداً ، وأنفها دقيق ،
وأهدابها تلتقي على عينيها الخضراوين الصافيتين ظللاً لا قائمة .
وكنْتُ أحبا وأحسن الظن بها ، رغم طيشها ونزقها . .
وكنْتُ واثقة فيها . . لم يخطر ببالى أن أغار منها على زوجى . .
أولاً لأنى لم أكن أشعر بأى استعداد للغيرة على زوجى . .
وثانياً لأنى كنْتُ أعلم أن لها زوجها

ولكن حدث أن بدأت ألمح إقبالا منها على زوجى ،
وإقبالا منه عليها . . وقد يكون ذلك شىء غير جديد ، فقلعه
كان موجوداً من قبل . ولكن لم يفتح له عيني سوى حديث
زوجى المستهتر عن أعضاء النادى ، وعن سرقة الأزواج
والزوجات .

ولم أعر الأمر كثير اهتمام فى بادىء الأمر ، ولم أبد أقل
اكتراث عندما كان يتركنى ألعب البنج بنج ، ويخلو هو إليها
فى أحد الأركان يتهامسان ، أو يحاول أن يذهب لتوصيتها
بالعربة إلى أى مكان تريد الذهاب إليه .

ولم أبد أقل حماية بتلك الحركات ، بل كنْتُ أحتقر نفسى
لو حاولت الاهتمام بذلك ، الإنسان الزاه ، زوجى . . وكنْتُ
أعبر غيرتى عليه تكريماً له لا يستحقه .

ولكن المسألة بدأت تدهشنى عندما وجدت أن زوجها

• حوده بك ، لا يغير الأمر أيضاً كثير التفات ، وأنه لم يظهر أقل غيرة ، ولا أدهشه أن تخرج زوجته مع زوجي ليوصلها بعربته .. رغم وجوده هو وعربته .

لقد بدا لي كأنه يجد المسألة جد طبيعية .

وحتى هذا لم يكن يثيرني .. فما كنت أعتبر نفسي مسؤولة عن صيانة شرف الرجل ، وإثارة نخوته ورجولته .. إذا كان لا يغار على زوجته ، فذلك أمره وحده ، لا شأن لي به .

ولكن الذي أثارني تماماً .. وجعل دمي يغلي في عروق هو أن الزوج المحترم ، بدأ يلازمي ، وينصب شراكه حولي ، ويحاول أن يستعيز بي عن زوجته ، أو أن ينهش عرض من نهش عرضه .. وإذا بي أجد نفسي - دون أن أدري - داخل الحلقة المفرغة .

ولم يأبه زوجي ولم يعترض .. كما لم يأبه الآخر ولم يعترض . فقد كان في شغل شاغل عني بزوجة صاحبه .. كما كان صاحبه في شغل شاغل عن زوجته بي .

وتمسكني غيظ شديد .. فقد وجدتني لا أزيد لدى زوجي عن سلعة بسيطة يملكها .. ليس أسهل عليه أن يستبدلها أو يستعيز عنها .

ولم أجد هناك فائدة من أن أثير زوجي أو أثور عليه ،

أو أفهمه أنى لست على استعداد بالقيام بذلك الدور المهيمن ،
فقد أدركت أنه لن يعأبى . . ولن يقلعه عن غيه خوف على
عرض ، أو ثورة على شرف . . وما دام قد استساغ لقمة
غيره . . فليستسغ غيره لقمته . . أو - كما قال - ما دام ينهش
فلا بأس عليه من أن ينهش .

ورأيت أن خير ما أفعله هو أن أرمى طوبته . . وأن
أدافع عن نفسى بنفسى وأن أنجاهله وأنغافل عنه . . معتبره
نفسى بلا زوج . . وأن أتركه يسير فى غيه ، على أن أصد
عن نفسى هجوم الآخر . . أتقيه وأنحاشاه . . وأن أتسلل
ناجية بنفسى . . هاربة من عصبية الذئاب .

ليفعل زوجى ما يفعل . . فما توقعت منه إلا كل نقيصة . .
وما كان لى أن أدهش من أى مسكر تأتبه عصبته . . عصبية
الذوات المدللة المرفهة . . الأرستقراطية العليا . . القديرة
على كل سفالة . . الرقيقة المتهتكة . . الراقصة بالفرنسية . .
المترفعة عن الشعب . . شعب الهمج والأوباش .

ليغازل زوجى من يشاء . . وليسرق من الزوجات من
يرغب . : فلن يكون لى به شأن . . ولن أكرمه بالغيرة أو
الاهتمام . . إن واجبى هو أن أترفع عنهم جميعاً . . وأن أبى
شريفة عفة فى هذا الوسط الملوّث .

أجل .. سأدعه وشأنه .. ولكن .. على نفسي .
وهكذا بدأت أنخذ لنفسي خطة الانكماش والتباعد ..
وتحاشى صحبة السوء .. وتجنب محمود شكرى على الأخص
والإعراض عنه .. والنفور منه .. حتى أصدده تماماً .
وأقلت من الخروج ، وخاصة إلى النادى . وبدأت أقبع
في دارى ، ولم أجد إلحاحاً من زوجى في اصطحابى معه كما كان
يفعل دائماً عندما كنت أحاول أن أنخلف في البيت .. بل
بدالى أن ذلك قد صادف هوى في نفسه إذ كان يتيج له
فرصة الانطلاق وحده والتحرر من قيود صجبتى حتى يخلو
له الجو مع صاحبتة الجديدة « طمطم هانم » .

وانقطعت تماماً عن الذهاب إلى النادى .. حتى كان
موعد الحفل السنوى ، وذهبت بصحبة زوجى إلى النادى في
اليوم النهائى للاحتفال ، وكان النادى قد اكتظ بالمشاهدين ،
ورأيت مدرجات طويلة قد أقيمت . على الجانب الأيسر
للساحة .. الجانب الملاصق للسور المطل على النيل ، وابتصرت
الاعلام الملونة ترفرف في أعلى الأعمدة .. والخواجز
البيضاء قد رصت فوق الأرض الخضراء ، وفي أحد الأركان
أقيمت منصة الحكام وقد أخذوا يتشاورون ويعطون صوت
أحدهم في مكبر الصوت بين أونة وأخرى .

وانتهت وزوجى إلى مبنى الأعضاء .. وقد بدا كخليفة
النحل ، وأخذ الضباط يحولون فى المكان بأخذتهم الطويلة
وأزراهم اللامعة ، والزرر الفضى الذى يحلى أكتافهم .. أما
المتسابقون المدينون فكانوا يبدون بأخذتهم السوداء
وبنظلو ناتهم البيضاء وسترهم الكحلية الطويلة .
وقد شاع فى المكان جوّ من الآهة والأرستقراطية ،
وبدا كأنه معرض جمال وأزياء .. ووجهة .. وأخذ
المصورّون الصحفيون يلتقطون الصور للشخصيات المعروفة
والوجوه الجميلة .

وصعدت وزوجى إلى الشرفة العليا .. وتلفت زوجى
يميناً ويساراً كأنه يبحث عن شيء معين .. ثم وجدته يمسك
يمنى ويقودنى إلى أحد الأركان قائلاً :

— هيا بنا نجلس بجوار حوده وطمطم .
وسرت بجواره .. فقد كان من الحمق أن أبدى أى حركة
غير طبيعية للتراجع أو الانسحاب أمام حشد الناس الذى
يحدق فىنا .

ولم التراجع ؟

ماذا يضيرنى من أن أصاحبهما خلال الحفل ثم نفرق

بعد ذلك ؟

وتبادلنا التحيات وسألاهما وغيرهما من الرفاق الجالسين
معهما .. عن سبب اختفائي وإضرابي عن الحجى .. إلى النادى
فضحكت وقلت لى كنت متوقعة المزاج .

وجلسنا نتحدث ، وأعطانى أحدهم برنامج المسابقات ..
وأخذت ألقى على أسماء المتسابقين نظرة عابرة .. توقف بصرى
خلالها أمام اسم بارز من بين الأسماء وهو « ملازم أول
أحمد عبد السلام » .

ودهشت قليلا لأنى لم أتوقع أن أجده مشتركا فى
المسابقات ، ولأنى لم أبصره قط راكبا فى النادى .. وحتى
اليوم لم ألمح وجهه بين وجوه الضباط الرائحة الغادية ، رغم أنى
كنت أبحث عنه بعينى خفية .. خفية حتى عن نفسى .

وبدأ السباق .. ودخل المتسابق الأول الساحة وأخذ فى
القفز .. ولم تمض بضعة ثوان حتى أحسست بـ « طمطم » تنهض
وتنسحب من جوارنا مستأذنة قائلة إنها ستعود حالا .

وانتهى المتسابق الأول .. وعلت أصدااء التصفيق .. ثم
بодى على المتسابق الثانى .. وبدأ القفز .

وبنفس الطريقة تسلل زوجى من جوارى ، ووجدت
نفسى أجلس وحيدة مع محمود شكرى .

وشعرت بدمى يغلى فى عروقى .

إني لم أحاول قط أن أغار .. أو أتصرف بأي حق .
ليفعل زوجي ما شاء .. ولتفعل الأخرى ما شاءت ..
ليذهب الإثنان معاً ، إلى الجحيم ، فذلك ما لا أعبأ به مطلقاً
ولكن تسللها وقتذاك .. بتلك الطريقة المكشوفة ..
وتركي وحيدة مع الزوج البارد المتغاضي .. وتهامس
الناس .. وتحول أبصارهم من ساحة السباق إلى جعلني أعلى
بالغضب .

لم تعد المسألة مسألة غيرة .. ولكنها كرامة مهددة
وكبرياء مخطمة .. واستهتار بي .. واستخفاف بعواظي .. على
ملا من الناس .

ولم أستطع أن أمنع ذلك الدم المتصاعد إلى وجهي ..
والحرارة التي تنبعث منه .

وزاد من ثورتي أنني أحسست بيد الزوج اللاحق تتسلل
فتوضع على يدي بمنتهى البساطة .

ولم أجد وسيلة تكبح جماح غضبي ومنع حدوث فضيحة
سوى أن أنهض أنا الأخرى بهدوء ، وأعود أدراجي إلى البيت
وأنتظر عودة زوجي حتى أسوى الأمر معه .

وكما فعل الإثنان فعلت ، وتسلك بين الصفوف هابطاً
الدرج إلى أسفل ، ودلفت من الممر الضيق متجهة إلى الشرقة

السفلى التى كانت توضع فيها منضدة البنج بنج .. عندما
أوشكت أن أضدم بشخص قادم من الشرفة .

ورفعت إليه بصرى .. متممة بيضعة كلمات اعتذار ..
فوجدته أحمد .

وحاولت جهدى أن أخفى ما بي من انفعال .. ومددت
إليه يدى مبتسمة فشدّ عليها .. وقد تملل وجهه سروراً ..
وسألنى سؤاله التقليدى :

— إزبك يا عايده !

— الحمد لله .

— إلى أين ؟

— إلى البيت .

— لمه ؟

— أحس ببعض التعب .

وبدا عليه الانزعاج وتساءل :

— كيف ؟

— صداع خفيف .. ولكنى أفضل أن أستريح .

— ألا تبقين قليلاً .. على الأقل حتى تشاهدينى ؟

وذكرت كيف كان دائماً يقول لى إن أحب أمنية السم

هو أن أشاهده يقفز أمامي في مسابقة ، ويعتقد أنه سيستمد
من وجودي قوة تجعله يأتي بالمعجزات ، ويقفز إلى عنان
السماء .

وبدا عليّ التردد .. فعاد يقول :
- إنك لم تشاهديني أقفز قط ، وسأستمد من وجودك
ثقة . إذا عرفت أنك تشاهديني فلا بد أنني فائز .. أستاذين ؟
ولم أكن أستطيع أن أقول : لا . فهزئت رأسي موافقة .
وشاع في وجهه الرضا وقال :
- أمامي اثنان حتى يحل دوري . . لن أجعلك تنتظرين
طويلاً :

وسرت إلى الصالون الزجاجي . . وهو يسير بجواري ،
واتخذت مجلسي على مقعد أمام إحدى المناضد ، وأشارت إليه
بالجلوس . . وتردد قليلاً وسألني في أدب ، وبلهجة ملؤها
الاحترام :

- أين تهاني بك ؟
- تهاني بك ؟
وكدت أفقهه ساخرة .
ماذا أقول له ؟ أقول إنه « زاغ » مع عشيقته وتركني
ليتسلى بي زوج عشيقته ؟

تصوّروا لو أنّي قلت له هذا ، وهي الحقيقة المبسطة
بلا أى مبالغة .. ماذا كان قائلالى ، وهو الذي يأبى الجلوس
دون أن يسألنى .. عن زوجى .. سعادة اليه المحترم .. خشية
أن يكون فى جلوسه بجوارى أمام الناس — وهو ابن خالتي —
ما يضايق زوجى .

تصوّروا لو أنّي قلت له :

« اجلس .. إن زوجى لا يأبه كثيراً .. . إنك على الأقل
أولى من الغريب .. »

ولكننى لم أر ضرورة للفضائح ، ولم أجد خيراً من أن
أقول له ببساطة :

— لقد كان هنا منذ لحظة ولابد أن يأتى بعد قليل .

« اجلس بجوارى ، وراى بيننا — فى أول الأمر — صمت
قلق مضطرب ، وأحسست بموجة الغضب التى كانت تجتاحنى
منذ برهة قد سكنت ، وبالثورة التى كانت تصطبغ
فى صدرى قد هدأت ، وسرى إلى نفسى — برغى — شعور
ممتع لذيذ منتزع من أغوار الماضى السحيق .

وطال الصمت ، وأنا لا أقول شيئاً ، إذ لم أجد فى رأسى
ما أتى سوى بضع كلمات تافهة ، لا تتناسب قط مع حرارة
الأمميس التى تزخر بها نفسى .

وأخيراً قال .. لمجرد قطع الصمت :

— كيف حالك ؟

— الحمد لله .. وأنت ؟

وأطرق برأسه مفكراً ثم أجاب :

— لا بأس .. الحياة تسير .

وتذكرت أحاديثه عن أمانيه .. الأمانى المرجوة

والتي يعيش بها زمناً رغباً ، وقلت ضاحكة :

— كيف حال الأمانى ؟

— على خير ما يرام .

— أما زالت كما هى أمانى مستطاعة وأمانى وهمية ؟

— هل ما زلت تذكرين ؟ .. إني لا أستطيع العيش

بلا أمان .. ولكن الأمانى تتغير مع الزمن .. فهى إما أن

تتحقق أو لا تتحقق .. فما تحقق منها سقط من حساب

الأمانى .. وما لم يتحقق أصابنا منه اليأس .. واستبدلنا به

غيره مما يتناسب مع تطور نفوسنا .

— هل ما زلت تتمنى أن تكون نابليون أو شكسبير ،

أم أن هناك أمانى أخرى تعيش بها زمناً رغباً ؟

وضحك فى قهقهة خفيفة وأجاب وهو ينظر إلى عيني :

— من هذه الناحية .. لقد تبدلت أمانى تماماً .. لقد
يُست من نابليون وشكسبير .. لم تعد هذه الأمانى تطربنى
كما كانت من قبل .. لقد أضحت لدى أمنية جديدة .. بنفس
الاستحالة ونفس البعد .. لا أمل فى تحقيقها ، ولا رجاء
فى الحصول عليها .. لكننى مع ذلك أحياها زمناً رغداً .

— ترى ما هى الأمنية الجديدة ؟

وصمت برهة ، وحاول أن يتشاغل بمشاهدة القفز ..
ولكننى عدت أسأل :

— ما هى ؟

ولم يجب .. فعدت ألح :

— ألن تقول لى ما هى ؟

— لا .. لا أستطيع .

— والأمانى الأخرى .. التى كنت ترجو تحقيقها ؟

— تحققت كلها .. تقريباً .. تحققت كما أراد القدر ،

لا كما أردت أنا ، شقة متواضعة ، وزوجة طيبة ، وعربة
صغيرة ، على قد الحال ، .. أما الابن فى الطريق .. ننتظر
قدومه فى القريب العاجل .

— أحقاً توشك أن تصبح أباً ؟

- أ كثير على ؟
— ما زلت صغيراً . . ماذا تنوى أن تسمى ابنك ؟
— لو كان ولداً سميته علياً .
— ولو كانت بنتاً ؟
— أنت أدري بأحب الأسماء إلى .
— حتى الآن ؟
— حتى آخر العمر .
وأحسست أن مشاعري ترفف ، وعواطفى ترق ،
وخشيت من نفسى ومن الجو الشاعرى الذى أحاطنا ، وقلت
أحوّل مجرى الحديث :
— كيف حال ابتسام ؟
ونجح قولى فى تبديد سحب الحنين التى خيمت علينا ،
وعاد كل منا إلى نفسه ، وأجابنى بهدوء :
— الحمد لله ، لقد أجهدنا الحمل كثيراً ، منذ الشهر
الأول وهى فى تعب مستمر . . قىء وغثيان ، وقد بدا عليها
الضعف والإرهاق ، ويخشى الطبيب الذى يعودها ألا يكون
الجنين فى بطنها فى وضع طبيعى .
وبدا لى من لهجته للمرة الأولى أنه ينوء بعبء حياته . .

وأنه لم يعد ذلك الإنسان الممتلئ بالآمال .. الشديد الثقة
بالحياة والمستقبل .

أجل .. إنه لا يبدو أسعد مني حالا ، ووددت لو طال
جلستنا وأفضى كل منا للآخر بهوميه ، وتشاركنا في الشكوى .
ألم يقل لي في آخر مرة إننا يجب أن نفترق أصدقاء ..
وأن نحول جنبنا إلى صداقة ؟

وقلت له في صوت خافت :

— إنك لا تبدو سعيداً !

— لا أنا سعيد ، ولا أنا شقي .. حياتي طبيعية كغيري
من المخلوقات .. أكل ، وشرب ، ونوم ، ومتاعب ،
وقت يمر .. ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من
ذلك .. إن الحقائق ليس فيها شيء من بهاء الأمان ورونقها .
وعلا صوت المكبر من شرفة الحكم يأمر أحد
المتسابقين بالبدء في القفز ، وينبه الذي يليه — الملازم أول
أحمد عبد السلام — للاستعداد .

وقام أحمد .. ومدّ يده يشد بها على يدي قبل أن يذهب
لامتطاء جواده .. وهتفت به بلهجة ملؤها الاخلاص :
— شد حيلك .. لا بد أن تفوز .

— أنت التي ستجعليني أفوز .

— إن شاء الله .

وبعد انصرافه جلست مكاني برهة ، ثم غادرت الصالون إلى الشرفة الخارجية . . حيث كان يجلس حشد من الأصدقاء والصدقات ، فالتحذت بجلي بينهم ، وجلست أرقب القفز . وانهى دور الراكب دون أن ألتى إليه كثير التفات . . فقد كانت الأفكار تصطبغ في رأسي ، وكان الذهن يتنقل في شروده بين غضب على الزوج ودعاء لفوز الحبيب . . أعنى الحبيب السابق .

وبدأ دور أحمد . . . وخرج بجواده من الساحة الصغيرة ، التي تصطف بها خيل المتسابقين ، خلف مظلة الحكم . . وتقدم الهوينى في ثقة واعتداد . . رافع الرأس ، بارز الصدر . . ورفع يده بالنحية للحكام ، ثم أدار جواده تجاه السدود .

وأحسست بقلبي يخفق بشدة . . كأنني أنا التي امتطيت الجواد وأوشك أن أفز . . وخيل لي أن السدود مرتفعة جداً ، وتمنيت أن أصبح به لأمنعه عن القفز خشية عليه . ولكنني لم أكن أملك إلا أن أكتم أنفاسي وأرقب .

انطلق الجواد يضرب الأرض بشدة وقد رفع رأسه
وفتح خياشيمه وسار ببطء نحو السد الأول ، وأخذ يقترب
حتى أخفى منه على قيد خطوات دون أن يبدو أنه قد تحفز
للوثوب ودون أن تكون لديه القوة الدافعة لتجاوز السد ،
حتى كدت أجزم أنه لن يقفز . . ومع ذلك فاكاد يصل
إلى السد حتى وجدته قد وثب بقدميه الأماميتين إلى أعلا ، ثم
هبط بهما من الناحية الأخرى مخلصاً قدميه الخلفيتين بمشئ
البساطة والسهولة ، وأتم القفزة بهدوء كأنه لم يقفز ، ثم اتجه
إلى السد الذي يليه .

وكان السباق سباق قوة التحمل ، وهو سباق شاق ..
مرتفع الحواجز متعددتها لا يكاد الراكب يسلم فيه من الخطأ
ولذا لا يعمل فيه حساب للزمن .

واستمر أحمد ، في قفزه عابراً الحواجز الواحد تلو الآخر
بمشئ الهدوء والثقة ، والجواد يخلص سيقانه بمهارة عجيبة .
وملا في الاطمئنان وأنا أراه يقفز بسهولة وأحسست بفخر
وكبرياء وأنا أسمع همسات الإعجاب تعلو من حولى ، وأبصرت
الأيدي تتحفز للتصفيق وقد أوشك أحمد ، أن ينتهى دون أن
يخطئ مرة واحدة .

ولم يكن قد بقى سوى الحاجز الأخير وهو حائط خشبي ،

رص في أعلاه قوالب خشبية أشبه بقوالب الطوب .. ووثب
الجواد فوق السد مخلصاً قدميه الأماميتين ، ولكنه لم يكبد
يهبط إلى الأرض ليخلص الخلفيتين حتى تعثر وكبا .. واقلب
رأيه في الهواء ، ودار الاثنان واختلط الراكب بالجواد حتى
بدا كأنهما قد أصبحا قطعة واحدة .

وانطلقت مني صرخة مدوية .. وانطلقت بلا قصد
ولا إرادة .. فقد أحسست كأن يداً قاسية تعتصر قلبي .. وكأنني
أنا الذي أدور على الأرض مع الجواد ، وخبثت على عيني
سحابة عندما أبصرت « أحمد » ، يرقد وراة الحاجز بلا حراك ،
ثم أبصرت المرميات تختلط في ناظري .. والأرض تمايل
تأرجع ، ولم أعد أحس بشيء .

لقد صرخت ، وسقطت معشياً على

كيف حدث هذا ؟ .. كيف أفلتت مني الزمام ، ففقدت
ميطرتي على نفسي ؟ لقد كان مني عملاً لا شعورياً ، ولو كنت
أملك نفسي وكان أمرى بيدي لما وقع مني مثل هذا الأمر
الذي قد يعتبر أمراً مشبهاً والذي يفضح خيثة النفس ويهتك
حجب القلب .

ولكن كيف أراه يسقط تلك السقطة المروعة وأتمالك
نفسى ؟ كيف أرى الجواد يسقط فوقه وأبصر جسده المزبور

الحبيب مسجى على الأرض ، ولا أصرخ ولا أنقد مشاعري ؟
لقد حركت سقطته كامن الحب وأيقظت هاجع المشاعر
فلم أر في الجسد الهاوى المسجى .. إلا أحمد ، القديم ، حبيب
الروح وترأم النفس .

وأفقت بعد قليل لأجد نفسى مضطجعة على أريكى في
الصالون ، وقد تجمع الأصدقاء حولى يحاولون إعادتي إلى
رشدى ، ومن بينهم استطعت أن أميز وجه زوجى ، وقد علته
علامات الدهش والازعاج .

وللمرة الثانية وجدتني أتصرف على غير إرادة منى فأسال
في لطفة وارتياح :

— ماذا حدث له ؟

وقال أحد الأصدقاء مهدئاً :

— لا خوف عليه .. ليس به سوى بعض الرضوض .
واستطعت أن ألمح في بعض الوجوه تساؤلاً وتغامزاً .
ثم بدأ الشئع ينفض من حولى ، وينصرفون لمشاهدة
السباق ، ووجدت نفسى وحيدة مع زوجى .

وتذكرت فعلته الشائنة ، وتسله مع صاحبه ، وتركه
إيأى سخريه أمام الناس ، وكدت أصرخ في وجهه ، لكن

تذكرت ما فعلته أنا ، على غير إرادة منى . . من إغماء وهففة
على رجل غريب .

قد أستطيع أن أعتذر أمام الناس بصلة القربى التى بيننا ..
وأنى لم أصب بذلك الإغماء إلا لأنه ابن خالتى ، ولكن أمام
نفسى . . كنت أحس أننى مذنبه . . وأنى قد أعطيت زوجى
واحدة بواحدة .





على نفا الطاوية

وزوجي إلى الدار يومذاك قبل أن تنتهي
عمرت المسابقات ، وراى الصمت بيننا خلال العودة ،
فلم يحاول أحدا أن يناقش صاحبه الحساب أو ينسب بينت
شفة عما يصطنع في رأسه .

ولم أكن أدري بالضبط نوع الأفكار التي تجول بخاطره .
ولا ماذا يمكن أن يكون رأيه فيما حدث . . لقد كان هناك
شم . في رأسه ، وهو جالس إلى عجلة القيادة ، شارد الذهن ،
غارب البال .

ما هو ؟

غيرة ؟ . غضب ؟ . ثورة مكبوتة ؟ . ندم على ما فعل ،
وخوف من الحساب ؟ قلق وانتظار ؟

من يدري ؟

لو أنه كان رجلا عادياً ، وحدث من زوجته ما حدث ،
في ظروف عادية . . لما شككت في أنه غاضب لكرامته
تنهش الغيرة صدره ، وتصطنع الثورة بين جوانحه .

أى زوج يحتمل أن يرى زوجته تصرخ ويغنى عليها في
حفل عام من أجل إنسان سواه ؟

قد أكون رقيقة القلب ، وقد يكون الرجل ابن خالتي ،

ولكن هل يمنع ذلك .. من أن تسرى في نفسه إحساسات
الغيرة والمضب والحجل من أقوال الناس ؟
هذا ما كان يجب أن يشعر به كل زوج .
ولكن زوجي .. الذي يتركني بين الناس لأجالس زوج
عشيقته دون أن يابه لأقوال الناس .
زوجي الذي حاول أن يدخلني في الحلقة المفرغة ..
يشركني في عصبة الذئاب ، ويطبق عليّ قانون النهر .
هل يمكن أن يغار وأن يثور ؟
لاني أحس أني مذنبه .. لأنني أكره أن أسبب لزوجي
ما يهينه أمام الناس وأكره أن أخدش كرامته وأجرح كبريائه .
وأحس أني مذنبه .. لأنني أدري من غيري بمشاعري
إن ضميري يخزني لأنني لم أستطع بعد أن أقتل حيي .. وكل
ما استطعت فعله هو أن أكبته وأكتمه .. فلما أصبت بأول
هزة .. انطلق من صدري صارخاً فاضحاً
لا .. لا .. ما كلن بليق بي أن أفعل ما فعلت
ودخلنا الدار في صمت ، وذهني يحول بين الزوج الصامت
الغامض الأفكار ، وبين الحبيب الساقط عن جواده المسجي
على الأرض .

ومضت الليلة بسلام .. سلام في الظاهر ، والقلوب
منطوية على ما بها .. ثم مرت الأيام بعد ذلك .. هادئة
واكدة .. لا يكاد يحدث أحدنا الآخر إلا الأحاديث الهامة
الضرورية .. وتركته يخرج وحده إلا بضع مرات صحبته
إلى السينما ، وعدا ذلك كنت أقبع وحدي في الدار أتسلى
بالعمل فيها أو في الحديقة أو بالقراءة .

ولم أحاول في هذه الأثناء أن أتدخل قط فيما يعمله
زوجي ، أو أسأله إلى أين يذهب أو ماذا يفعل . ولم أحاول
كذلك الاتصال به أحمد ، سوى مرة واحدة اطمأننت فيها
بالتليفون على صحته ، وتأكدت أنه أفاق من سقطته بعد
قليل ، وأنه لم يصب منها إلا ببضعة رضوض بسيطة .

وحل الصيف ، وانتقلنا إلى الإسكندرية ، ووجدت
نفسى مضطربة لأن أخوض معه مرة أخرى غمار التجربة
الأولى ، وأن أعود إلى رفقة الذئاب الذين كانوا يحيطون
بنا ليل نهار .. ففي النهار على الشاطئ وفي الكاين ، وفي الليل
ما بين كارلتون وسان استفانو وغيرهما من أماكن اللهو التي
كننا نقضي بها السهرة .

لم يكن هناك وسيلة للفرار أو التباعد . إذ لم يكن من
المعقول أن أجنح نفسي في الدار ، ولا أن أذهب إلى البحر ،

ولا سيما بعد أن مللت طول الوحدة والقبوع في الدار ،
كما كنت في القاهرة .

ووجدت نفسى مكرهة على مشاهدة بقية القصة . . قصة
الغرام اللعنى التى كان زوجى أحد أطرافها ، وبدأت أجلس
في الكابين وأرقب في صمت كما تعودت أن أفعل دائماً . .
وكان زوجى إنسان غريب لا يهمنى أمره .

كان المقام لا يكاد يستقر بنا في الكابين ، حتى ترمى
« طمطم » المايوه . . مايوه رقيق دقيق يبرز مفاتن جسدها . .
ثم تنطلق شبه عارية ووراءها زوجى يعدوان تجاه البحر .
وبعد برهة تطويهما الأمواج بعد أن يعتليا صهوة برسوار .
وتمر الوقت وأنا جالسة في الكابين وحيدة مع الزوج
- زوج طمطم - ومع شلة أخرى من الأصدقاء أبرز من فيهم
للفرسان الثلاثة .

ولست أدرى كيف فاتنى الحديث عن هؤلاء من قبل
وهم مخلوقات عجيبة تستحق الذكر . . أو هم بين الرجال نسيج
وحدهم .

الفرسان الثلاثة : كيكو ، ومظلو ، وبنجو ، أستاذهم
هكذا لا تحريف فيها ولا تحوير ، هم إحدى عينات الطبقة
إياها . . الطبقة المدللة المرفهة .

وهم نوع عجيب من الآدميين .. يصعب على المرء تمييز
كنهه ، ويتعذر عليه معرفة جنسه .. فهم مزيج من الرجال
ومن ربات الحجال .. أو هم - من حق القول عليهم - أشباه
'رجال ، ولا رجال .

يظالهم « كيكو » بشكل رجل لا شك في رجوانته ..
فسيح الجبهة ، أسود الشعر ، عريض الصدغين ، متين البنيان ،
كثيف شعر الذراعين والصدر والساقين ، ليس به ما يوحى
بشيء سوى الرجولة الكاملة ، وليس لديه أية مواهب للتخنت
ومع ذلك فما يكاد يتحدث حتى يروعكم حديثه ، وتصرعكم
لهجة الرقاعة والتخنت التي تسيل منه .. فهو يتنى ويتدل ،
ويتلوى ويتأوه ، ويحشر كلمة « ماما » في كل جملة ، فهو
يقول إن « ماما » نهته عن كذا ، و « ماما » ابتاعت له كذا ،
ولا يفتأ يتعوجج وينهر من حوله بقوله « إيه يا ختي ده » ،
ولا يعلن عن سخطة وغضبه إلا بكلمة « يا سم » .

هكذا كان كيكو .. « ابن أمه » ، وسليل عائلة كبيرة
الاسم ، عريقة الأصل ، كريمة المعتقد .. رحم الله أصلها ،
وأكرم مثوى الجدود الغابرين الذين تركز نسلهم في هذا
الخلط المؤنث المذكور .

أما الفارس الثاني فهو يروعكم من أول نظرة بشعره

الأصفر الذهبي المسدول على قفاه ، وجسده الايض الناعم
البض ، وقبض الشفيون على بدنه ، وأصابع قدميه تطل
من « الصندل ، ذى الكعب العالي ، وقد بدا في أظافرها
الطلاء الأحمر . » وحصوه في عين اللي ما يصل على النبي .
لا تظنوا بقولي تشنيعاً ولا تتوهموا فيه قرينة كاذبة ، فإنني
أقسم غير حاتة : أني لم أبصر أظافر الرجل مرة واحدة
غير مطلية . بالمانيكير .

أما الفارس الثالث ، فما كان يقل عن أخويه نفساً
في التخنت والرقاعة ، والدلال والميوعة .

مع هؤلاء .. وغيرهم .. كنت أقتضى معظم وقتي ..
وزوجى غريق في حبه بين أمواج البحر .. وزوج عشيقته
ما زال يرمى الشباك حولي ، وينصب الأحاييل .. تاركاً
زوجته نلهو مع زوجي كما تشاء .

وفي المساء كنا نشد رحالنا إلى كارلتون أو المونسنيير ..
حيث يعاد تمثيل المسرحية إياها .. فتخاصر زوجي صاحبه
وأجلس لمشاهدتهما .. ويجلس زوجها لمغازلتني ، والرفاق
من حولنا .

ويمر الصيف وأنا صامدة صابرة .. كنت أثور في مبدأ
الأمر .. ثم أقاوم .. واجدة صعوبة في المقاومة ، وتهدة

نفسى .. وكنت فى بعض الأحيان أوشك أن أهرع إلى أبى ،
ولكنى أعود فأستخر من نفسى .

ماذا يمكن أن يفعل لى أبى ؟ إنى أعرفه معرفة جيدة ،
وأعرف جموده وصرامته ، وسخافته وماديته .

ومن يدري أنه لن ينهرنى ويؤنبى .. أو يتهمنى بأنى
لا أريد البقاء مع زوجى .. لأنى لا أحبه .. وأحب إنساناً
غيره ؟ ..

وعدنا إلى القاهرة أخيراً .. لنعاود سيرتنا الأولى .. أنا
قابعة فى الدار .. وهو منطلق فى غيه .. ممن فى ضلالتة ..
ومرّ الخريف المحبب إلى نفسى .. المثير لأجل ذكرياتى .
وبدأت أنعود حياتى .. واجدة كثير من التعزية فى خلوتى
بالدار ، وفى عمل فى الحديقة بين الزهور المحببة إلى نفسى ،
وفى كثرة القراءة .

وفى ذات يوم وقد جلسنا للغداء قال لى زوجى :
— لقد دعانا أبى للسفر إلى العزبة لقضاء بضعة أيام .
واستمررت فى تناول طعامى دون أن أجيب .. فعاد
يتساءل :

— هل لديك مانع ؟

— لا .

— إذا سندهب من الغد ، فقد دعا معنا بعض الأصدقاء .
— كما تشاء .

ولم أجد هناك ما يمنع من الذهاب . . فقد كان كل شيء
لدى سواء ، ولم أكد أفضل حالة عن حالة . . فقد تعودت
ما أنا فيه حتى لم أعد أحس به ، بل أضخيت تماماً . كما قال أحمد .
« لا سعيذة ولا شقية . . أكل ، وشرب ، ونوم ، ومتاعب ،
ووقت يمر . ماذا يمكن أن نرجو من الحياة أكثر من ذلك ؟ »
وفي اليوم التالي ذهبنا إلى العزبة . ولم أكن قد ذهبت
إليها سوى تلك المرة التي تمت فيها الخطبة . . والتي كنت فيها
مذهولة ، لا أكاد أرى من حولي شيئاً .

وكانت الدار فخمة أنيقة . . قائمة وسط أشجار البرتقال
والمانجو والكروم ومختلف أشجار الفاكهة .

والتقينا هناك ببعض أصدقاء أبيه وأسرهم ، بمن استضافهم
معنا ، أو استضافنا معهم ، وكانوا خليطاً من أنواع مختلطة من
النساء والرجال ، واستطعت أن أجد في طبقة الذوات أنواعاً
أخرى غير تلك التي تعودت أن أبصرها في هذه الطبقة . .
أنواعاً تستدعي الاحترام ، لم يفسدها الغرور ، ولم يتنفها
التدليل . . لم تمنح وفرة النعمة من نفوسهم ، متانة خلقهم ،
واختيشان نفوسهم .

لقد رأيت من بين الشباب والفتيات العربى الأصل ،
الموفورى الثراء ، من لا يعرف آخر رقصة .. ومن لم يسمع
آخر اسطوانة أفريقية ، ووجدت من بينهم من يحفظ لشوقي
والبنتى ، ولابن الرومى . ومن قرأ لكتابنا واحداً واحداً .
ووجدت من بينهم من يؤمن بمصر .. ويحب مصر ..

وجدت منهم من يتكلم العربية كأحد أبنائها ،
واستمتعت بدعوة الريف إلى حد كبير . وكان الجو صحواً
والشمس مشرقة ، ولم تفلح قطع السحاب المتناثرة في السماء في
حجب أشعتها إلا هنيهات متقطعة ، أما بقية اليوم فكانت
تسطع دافئة فوق الخضرة الممتدة على مدى البصر .

وكان مفروضاً أن نقضى في العزبة ثلاثة أيام ، ولكنى
فوجئت في اليوم التالى بزوجى ينبئنى أنه لا بد أن يعود إلى
القاهرة لأنه تذكر أن لديه عملاً في الشركة لا بد من إنجازها وأنه
سيحاول أن يعود في نفس اليوم .

وأدهشنى قوله .. فما توقعت قط أنه يمكن أن يكون لدى
زوجى عمل - أياً كان - يستدعى سرعة الإنجاز .. فقد كنت
أعلم أولاً أنه بلا عمل ، وثانياً حتى لو كان لديه عمل فما كان
بالذى يحمل عبء مسؤولية ، أو يقدر عاقبة أو يأبه لنتيجة ،
وما كان بالإنسان الذى يقطع نزهة لى ينجز عملاً .

ولكنى لم أحاول أن أناقشه .. فقد كنت أربأ بنفسى عن
الاهتمام به .. وما كنت أهتم بوجوده أو عدم وجوده ،
ولا كنت أهتم بتصرفاته إلا من حيث الشكليات ، فقد كنت
أخشى الفضائح وأكره أن نكون مضغة الأفواه .

وعاد إلى القاهرة ومضى اليوم دون أن يحضر ، وقضيت
ليلتى وحيدة . وفى اليوم التالى لم يحضر حتى الظهيرة .
وبدأت أحس بالثورة تعتمل فى نفسى ، فقد كانت تلك
هى الشكليات التى تحز فى نفسى .

كنت أكره أن أفقد اعتبارى وأبدو مهجورة أمام هؤلاء
الغرباء ، وبينهم أناس محترمون ، لا يقارنون من حيث الاعتبار
بشرذمة الصحاب التافهين الذين تبعونا رفقتهم .
وصممت فى نفسى على أن أعود إلى مصر ، وأن أعطيه
درساً قاسياً حتى يتعلم كيف يتصرف أمام الناس .
وكان بعض الضيوف سيعودون بعد الغداء إلى القاهرة ،
فغزمت على العودة معهم .

وسارت العربية بنا تنهب الأرض ، وأنا مكروبة الصدر ،
مهمومة النفس ، أتعجب من هذا الوضع الذى صرت فيه ..
وأتعجب من سخرية القدر ، وأذكر المثل القائل : رضيت بالهم
والهم مش راضى بي .

ووصلنا إلى القاهرة وقد خيم الظلام ، وسارت العربّة تقطع
شوارع القاهرة حتى أوصلتني إلى باب الدار وشكرت أصحابها
وسألهم التفضل بالدخول ، ثم ودعتهم ودلفت إلى الداخل .
ولم يبد من النوافذ الأمامية بصيص ضوء ، ولم أكن
أتوقع بالطبع أن أجد زوجي بالدار . . . وكذلك كنت أعلم
أن الخدم يبيتون في بيوتهم فقد منحتهم إجازة ثلاثة أيام ،
وهي المدة التي كنت أتوقع قضاءها في العزبة .

وحمدت الله أني أحفظ معي بأحد مفاتيح الباب ،
وعبرت عبر الحديقة ، وصعدت بضع الدرجات المؤدية إلى
الباب ، وأنا أحس بشيء من الرهبة والوجل ، فما تعودت
أن أكون وحيدة في الدار . وامتدت يدي إلى مفتاح الكهرباء
المجاور للباب وضغطت عليه فانبعث الضوء في الشرفة الكائنة
أمام الباب ، وأعاد إلى نفسي الطمأنينة .

وضعت المفتاح في الثقب وأدرته ، ثم دفعت الباب
فانفتح بسهولة ، . وخطوت خطوة إلى الداخل مادة يدي
وراء الباب حيث مفتاح إنارة الصالة .

وفي اللحظة التي ضغطت فيها على المفتاح الكهربائي
وغمر النور أنحاء الصالة ، وصل إلى أذني صوت يصيح
عتائلا في دعر :

— من ؟

وكانت مفاجأة الصوت شديدة الوقع على نفسى ، بحيث
أصابتنى برجفة شديدة ، ويستطيع أى إنسان أن يدرك
مدى ارتياحى وأنا أخيلو من الباب دون أن يكون لى
أقل فكرة عن وجود إنسان بالداخل .

وزال الذعر سريعاً لتحل محله دهشة بالغة عندما ميزت
فى الصوت المتسائل صوت زوجى . وعندما رأيته يقف بباب
الردهة المؤدية إلى حجرة النوم ، وقد ارتدى « البيجامة » .
عجباً !! أى ربح هوجاء قذفت به إلى الدار فى هذه
الساعة المبكرة ؟

لعله مريض . . وقد أوى إلى البيت ليسترخ !
ولكن ما باله يقف جامداً فى مكانه وقد فغرفاه ، وبدأ
عليه ذلك الذعر وتلك الدهشة ؟
أينحنه منظرى ويرجعه إلى ذلك الحد ؟
ما باله لا يتكلم ؟

ووجدت نظره قد تحول من وجهى إلى المشجب . .
وحولت بصرى إلى حيث ينظر . . فوجدت معطفاً نساءياً
قد علق عليه . . وأعدت النظر إليه ، فإذا به يحمق فى ،
وقد اشتد ذعره وبدأ أشبه بفأر فى مصيدة . . ومرة ثانية

تحوّل بصره فتبعته ثانية ، واستقر بصرى فى هذه المرة على
حقيقية للسيدات ملقاة على مقعد ، ولم يصعب أن أميز عليهما
حرفى F.S.

وفى لمح البرق .. تكشف لى الأمر .. ووضح على
حقيقته .. فقد استطعت أن أميز من حرفى الحقيقة .. اسم
صاحبتهما فاطمة شكرى ..
وفى الثانية التالية قطع الشك باليقين ، وعلا صوت
صاحبة الحقيقة تنادى من حجرة النوم :
— توتو ..

لقد كانت هى بعينها .. طمطم .. تتعجل زوجى ، وهى
راقدة على فراشى .

وأحسست بالدنيا تدور بى ، واستندت على حافة مقعد
قريب حتى لا أسقط ، وشعرت بأنفاسى تتلاحق ، وصدري
يرتفع وينخفض كأنى فى سباق .

إنى لم أزعم قط أنى أحب زوجى ، أو أغار عليه ،
وما حاولت أن أبدي له اهتماماً .. بل كنت دائماً أتذرع
بالبرود .. وأنحلي بالهدوء والسكينة .

ولكن فى هذا الموقف .. أحسست أنى جمره متقدة ،
وأن صدري يغلى .. وأنى أوشك أن أجنى .

أبلغ به الاستهتار إلى هذا الحد ؟
أبلغت به الصفاقة والنذالة والجبن والخسة أن يحط إلى
هذا الدرك ؟

ماذا بقي لي من قيمة في الحياة .. وأنا أرى زوجي يخونني
في بيتي ، وأمام عيني ؟ !

أو قد هنت إلى هذه الدرجة .. حتى تستحل امرأة
فراشي وبيتي بمثل هذه البسطة ؟

أقسم أني لو كنت أملك وقتذاك مسدساً لأفرغته
في رأسه ، أو لو كان بيدي أية وسيلة للقتل لما ترددت
في القضاء عليه .

ولكنني كنت أحس أنني عاجزة عن أن أفعل شيئاً ..
اللهم إلا الاندفاع في السباب والصراخ .. أو الهجوم عليه
وصفعه ، والبصق في وجهه .

ولم تكن هذه الأشياء النافهة لتطيق . حرقني أو تهدى
ثورتي .

لقد كنت أريد أن أثار لكرامتي .. كنت أريد أن
أمزق جسده إرباً إرباً

ومضت برهة صمت .. وكلانا يحقد في الآخر ..
وبذات جهدي لكي أمتلك وأسيطر على أعصابي .

وَكنت أول من تكلم ، عندما صاح صوتها من الداخل
يناديه مرة ثانية .. فقد قلت له في مرارة وسخرية :
— إنها تناديك .. اذهب إليها حتى لا تقلق .
وإدركت له ظهري ، وخرجت من الباب في سكون ،
وأغلقتة خلفي وهبطت الدرج . واحتوتني حلقة الليل .

* * *

سرت في الطريق ، وأنا أحس بنيران آكلة تحرق قلبي
ورأسي وجمدي ، وقد تملكني إحساس خليط بين الذلة
والتعاسة واليأس والغضب ، والرغبة في الانتقام ، ولم يكن
تفكيرى قد استقر بعد على ما أفعله .. اللهم إلا على شيء واحد
لم يكن هناك مجال للتردد فيه ، وهو عدم عودتى إلى هذه الدار ،
وهذا الحيوان الأدنى .

مهما حدث .. فلن أعود .. حتى ولو أدى الأمر إلى أن
أهيم على وجهى .. سائلة .. أو بغيا . ما من قوة تستطيع أن
تعيدنى مرة أخرى .. لا أبى ولا غيره .. إني أنا التى سأقرر
مصيرى هذه المرة .. كفى استعباداً ، وكفى مذلة .

وسرت برهة أضرب فى الطرقات على غير هدى ، وريح
الليل تمب باردة فتثلج وجهى وأطرافى ، ورأسى يضطرب
بما فيه .. وأنا حائرة .. إلى أين أذهب ؟ وماذا أفعل ؟

وتلفت حولى .. فإذا بنى أمام دار أعرفها جيسداً ، ولم
تسكن تبعد كثيراً عن المنطقة التى نقطن بها ، وهى داره محمود
شكرى ، زوج طهطم ، ورفعت بصرى ، فإذا بالنوافذ ينبعث
منها الضوء .

ولجأة قفزت إلى ذهنى فكرة طارئة وجدت فيها مخرجاً
لتلك الثورة التى تستعر فى نفسى ، ومنفذاً لذلك البركان الذى
يصطبغ بين جوانحى .

لقد بدا لى من أضواء النوافذ أن « محمود » قد يكون فى
الدار ، وأنى أستطيع أن أصعد إليه حالا فأنبئه بخيانته زوجته ،
وأطلب منه أن يضبطها متلبسة بخطيئتها .. وأترك له إتمام
المهمة والانتقام لى ولنفسه .

لقد كنت فى حاجة إلى من يثار لى .. فإنى أحس أنى
— كما قلت دائماً — مخلوقة عاجزة .. أو كما قال أخى : إنسان
جبان .. لا أملك إلا الفرار والازواء والاستسلام للقدر ..
ولكنى فى هذه المرة كنت واثقة من أنى سأجد إنساناً مواتوراً
يرد عنى الطعنة .

واقتربت من الباب ، وسألت الحارس :

— محمود بك .. موجود ؟

— أبوه يا فندم .

— أريد أن أقابله .

— اتفضل يا هانم .

ولا شك أن الرجل قد عرفني .. فقد سبق أن حضرت
مع زوجي لزيارتهم ، وتقدمني مسرعاً .. ودق جرس الباب
الداخلي .

وفتحت إحدى الخادومات الباب فقال لها الرجل :

— افتحي .. قولي لسيدك .. سيدتي عائدة هانم .

ودلفت إلى الداخل ، وجلست أنتظره في حجرة الصالون
ولم تمضِ فترة وجيزة .. حتى أقبل « محمود » مرتدياً قميصاً
وبنطلوناً ، وهو يتسهم مرحباً ، وقال وهو يضغط على يدي :
— أهلاً وسهلاً .. كيف حالك ؟ وكيف حال « توتو » ؟
لقد كنت أوشك أن أخرج الآن .. إذ لو تأخرت لحظة
لما وجدتني .. لقد ظننت أنكما مسافرين .. إذ أخبرني
« توتو » أنكما ستمضيان بضعة أيام « في عزبة الباشا » ..
ولكن أين « توتو » ؟

ولم يترك لي فرصة للكلام أو يحاول أن يستمع لإجابة
سؤاله .. بل انطلق يثرثر :

— هل سررتما من العزبة ؟ لا بد أنكما تضايقتما .. وإلا
لما عدتما سريعاً .. معكما حق .. إنني أكره الريف .. ملل ،

وقذارة ، وناموس . لقد ذهبت مرة إلى العزبة . مرة واحدة
طيلة حياتي ، ولم أطق أن أنام ليلة واحدة ، بل عدت في
منتصف الليل ، ولم أحاول تكرارها مرة ثانية ، و « ططم »
أيضاً لا تطيق الريف .. إنها تعتبره منفي قذراً .. لقد خرجت
« ططم » منذ العصر .. إلى وحدي في البيت .. كنت أوشك
أن أخرج .. سأذهب إلى السينما سواريه .. يوجد فيلم في ديانا
من أحسن أفلام الموسم .. لفريد استر .. موسيقى هائلة ..
ورقص عظيم .. يجب أن تشاهده .. إن « ططم » قد ذهبت
إلى بيت خالتها وقد تغيب إلى منتصف الليل أو تبيت هناك ..
لأن خالتها مريضة .. إلى أنصحك ..

ولم أدر إلا ما كان ينوي أن يستمر في شرته . وأحسست
بصبري ينفد .. ولم أجد بداً من مقاطعته .. فقد كانت أعصابي
متوترة وصدرى ضيقاً .. وقلت له في سخرية ومرارة متجهة
إلى الموضوع رأساً .

— « ططم » لم تذهب إلى بيت خالتها يا محمود .
وبدا لي أنه لم يلق بالآ إلى قولي في مبدأ الأمر ، فقد
استمر في شرته :

— إلى أنصحك أن ترى الفيلم ، إنه فيلم عجيب . تقولين
إن « ططم » لم تذهب إلى بيت خالتها .. كيف ؟ إلى واثق

أنها قد ذهبت إلى هناك .

— وأنا واثقة أنها لم تذهب .

— غير ممكن .. من أدراك أنها لم تذهب إلى بيت خالتها ؟

— لأنها ذهبت إلى بيتنا .. وقد تأخر حقاً إلى منتصف

الليل .. وقد تبث فيه تماماً كما قلت .

— ذهبت إلى بيتكم ؟ ! ستقضى ليلتها عندكم ؟

— أجل .. ستقضى ليلتها على فراشي .. وبين أحضان

زوجي .

وقفز من مقعده كمن لدغه عقرب :

— كيف تجرئين على هذا القول ؟

— كما جرؤت هي على فعله .. منذ عشر دقائق .. تركتها

مستلقية في غرفة نومي .. لقد تركني زوجي وعاد ليتمتع بها

في بيتي وعلى فراشي .. خير لك أن تردعها ، وأن تمنعها من

التسلل إلى بيوت الناس ، وسرقة أزواج الغير .. إن الكلاب

المسعورة لا تطلق هكذا بلا قيد .

وكننت أتوقع منه ثورة جارفة .. وعاصفة جامحة لا تبق

ولا تذر .. وكننت أنتظر أن ينطلق إلى دارنا فينار لشرفه

المثلوم ، وعرضه المخدوش .. ولكن أدهشني أن أجده

يحدق في .. ثم ينهض يبطه ويذهب إلى باب الحجرة فيغلقه

جعيداً . . ثم يعود إلى . . وقد علت وجهه ابتسامة باهتة .
وأخذت أرقبه بعين حنرة ، وأنا أنحفز لما ينوى أن
يفعله . . ورأيت أنه قد جلس على حافة أحد المقاعد . . وبعد
فترة إطراق قال لي في صوت خافت :

— أنت السبب .

— أنا السبب ؟ ! في ماذا ؟

— كان يجب علينا أن نبدأ بالهجوم .

— نبدأ بالهجوم ! ! لست أدري ما تعنى ؟

— طالما نفرت مني ، وتباعدت عني . . لو استجبت إلى

لكنا الراحين ، ولما جلست هكذا ، كأن كارثة حلت بك .

وأذهلني قوله ، وأصابني صدمة لا تقل عن تلك الصدمة

التي تلقيتها في بيتي منذ لحظات .

إنه لم يثر ، ولم يغضب على شرفه المهين ، ولا اندفع

هائجاً ليفتقم من الخائن والخائنة . . بل كل ما فعله هو أن جلس

يؤنّبني ، ويحملني مسؤولية ما حدث . . لأنني لم أستجب

لمغازلته ، فأكون البائدة بالخيانة . . كأن كل ما حدث كان

أمراً لا يعيبه إلا أنه لم يكن نفعاً متبادلاً .

لم يسره أن تقضى زوجته ليلة مع رجل في فراش ،

ولكن ساءه أن ضاعت عليه فرصة مثلها .

وأحسست بثورة الغضب تنصاعد في صدري .. وهممت
بأن انفجر فيه . ولكنني كبحت جماح نفسي ، واكتفيت بأن
أحرق فيه كما أحرق في نوع غريب من الحيوانات .

ولما لم يجدني أجيبه على قوله أردف قائلاً
— على أية حال .. لا بد لنا من الانتقام .

ورفعت إليه حاجبي في دهشة .. لقد بدأت تعاوده
رجولته . وأخذ يتحدث عن الانتقام . وأنصت إليه في لهفة
واستمروا يقول :

— أجل .. لا بد لنا من النار .. العين بالعين ، والسن
بالسن ، واحدة بواحدة ، والباديء أظلم .. إننا نستطيع أن
نضرب عصافير بحجر ، وننتقم لنفسينا بنفس الطريقة ..
سنرد العدوان بعدوان مثله .. إنها ترقد الآن في فراشك ، فلم
لا ترقد في فراشها ؟

وضغطت على أسناني حتى أحسست أنها ستنتفتح ، ثم
تمتمت قائلة :

— جبان .. سافل .

— مجنونة ! أما زلت تمسكين بأهداب الشرف والعفة ؟
أفي الوقت الذي يرقد زوجك مع امرأة أخرى في فراشك ،
تحاولين التمسك بهذه الخزعبلات التي بادت وعفت آثارها ! !

هذا الوسط الذى تعيشين فيه لا يابه كثيراً لهذه الرسميات .
ماذا يمكن أن تتأرى به لنفسك من التى سرقت زوجك ولو ثأت
فراشك أكثر من أن تسرق زوجها وتلوئى فراشها ؟ وماذا
أستطيع أن أفعل أنا أفضل من أن أقص من الخائن بنفس
طريقته .. هدى نفسك ، وكونى عاقلة . وفكرى فيما أقول
لك .. هل يؤلك كثيراً .. أن تخونى زوجك ؟ . هل يتقل
عليك ضميرك إذا فعلت ما فعل ؟ لم ؟ . ماذا له من حقوق
عليك ؟ إن الرابطة الزوجية التى بينكما لا تعدو أن تكون شيئاً
وهمياً .. إنها مجرد شكليات .. فإذا لم يجعل هو لهذه
الشكليات قيمة ، ولم يقم لها وزناً . فلم تجعلين لها أنت وزناً ؟
لم يتدخل ضميرك فى مسائل تافهة لا محل له للتدخل فيها ؟

معه حق ١١ .. ألم أعترف أنا نفسى من قبل أن ما بينى
وبين زوجى لا يعده أن يكون عقداً شكلياً كتبه ذلك الشيخ
المعصم . لقد قلت ذلك قبل أن أعرف مدى تقدير زوجى لهذه
الرابطة الشكلية ، فما بالى الآن وقد رأيت به يمزقها إرباً ويحطمها
شظايا ؟

إن هذا الرجل الجالس أمامى .. رغم ما أهتمته به من
الجبن والصفالة ، لم يقل سوى الحق .. إن تفكيره منطقي
معقول : العين بالعين ، والسن بالسن ، واحدة بواحدة

والبادىء أظلم .. لقد استحوذت على زوجى وفراشى وتركت
زوجها وفراشها خاليين ، فلم لا أستحوذ عليهما أنا الأخرى ..
فأضرب عصفورين بحجر واحد وأنتقم لنفسى بنفس الطريقة ؟
حقيقة إنه أمر مروّع .. مخيف .. إذا ما بحثته بتفكيرى
الأول ، وعقليتى السابقة غير الملوثة .

أما الآن ، وأنا امرأة مصابة ، مهیضة الجناح ، وفى
هذا الجو الملوث ، وبذلك الكبرياء الجريحة ، والكرامة
المحطمة ، يبدو الأمر طبيعياً لا غبار عليه .. بل هو الأمر
الطبيعى الوحيد الذى يجب أن أفعل .

* * *

هكذا تطور تفكيرى ، وأنا جالسة أهدق فيه وأنصت
إلى حديثه ، وأضحى ذهنى على أتم استعداد لقبول العرض
وتنفيذ الانتقام .

ونظرت إلى عينيه فلمحت فيهما بريق لهفة ، ورأيت
يقترب منى . فأطرقت برأسى ، وأحسست بجسدى يهتز
كريشة فى مهب الريح ، ومدّ يده فضغط بها على يدي مترقفاً ،
وقال فى صوت كأنه خفيخ الأفاعى :

— تعالى ...

ورفعت عينيّ إليه .. فرأيت وجهه قد تأجج بنيران

الرغبة ، وسمعت صوت أنفاسه تتلاحق . وشعرت أني أمقته
مقناً شديداً وتمنيت لو استطعت أن أنهال عليه بالصفع ،
لقد كان في نظري أشبه بحشرة حقيرة لا يقل حقارة عن
زوجي المحترم ...

ولكن يجب أن أتحمّله .. إنها عملية انتقام لا أقل
ولاً أكثر .. يجب أن أكبت نفوري وأخفي اشمزازی ..
يجب أن أستسلم له كما استسلمت لزوجي من قبل .. وأن
أعود نفسي عليه ، كما عودت نفسي على الآخر .
ورأيتني يجلس على حافة المقعد ، ومد أحد ذراعيه فطوّق
جسدي ورفع بيده الخالية ذقني وأخذ يقترب بشفتيه
من شفتي .

وتذكرت أحمد ، في نفس الجلسة ، ونفس الوضع ،
وأحسست بقشعريرة تسري في جسدي .
وبلا وعي ولا إرادة .. دفعت الرجل في صدره دفعة
شديدة ، ونهضت من مقعدي ، ووقفت متحفزة للنضال كأي
حيوانة نائرة .

ماذا كنت أوشك أن أفعل ؟ وأية هاوية كنت أوشك
أن أتردى فيها ؟

انتقام ؟ . من ؟ . من تلك الحشرة التافهة الحقيرة ؟

أو يستحق أن ألوث نفسي من أجل الانتقام منه؟ ..
أو يستحق أن أكون من أجله عاهرة بغيا !
وأحمد؟ كيف نسبته؟
كيف أجسر أن أفكر فيه ، أو أقارن نفسي به .. إذا
ما تردبت في الهاوية وتلوّثت بقذارتها؟
حقاً إنى لا يهمنى أن أكون شريفة من أجل زوجي ،
ولكن من أجل أحمد !
كيف يمكن أن يفكر فيّ ، ويسمى ابنته باسمي ، ويحبني
حتى آخر العمر ، وأنا مخلوقة قذرة ملوثة؟
كيف يمكن أن يراني أنا !! المخلوقة النموذجية السامية ..
المرتفعة الآية الشريفة .. التي يضعها — على حد قوله —
في مصاف الآلهة والملائكة ، وقد أضحيت كـ « طمطم » ،
وأمثالها من سارقات الأزواج؟
إن كل ما يبق لي في هذه الحياة .. هو تفكيرى في أحمد ،
وبقيني أنه ما زال يرانى كما كنت دائماً .. المخلوقة الأولى
في حياته .. التي سيذكرها .. حتى آخر العمر ، والتي جعل
منها آماله التي لن تتحقق ، ولكنها تحييه زمناً رغداً .
كيف أحطم آماله ، وأبدد أوهامه؟
من أجل أحمد يجب أن أقاوم ، وأن أرفع ، وأن أتحمّل

كل شيء... وأن أستحق ثقته بي .
من أجله يجب أن أكون تلك المخلوقة السامية المثلى ...
يجب أن أبقى دائماً في مستواه الرفيع .
إن أحمد هو زوجي الحقيقي .. هو زوج روحي ونوأم
نفسى ...

لقد عقد المأذون زواجي على «تهاني» ، عقداً بين
الأجساد .. أما عقد القلوب والأرواح ، فقد كان بيني
وبين أحمد من قبل ذلك بزمان طويل .
إذا خافني زوجي .. فليذهب إلى الجحيم .
إن أحمد وحده هو الذي يملك عليّ حقاً .. فيجب أن
أرعى هذا الحق .
يجب أن أصون نفسي وروحي عن الاندفاع في الخطيئة .

° ° °

ودون أن أنبس بينت شفة أدت ظهري وانطلقت ،
هاربة من الهاوية التي كنت أوشك أن أزلق فيها .





ما فتى الفن

إلى الطريق مرة ثانية ، وانطلقت في الظلمات
فخرجت أضرب على غير هدى ، وأنا أحس أنى نجوت
من خطر أوشك أن يودى بى .

وأخذت أمعن فى السير ، كأنى فريسة مطاردة ، حتى
وصلت إلى الشارع الموازى للنيل والمزودى إلى الكوبرى
الإنجليزى (كوبرى الجلاء) . وهبت موجة من ريح باردة
سرت فى عظامى فضنمت المعطف جيداً حول جسدى .

ووصلت إلى الكوبرى وبدأت أتأمل وأسير الهويناء .
لقد نبئت فى ذهنى المشتت الشارد فكرة جديدة ، أوحى
إلىّ ها خربير الماء الجارى أسفل الكوبرى فى حللكة الليل .
لم لا ألقى بنفسى فى اليم فأستريح من الحياة ؟
ماذا يجعلنى أتشبث بحياة فارغة خاوية خالكة ، لا يبدو لى
منها بارقة أمل أو شعاع رجاء ؟

ماذا يمكن أن أمل من حياتى ؟
إن أقصى ما يمكن أن أحصل عليه هو الخلاص من
زوجى .

وبعد ذلك ، أقبع فى دارى « مطلقه » ، يائسة يائسة ١١
لو أن أحمد لم يتزوج ؟ ١٢

ولكن هل كان يقبل أن يتزوجني الآن بعد أن خذته
في أول مرة .. ولفظته لفظ النواة ؟

أجل . إنه إنسان كريم ، وهو ما زال يحبني ، ولن يكف
عن حبى مدى الحياة .

ولكن ما فائدة كل هذا ، وهو متزوج فعلا ؟
إن الانتحار هو خير وسيلة للخلاص .

يجب أن أتوقف .. ثم ألقى بنفسى من فوق السور
الحديدى ، وفى ثوان معدودة سيكون كل شىء قد انتهى .
إن الخلاص يحتاج إلى شجاعة وجرأة ، ويجب أن أكون
شجاعة ولو مرة واحدة حتى أنجو من حياتى التعسة الشقية .
دار ذلك الحديث فى رأسى .. دون أن أتوقف ..
وانتهى الحديث ، وقد انتهت من عبور الكوبرى .. دون
أن ألقى بنفسى فى الماء .

إنى مازلت كما كنت دائما .. مخلوقة جبانة .. لا أستطيع
أن أقدم على ما فيه خلاص نفسى .. وكل ما أجسر عليه هو
التفكير ، ولا شىء أكثر من التفكير .. أما التنفيذ .. فأمر
لم أحاوله قط .

وعدت أفكر نابذة فكرة الانتحار .. قائلة لنفسى ..
لم أعجل بالحكم على نفسى ؟ .. لم لا أنتظر ؟ ..

وما دمت قد وطلت نفسى على الموت .. فإني أستطيع أن
أحتل أى مكروه فى الحياة .

وهكذا سرت أنخطط بين أفكارى الممتدة المختلطة حتى
وصلت إلى كوبرى « قصر النيل » ، وأعاد منظر النهر العريض
والماء الحالك .. فكرة الانتحار إلى رأسى ، ولكنها لم تزد عن
أن تكون فكرة ، وانتهت كذلك من عبور الكوبرى دون
أن أتوقف أو ألقى بنفسى فى اليم .

ووصلت إلى ميدان الإسماعيلية ، وبلا تفكير اتجهت إلى
موقف الأتوبيس (رقم ١٤) الذاهب إلى حدائق القبة ،
وصعدت فى إحدى العربات .

إلى أين أذهب إن لم أذهب إلى بيت أبى ؟ هل لى ملجأ
سواه ؟ .. مهما سرت فى الطرقات .. أليس للسير من نهاية ؟
لقد بدأت قدمائى تكلان فعلا ، ولا بد أن أجد لى مقراً
تكون به خاتمة المطاف .

وتحركت العربى عبر الشوارع المضيئة الصاخبة وجلبت
أحدق من وراء زجاج النافذة فى المناظر العابرة دون أن
أعى منها شيئاً .

كنت لا أحس كثيراً بما حولى .. فقد كان لى ذهول
شديد ، وكان ذهنى قد أعيته الحوادث ، وأضناه التفكير ..

فتبلد وجد .. وأضحيت في جلستى في العربة أشبه مريضة ذاهلة
أو مخبولة تائهة

ولم أشعر بمرور الوقت ، ولم أميز معالم الطريق ، بل
وجدت نفسى في النهاية ، وقد خلت العربة إلا منى . ورأيت
السائق يغادر العربة ، والكسارى يتساءل في لهجة لا تخلو من
السخرية :

— لقد وصلنا النهاية يا هانم .. أم تريدن العودة معنا ؟
ونفضت في صمت .. وعادرت العربة .
وتوقفت أنظر حولى ، ولم أتمالك نفسى من ضحكة خافتة
مريرة ساخرة .

* * *

يا للسخرية !

لقد وقفت تلك الوقفة من قبل وشتان بين وقفة ووقفة !
هذا هو الجامع القائم في زاوية الطريق ، خيمت عليه
حلكة الليل .. فلم يبد منه سوى شبح مظلم كالأطلال الباليا
تقوم بينها المئذنة كأنها مارد يوشك أن ينقض .
والطريق قد بدا موحشاً خيفاً جرّده الشتاء أحمر أزهاره
وأخضر أوراقه ، وترك أشجاره المتكاثفة مجردة عارية كأنها
هياكل الموتى ، أو قوائم القبور .

والسما . . والكواكب ، والنجم الثاقب . . قد باتت
كلها غطاءً مظللاً يطبق على الأرض . . والنسيم قد عاد ريحاً
تصفر وتثن وتغول وترن .

وأنا . . وحيدة . . بلا أحمد . . وبلا أمل . . وبلا رجاء .
باللعجب . . أكان يخطر لي على بال وأنا أفق مع
أحمد وقفتنا الساحرة وقد غمرنا ضوء القمر . . وأفعم نفسينا
الأم . . وفاضت جوانحنا بالمتعة والهشاء . . أن هذا المكان
يمكن أن يضحي ماهو عليه الآن ؟

كيف يمكن أن تتبدل الكائنات مثل هذا البديل ؟
كيف يمكن أن ينبع اليأس من منابع الرجاء . . وينبت الشقاء
من منابت الهناء . . ؟

وبدأت السير . . لا لأعود إلى الدار . . بل لأخوض
غمار الطريق الموحش المظلم .
إلى أين ؟ . . ولله ؟ .

أهو إمعان في التعذيب ؟ أم عدو وراء سراب ؟
ليكن ما يكون . . إن بي إلى السير في الطريق ، والجلوس
على الساقية . . حنبأ لا يقاوم ، ولهفة لا ترد .
إنه تعذيب ممتع . . وألم لنيزد . . .

مهما كنت .. ومهما كان المكان .. فإني أحس فيه
بحلاوة الاستقرار وسكينة المأوى .

مهما كان بي من حزن وبأس وشقاء وبؤس ، ومهما كان
بالمكان من ظلمة ووحشة وكآبة وجمود .. فإني أتوق إليه .
وأتلطف عليه .

إن لي فيه حياة .. بل إني لم أحي إلا فيه .. أما فيما عداه
فقد كنت في عداد الموتى .

وسرت في الطريق الخالي المغرق في صمت القبور ..
وسور السراى يقوم على يميني قائماً مظلاً ، يبدو في ارتفاعه
وضخامته كأنه حاجز يمتد من الأرض إلى السماء .. والريح
تهب من ناحية المزارع صرصرأ عاتية .. تصطدم بأطراف
الجازورينا العالية القائمة وراء السور ، فترسل منها فحيحاً
مخيفاً .. وكل شيء يبعث على الخوف ويثير الرعب .. ومع
ذلك فما أحسست خوفاً ولا رعباً .

كنت أسير في ثقة وطمأنينة ، وقد قرئت نفسي وتبددت
أحزاني .. واستتب في نفسي الأمن وعادتنى السكينة ،
وداخلني إحساس تائه ضال يوشك أن يهتدى إلى مأواه ،
وغريب طالت غربته يهيم بأن يعود إلى وطنه .
كنت أشبه بجندى دفع به في أتون المعركة وخاض غمارها

بين الدوى والنيران والثرى والدماء .. وأصابه منها ما حطمه
وأفقدته وعيه .. ثم أفاق في حلقة الليل بين الأشلاء الراقدة
والسكون السائد ، وأخذ يزحف على يديه وقدميه بين الحياة
والموت ، حتى لاح له بارقة هدتته إلى معسكره ، وأعادت
إليه الأمل في الحياة .

ووصلت إلى الساقية ، ولاح لى شبحها أسود قائماً ..
لا تستطيع العين أن تميز منها سوى كتل داكنة تقوم وسط
الحقول الغارقة في الدياجير .

واتخذت طريقى إليها .. عابرة الممر الضيق الذى طالما
اجتزناه سوياً ، وقد تشابكت أيدينا وتلاصق جسدانا .
وجلست كما تعودت أن أجلس دائماً .. على جزء من
السور المنخفض المهدم .. حيث مهد لى ، أحمد ، مقعداً بين
الحجارة الناتئة . وأحسست أن كل شىء قد عاد كما كان ، وأن
السنين التى ولّت قد رجعت بى القهقرى .. وأنى قد عدت مرة
أخرى إلى العهد البائد والأيام الخالية .

وماذا بعد ؟ !!

ماذا بعد هذه الجلسة .. التى أثارت هاجع الذكرى ،
وكامن الشجن ؟ .

ماذا أرجو ؟ وماذا أؤمل ؟

وخلت في نفسي هاتفاً يهتف بالمعبد المقدس :
هل الزمان معيد فيك لذتنا
أم الليالي التي أمضته ترجعه ؟
وأجبت نفسي بضحكة ملؤها السخرية .
أي زمن هذا الذي يعيد اللذة المنصرمة والمتعة البائدة ؟
وأي ليال تلك التي ترجع ما أمضت .. وتعيد ما سلبت ؟
ذلك عهد لم يعد يرجى لي منه سوى استعادة الذكريات
وترديد الأحلام .
كل أمل فيه .. لا يعدو جلسة كهذه .. تكتنفها الوحشة
وتحيطها الظلمة .. ويحدوها السكون والهدوء .
جلسة كهذه .. أجلس فيها بجوار الساقية الخربة في عصف
الريح .. وصبارة البرد .. وبهمة الليل .. كأنني شبح من أشباح
الخرائب .. قد باتت كل زادي في الحياة .
بالسخرية ! ..
أذاك هو أقصى ما أستطيع الحصول عليه في دنيانا المليئة
بالنعم والمتع واللذات ؟
وأحمد ؟ لهف نفسي عليه ، وعلى مسة من يده ، وهمسة
من شفثيه !
ماذا يضير القدر .. لو أرسله إليّ في هذه اللحظة ؟

أكثر على القدر .. أم كثير على ؟
القدر الذى يكيل الضربات ، ويتقن السخرات ،
ويحكم تدبير أسباب الضراء .. لم لا يكرمنى مرة فيدبر لى
فرصة سراء !

أكثر على القدر الماهر البارع .. أن يدبر بيننا لقاء
فيرسل إلى أحمد على غير موعد ؟

أم كثير على أن أحظى بهذه النعمة ؟
وتذكرت آخر جلسة لى بجوار هذه الساقية . صباح
الزفاف ، وحيدة كما أجلس الآن ، وتذكرت حنينى إليه
ولطفتى عليه ، وتوقعى مجيئه بين لحظة وأخرى .. آملة أن تدبر
لى المصادفات لقاء آخر .. وتذكرت عودتى بخفى حنين ..
خائبة الرجاء .. محطمة القلب .

من أنا ؟ . حمقاء .. غبية ؟ ! أعلل النفس بآمال زائفة ..
وأوهام سرابية !

تلك أشياء لا وجود لها إلا فى القصص .. أما فى الحياة
الواقعة ، فإن الأقدار أبخل من أن تجود بها .

ذلك اللقاء المحكم الذى تدبره المصادفات المحضة .. هو
شئ أشبه بالمعجزات ، وما أظننى — بعد كل ما حدث —
أطمع فى معجزة .

أين منى الآن .. صنو الروح وتوأم النفس ؟
أترانى أطوف بخاطره كما يطوف بخاطرى .. أم ترانى
لا أشغل من رأسه قيد شعرة ؟
أغلب الظن أنه جالس فى بيته يتمتع بالدفء .. مشغول
عنى .. بامرأته وبطفله ١١
أجل .. إنه لا شك يداعب طفله الآن .. فساأظن
امرأته إلا قد وضعت .
ترى ماذا أنجب ؟ .. بنتاً أم ولداً ؟ .. أتراه سيصدق
فى وعده ويسمى البنت « عايدة » كما قال لى ؟
أتراه سيزكرنى إذا مانادها ؟ .. أم ترى اسمها سيمحو
اسمى فصبح لديه « عايدة » واحدة .. وعفا الله عما سلف ؟
من يدرى ؟
وانطلقت من صدرى زفرة حارة ، وأحسست بعبرتين
ساخنتين تسيلان على وجنتى .
وما الآخرة ؟ .. ما آخرة كل هذا ؟ ١٢
أليس من الخير لى أن أغادر المسكان ، وأعود إلى
الدار ؟ أما كفى أوهاماً وأحلاماً ؟
وهممت بالنهوض متثاقلة .. عندما سمعت فجأة صوتاً
يشق السكون ويهتف بى :

— أنت ؟ .. عايدة ؟
وأفرغني الصوت فزعاً شديداً . . فقد كان وقعه في
لذني وسط السكون السائد . . وأنا لا أتوقع وجود أحد
لي . . شديد المفاجأة على نفسي .
وتمسكتني منه رجفة خوف . . سرعان ما أعقبها
:هول شديد .

من يصدق هذا ؟ .
مستحيل . . لا يمكن ! .
إني لا شك واهمة حاملة .. أأصابني خبل ، ومستني جنة ؟
أهو حقاً أحمد ؟ !
أم تراني ما رأيته وما سمعته . . ولكن شُبّه لي ؟
أجل . . هو ذاك ولا شك . . لقد جسّده لي الوهم من
فرط ما تمنّيته وفكرت فيه .

ومع ذلك . . فقد أخذ الشيخ الطويل الفارع القامة ،
بقترب مني . . حتى بت أكاد أسمع تردد أنفاسه .
لقد كان هو أحمد . . بدمه ولحمه . . لا وهم ، ولا شيخ .
وكنت أنا المتسائلة هذد المرة في صوت مبجوح ،
وأنفاس لاهته :

— أحمد ؟ !

ومضت فترة صمت ، وكلانا يحدق في صاحبه متشدها
مهوئاً دون أن ينبس بكلمة -

* * *

إنى أحاول الآن أن أصف مشاعرى وقتذاك ..
ولكن يبدو لى أن الألفاظ والتراكيب تعيا عن وصفها ..
وتبخسها حقها .

لقد حدثت المعجزة أخيراً ، فى زمن خلا من المعجزات
وتحقق الرجاء الذى لم أجسر حتى على التفكير فيه .

ها هو أحمد .. ما جلس فى بيته يتمتع بالدفء ، ولا شغل
عنى بامرأته وطفله ، بل يقف معى بجوار الساقية الخربة ..
يشاركنى فى رجفة القر ، وعصف الريح ، ووحشة الليل .

وحشة احاشا لله أن تكون الوحشة حيث يكون أحمد .
لقد وقفت أحملق فيه ، وقلبى يدق بعنف ، ويكاد يقفز
من بين أضلعى ، وقد تبدد من نفسى كل ما كان بها من حزناً
ويأس ولوعة وأسى .. وتطارت من رأسى الهموم
والأشجان .. ونسيت كل ما مر بي من حوادث مثيرة صاخبة ،
واعى من ذهنى كل ما فى الوجود من كائنات ومخلوقات ..
ولم أعد أرى إلا مخلوقاً واحداً .. هو أحمد .

كنت أقف أمامه .. بعد طول شوق ولهفة وحرمان

وهجران ، وبعد طول خنوع للبادىء وخضوع للتقاليد ،
وبعد طول إخلاص لزوج لا يستحق الإخلاص ، ومحافظة
على شرف ملوث مثوم .

كنت أقف أمامه .. كالمجهره الصادية .. ألهبها الهجير
وأحرقها السعير ، وكادت تهلك ظمأ . ثم لوح لها بقطرات من
الماء البارد العذب .

ولم أنبس بينت شفة ، ولم أسأله من أين أنى ؟ ولا لم
أنى ! لم أسأله عن شيء قط .

هل يسأل الظامىء الذى كاد يقتله الظمأ .. عن مورد الماء
وكيف أنى ؟ أم يندفع إليه ليهدىء من حرارته ويطفىء ظمأه ؟
كذلك فعلت .

لقد اندفعت فى أحضانه .. بلا كلسة واحدة .. حتى
ولا التحية .. لقد تأرت لنفسى من طول الصوم والزهد ،
والكبت والحرمان .

وضمنى إليه .. وأنا أرتجف وأرتعد .. ولم أتمالك من
الاندفاع فى البكاء . وأخذ جسدى يهتز بين يديه ، وأنا أشهق
شهيق طفل ينتحب .

وهدأت نفسى أخيراً ، وكفت عيناى عن البكاء ثم أخذت
أتمسسه جيداً .. لأنما كد أنه حقيقة .. وأننى لست حاملة .

وقلت له هامة :

— كيف أتيت إلى هنا ؟ . كيف حدثت المعجزة ؟

وأجاب وهو يجلسنى بجواره فى مجلسنا القديم :

— كيف أتيت أنت ؟ هذه هى المعجزة ! أما مجيئى أنا

فليس من المعجزات فى شىء . . فليست هذه هى المرة الأولى
التي آتى إلى هنا .. طالما جئت وحدى . . وقضيت الساعات فى
الوحشة والظلمة والسكون .

— أنت كنت تأتى إلى هنا ؟

— ولم لا .. ما أحسست بالهدوء والسكينة إلا هنا .

— عجباً ! كنت أظنك أنعم بالآ .. وأقر نفساً .. كنت
لظنك نسيت المعبد المقدس .

— كيف أنسى ؟

— ظننت أن لديك من مشاغل الحياة ما يشغلك عن

تلك الذكريات البائدة ، وخطتك ، وأنا جالسة وحيدة فى تلك
الظلمة .. تنعم بدفء الفراش .. هاتئاً بزوجتك وابنتك .

— زوجتى وابنتى ؟

وانطلقت منه ضحكة ملؤها المرارة والسخرية .

وأذهلتنى ضحكته اليائسة البائسة . . وأخذت أرقبه

فى إشفاق ودهشة . . فوجدته يطرق برأسه إلى الأرض .

وأردف في صوت خافت :

— لم يعد لي زوجة ولا ابنة .. لقد ذهبتا كلتاهما ..
الزوجة والطفلة .
— كيف ؟ .

— كانت الولادة عسيرة .. احتاجت إلى إجراء عملية
جراحية .. أودت بالأم والجنين .. رحمها الله .. لقد تعذبت
منذ اليوم الأول للحمل .. لم تر يوم راحة قط .
وتملكنتي عليه لوعة .. لأنه لم يكن أفل مني مصاباً ..
حتى آماله البسيطة التي قنع بها .. ذرتها الرياح .
وحاولت أن أقول شيئاً على سبيل العزاء .. ولكنني
لم أجد ما أقوله .. فضغطت على يده في صمت .
ورفع إلى بصره ، وتساءل :

— وأنت .. ماذا أتى بك إلى هنا ؟
— أتى بي ما أتى بك .. أبغى الطمأنينة .. وأتلس
العزاء والسلوان !

— وعمّ العزاء ؟
— عن كل شيء .. عن حياة مدمرة محطمة .. وعن
مستقبل مظلم حالك .
— كيف ؟ ماذا حدث لزوجك ؟ هل ... ؟

وأدركت ما يعنى بسؤاله .. فهززت رأسي ببطء ..
وأجبت:

— لا .. ما زال على قيد الحياة .. نعم بمباهجها، ويرتع
في محبوبتها ورغدها.
— إذاً ماذا حدث؟

وبدأت أقص عليه ما حدث .. منذ البداية . وشرحت
له تصرفات زوجي وأفعاله . وذكرت له حادث مسابقة
الفرسية .. وغيره وغيره ، وذهابنا إلى العزبة ، وعودته
وحده .. ثم أنبأته بحوادث الليلة .. وكيف وجدتهما معاً
في البيت ، وكيف ذهبت إلى زوجها وماذا قال لي .. وكيف
فكرت في الخلاص بالانتحار ، وتصميمي على الذهاب إلى
أبي رغم بأسى منه .
وقلت له في النهاية :

— لقد سافقتني قدماى إلى هنا بلا إرادة منى ولا تفكير .
لم أكن أتوقع قط أن أراك .. كنت أتلس العزاء من مجرد
ذكراك .. من الشارع القفر .. والساقية الخربة .. وكنت
أحن إليك حنين يائس أضاع الأمل ، وقطع الرجاء . وكنت
أعتبر لقاءك إحدى المعجزات .. وعندما سمعت صوتك
يهتف بي في الظلمة .. كنت في أقصى درجات اليأس .. وقد

هممت بالعودة إلى دارنا ، رغم أنى لا أتوقع من أبى خيراً .
ولكن إلى أين أذهب ؟ .. إن التشرّد والسؤال خير لى
من العودة إلى حياتى السابقة .

ورفع يدى فوضع ظاهرها على فيه .. وضمنى إليه
بأحد ذراعيه . فازددت به التصاقاً .. وقال لى فى لهجة
تذوب رقة وحناناً :

— لا تقولى هذا .. أنت تنشرّدين ؟ .. أنت تشقىين
فى حياتك ؟

وأحسست وقد انصق جسداً وأسدت رأسى على كتفه
بطمأنينة عجيبه وهتفت بغير وعى :

— لا تتركنى وحيدة .. كفى صبراً وتجهداً واحتمالاً ..
لأنى لم أعد أحتمل البعد عنك .. لقد أخذت نصيبى من
الحرمان والشقاء .. وأنت ؟ !

— أنا !! ماذا تظنين حياتى كانت ؟ .. حياة كلى فراغ
ووحشة ، ورياء ونفاق .. حاولت أن أخضع لشبهة القدر
وأن أكون زوجاً وفياً ، ولكن وفائى كان مدهانة .. كنت
وفياً فى الظاهر .. أما فى الباطن .. فما استطعت قط أن أتحكم
فى ذلك النائر فى الحنايا .. المتمرد بين الضلوع .. كم حاولت
تهديمه وتسكينه . ولكنه ما كان يهدأ إلا ليثور لأقل ذكرى

وأبسط سائحة .. كل شيء كان يذكرني بك .. ما من شيء
طاف بي إلا ورأيتك فيه .. كنت أراك في السماء الصافية ،
والنجوم الزاهية ، وأسمعك في حفيف الورق وهتاف الورق ..
كنت أذكرك عندما أنام أو آكل أو أستيقظ .. كل
المتناقضات كانت تذكرني بك : زهور الداليا ، وبرطانات
المستردة .. هديل الحمام ، وضجيج المكائن ... كنت
أذكرك وأنت صائلة في البيت جائلة بمنفضة في يدك ..
أو جالسة في الحديقة ، عارية القدمين .. ملوثة بالطين ..
لم أستطع أن أنزعك من نفسي .. لقد فشلت فشلاً
ذريعاً في ذلك .. كيف لا .. وقد كنت أخطئ أحياناً
فأنادى زوجتي باسمك .. كيف لا .. وأنا ما كففت منذ
اليوم الأول من زواجي .. عن زيارة معبدنا المقدس ..
والجلوس وحيداً .. هنا في هذا المكان الموحش الخرب .
لقد كنت وأنت جالسة وحدك .. تعتبرين حضوري إحدى
المعجزات .. ولكنني كنت أرى حضورك .. وأنا جالس
وحدي .. فوق المعجزات .. لم أحاول قط أن أفكر فيه
أو أتوقع حدوثه .. وماذا يمكن أن يدفعك إلى الحضور
لأقصى الأرض .. وأنت منعمة مرفقة .. هاتئة قريرة ؟
لني ما أتيت هنا قط لمحاولة لقائك .. فقد كان ذلك أبعد

الأشياء عن ذهني .. كل ما كنت أبغيه من الحضور .. هو
التنعم بالذكريات الخالية .. ما أردت أكثر من أن أجلس
وأفكر ، وأنعم بالهدوء والاستقرار .. كانت حياتي شقية
منغصة .. فما كان هناك بيني وبين زوجتي أقل تفاهم .. كانت
تشك في .. دون أن تعرف شيئاً ظاهراً لهذا الشك .. كانت
تدرك بغريزتها أن في قلبي إنساناً آخر .. يستحيل عليها أن
تطرده منه لتحل محله ، ولكنها لم تجد في تصرفي الظاهر
نحوها مأخذاً أو نقيصة .. كانت تحس أن الرباط الذي يشد
أحدنا بالآخر سطحي واه ، لا يربط بين قلبي ، بل بين أناملنا .
وكانت متبرمة شاكية .. متوترة الأعصاب ، وزاد الحمل
من توتر أعصابها وإنهاك نفسها .. فأضحت لا تطاق ، وبت
أرى البيت الذي كان لي أمنية عزيزة جحياً يستعز بالشكوى
والمرض ، وسباب الخدم وضجيجهم .. وكان لا بد أن أجد
لي مهرباً .. أنا الذي لا أحب أكثر من السكون والبشاشة
والهدوء .

هنا كان مهربي ومفري ومخرجي من سعير الدار .. حتى
هدأ السعير ، وسكنت الدار ، وذهب كل شيء كأن لم يكن ،
وهذأت الثورة كأنها هبة غبار ثارت من حولنا برهة ، ثم
استقرت على الأرض ، أو تبددت مع الريح .

وخرجت أشيعها وأنا مطاطيء الرأس ، مخني الهامة ..
أسائل نفسي فيم كان كل هذا ؟ ما بال القدر يستمر في عبث
لاطائل تحته ، ولا جدوى منه ؟ . لقد أصابني بزواجها ،
وأصابني بوفاتها .. فيم كان الزواج والحمل والولادة .. إذا
كان كل ذلك قد انتهى إلى لا شيء ؟ إلى قبر بقفرة وعظام نخرة .
وعدت من المقبرة ، وكأني قد شيعت عبثاً ، وحملت عبثاً
أثقل وأمر ، ولم أذهب إلى الدار ، ولا إلى الميس ، ولا إلى
الكسكات ، بل تسلفت من بين القوم لآتي إلى هنا لأدفن
أحزاني وأغرق همومي .. فإذا أجذك بعد طول لطفة وحنين ،
وقد بلغ بي اليأس من لقائك أشده .. وإذا بك تسأليني
ألا أتركك وحدك .

أنظنين أنني أستطيع تركك هذه المرة ؟
ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم بتقاليدهم وقيودهم ومبادئهم ..
ولتنطبق السماء على الأرض .
تعالى .

وجذبتني من يدي ، وحثنا الخطى تاركين الساقية ،
عابرين الممر إلى الطريق ، وكنت أحس وأنا أمسك في يده
وأسرع بجواره .. أني قد أضحيت مخلوقة أخرى .. ملء نفسي

الجسارة وملء روى الجرأة والإفدام .. لا أخشى عواقب ،
ولا آبه لتأنيج .

كنت أحس أنى لا أسير على الأرض ، بل على هام
السحب .. وأنى قد ألقيت عن كاهلى كل ما أثقله ، ورميت
عن ظهري كل ما أنقضه ، وأنى بت حرة طليقة ، وأنى قد
حطمت القيود ودمرت الأغلال .

لقد صفا ذهنى ورسبت شوائبه ، وخلا تفكيرى من
كل شيء .. إلا شيئاً وحداً ، هو أنى أسير بجوار أحمد ،
وأنى سابق معه .. لن تجرؤ قوة على الأرض أن تنزعنى
منه .. سأكون له أى شيء .. حتى مجرد متاع .

كنى بعداً وحرماناً .. كنى استعباداً للشرف والتقاليد
والقيود الزوجية .. لن أترك أحمد مهما حدث .

أليس هذا الإحساس كافياً لأن يقر نفسى ؟

لإنهبوا جميعاً — كما قال — إلى الجحيم .. الزوج
والآب ، والخلق كلهم ، ولتنطبق السماء على الأرض ، فما عاد
يضيرنى شيء مادمت معه .

بهذه الأفكار النائرة الحرة الطليقة ، خرجت من
المزارع إلى الطريق ، فوجدت عربته الصغيرة تنتظر على
الجانب القريب ، ودون أن ينبس ببنت شفة فتح بابها

وأجلسني .. ثم اتخذ مجلسه أمام عجلة القيادة .. وفي لمح
البصر .. انطلقت العربة تنهب بنا الأرض نهباً .

وتلفت إليه فإذا به قد شرد بذهنه ، وأخذ يحملق ببصره
في غياهب الطريق الذي اخترقه الشعاع المنطلق من مصباح
العربة ، وسألته بصوت أشبه بالهمس :

— إلى أين ؟

— إلى أقصى الأرض ، إلى القمر ، أو إلى المريخ ..
لاتسألني عن شيء .. ألا يكفي أن نكون معاً ؟

— أجل !

— أنتخمين شيئاً ؟

— أبداً .

— أنتخافين عاقبة ؟

— ولا الموت .

— أو ائققة أنت ؟

— ليس أحب إلى من الموت بجوارك .

ووصلت العربة إلى نهاية السور من ناحية المطرية ، ثم
لف بها يميناً بجوار السراى ، وبعد برهة عبرنا شريط السمكة
الحديدية عند محطة سراى القبة ، واتجهنا يساراً في طريق

الزيتون . ثم يمينا في أحد الشوارع الفرعية ، وتوقفت العربية
وترك أحمد مقعده قائلاً :

— دقيقة واحدة .. لا تقلق .

وتركني في العربية ، وابتعد قليلاً ، ثم دلف في أحد
الأبواب ، ورغم رجائه لي ألا أقلق ، فقد أحسست بالقلق .

لقد كنت أستمع شجاعتي من وجوده ، فلما غاب بدأت
أنهاوى .. ولكن لم تمض دقيقة كما قال حتى أبصرت بشبحه
يخرج من الباب ويأخذ في الاقتراب ثم يتخذ بمجلسه بجواري
ويدير العربية في صمت إلى الطريق الرئيسي .. ليتوقف بعد برهة
أمام إحدى محطات البنزين ويقول للعامل :

— املاً الخزان .

وانطلقت العربية من محطة البنزين .. متجهة في طريق
الحلبة .. وكان بي شوق أن أعرف إلى أين يذهب ، ولكن
لم أرد أن أتساءل .. حسبي ما أنا فيه .. ألا يكفي — على حد
قوله — أن نكون معاً ؟

وسمعت تنهيدة حارة انطلقت من صدره ، ووصل صوته
إلى أذني وهو يقول في لهجة خافتة مقررة كأنه يتحدث نفسه :

— الحمد لله .. كأن كل شيء قد رتب بفعل فاعل ..

من كان يصدق أن القدر يكرمنا إلى هذا الحد؟ إن المعجزات
لا تأتي فرادى .

— ماذا تعنى ؟

— أليس لقاءنا معجزة ؟

— أجل !

— والبقية تترى .. أتعرفين إلى أين نحن ذاهبان ؟

— لقد سألتك فلم تجب .

— لم أكن قد وثقت بعد .

— والآن ؟

— كل شيء على خير مايرام .. إن الظروف قد خضعت

لمشيئتنا ، وأن الرياح لآتية بأقصى ما تشتهي السفن ؟

— وماذا كانت تشتهي السفن ؟

— مرفأ تلجأ إليه ، وملاذآ تلوذ به .. يحميها من عصف

الرياح وتلاطم الأمواج .

— وركاب السفن ؟

— كوخ فى أقصى الأرض .. بعيد .. بعيد .. نهرب إليه

وحدنا ونقبع فيه بعيدين عن جميع البشر .. لا يرانا أحد

ولا نرى أحداً .

— وهل وجدته ؟ هل أتت به الرياح ؟

— أجل .

— أين ؟

— فى الإسكندرية .. على الشاطىء فى ناحية منعزلة
قصية .. فى آخر سيدى بشر .. يملكه صديق لى ، وقد طاف
بذهنى ، فرأيت فيه خير مهرب ، وأفضل ملاذ ، وتمنيت أن
أجد صاحبه فى داره .. حتى يعطينى المفتاح ، ولم يكن يته
يبعد .. ذلك البيت الذى مررنا به منذ لحظات ، وكان يمكن
ألا أجدّه ، وكان يمكن أن يقول إن المفتاح ليس معه . ولكن
الظروف — كما قلت لك — قد لانت أخيراً ، وكأنها دبرت لنا
كل شىء ، بلا عقبات ولا عراقيل .. لقد وجدته هناك ، وعندما
سأله المفتاح ، تملكته الدهشة ، وهمّ بالسؤال ، ولكنى أنبأته
أنى على عجل .. فلم يتوان لحظة ولم يتردد فى إعطائه لى ، متمنياً
حظاً سعيداً .. قائلاً إنه ترك كل شىء كما هو ، وأننى لن أنعب
فى شىء ..

وسارت بنا العربة فى طريق مسترد .. وبدأت المزارع من
خلال الزجاج سوداء قاتمة قد لفها الليل بضياب ثقيل ، وعلا نقيق
الضفادع من الترع المجاورة للطريق .. مختلطاً بصوت عجلات
العربة فى احتكاكها بالأسفلت .. صوت كالصفير أو الفحيح .

وسألني أحمد في حنان :

— ما رأيك .. أسعيدة أنت ؟

— كل السعادة .. إني راضية عن كل ما تفعله .. معك

أيما تذهب ، حتى نستقر سوياً في باطن الأرض .

ورفع يمينه عن عجلة القيادة فلمس بها يدي وتحسسها في

رفق ثم رفعها إلى فمه ، وأخذ يتحسسها بشفته كأنه عابد متبتل .

ورأى بيننا الصمت بعد ذلك ، وشرد كل منا بذهنه في

خضم أفكاره .

بالعجب ! .. من كان يصدق أن هذا اليوم الحافل

يمكن أن يختم بمثل هذه النهاية ! أكان يخطر لي على بال في أية

لحظة من لحظاته القاسية الشقية .. أني سأستقر في نهايته إلى

جوار أحمد ، هاربين بأنفسنا من تعاستنا وشقائنا ، واضعين

ألفول البعد والحرمان !

وبدأت أحس بالتعب يخط على جسدي ، وشعرت وأنا

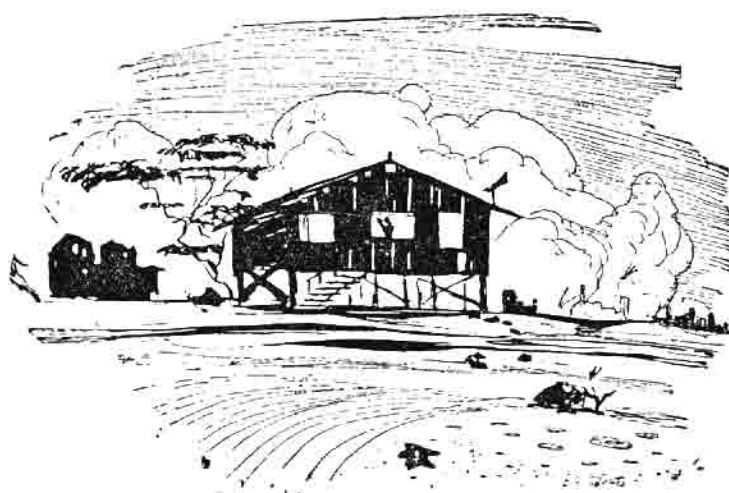
لستقر إلى جواره والعربة تعدو بنا في بهمة الليل .. أني منهكة

مخبطة .. بعد ذلك اليوم الحافل بالمتاعب والحوادث ،

المفعم بالجهد ، والمشقة ، والسير ، والسفر .. ووجدت جفني

تتأقلان ، والنوم يتسلل إلى عيني فأسندت رأسي إلى كتفه

ولم أعد أشعر بشيء .



ساعة فضل البئر

رسلك أنى استغرقت في سبات عميق .. لم تفلح معه
هزّات العربة ولا طول الطريق في ابقاضى ،
فانى لم أشعر بذلك الجهد الذى بذلته خلال اليوم - الجهد
النفسانى والجثمانى - إلا عندما أخذت بجوارحه إلى الراحة ،
فأطبق النوم أجفانى وبسط على سلطانه .

ولست أدرى كم مرّة من الوقت ، ولا كيف مر .. كل
ما أدرية أنى استغرقت في أحلام متقطعة مختلطة صاخبة ،
رأيت فيها أحمد مشتبكا مع زوجى . وأبى بعدو ورأى
محاو لا اللحاق بى ، وفى يده سوط يوشك أن يهوى به على
ظهرى .. ثم رأيتنى أبكى بين أحضان جدتى ، وهى تربت
على كتفى قائلة قولها المأثور : لا تكثرى من الآمال ، فإن
وظيفة القدر هى أن يخيب آمالنا ، فلا تعطيه فرصة للشجاعة
بك ، ثم رأيتنى بعد ذلك فى ثوب زفاف . وقد جلست بجوار
أحمد ، وأمامنا الشيخ المعمم ويده قلبه ودفتره وقد بدا عليه
الغضب ورفض أن يكتب العقد فيمسك أحمد بدفتره يمزقه
تمزيقاً ، وهوى على الرجل بضربة من يده ترديه صريعاً ،
ثم أبصر الشرطة يكبلون أحمد بالأغلال ، ويسوقونه إلى
السجن ، وأنا أصبح خلفه باكية ، أحمد .. أحمد لا تذهب

وأحسست بالعربة قد وقفت ، ووصل إلى صوت أحمد

يصيح :

— عايده . . عايده . . لا تبكى إني بجوارك .

وفتحت عيني فإذا أحمد بجوارى ، وقد أمسك بوجهي
بين يديه ، وأخذ يمسح دموعي ويهتف بصوت ملؤه الحنان :
— لا تبكى يا حبيبتى ، إني لن أذهب أبداً .

وتشبثت بذراعيه فى خوف ، وأنا لم أفق بعد من تأثير
الحلم ، وقلت هامسة :

— لا تتركنى .

— لن أتركك . . سأدافع عن مصيرنا معاً حتى الموت ،
لن نفترق أبداً . . إما أن نبقى معاً ، أو نذهب معاً .

وتلفت حولى فلم تستطع عيني أن تحترق حجب الظلام
المحيطة بنا ، ووصل إلى أذنى دوى مستمر وهدير صاحب ،
فساءلت :

— أين نحن ؟

— لقد وصلنا . . هذه هى الكابين ، قائمة على يميننا . .
والبحر يهدر على يسارنا . . لست أدري أين أضع العربة . .
الرطوبة شديدة والرياح تطاير إلى الطريق .

— كم الساعة الآن ؟

ورفع يده بالساعة وأضاء نور التابلوه وأجاب :
— الواحدة والنصف .. لقد وصلنا بسهولة والحمد لله ..
لم تنعطل العربى . ولم تعترضنا عقبات .. ألم أقل لك إن
الظروف تمهد لنا كل شىء .. سأدخلك الآن . ثم أعود
لأجد مكاناً للعربى .
— لا .. بل سأبقى معك .. ثم ندخل سوياً ، لا أجسر
على البقاء وحيدة .
— كما شئت . إنى أذكر أنه كانت وراء الكاين مظلة
خشبية .. أشبه بشرقة فى الحديقة .
وبدأ يدير العربى ببطء مسلطاً ضوءها على الكاين ،
كأنه نور كشاف ، وبدأ لنا على الضوء سور خشبى به فتحة
واسعة تكفى لدخول العربى .
واتجه أحمد بالعربى نحو الفتحة .. تاركاً أرض الطريق ،
خائضاً فى الرمال ، ثم دلف إلى داخل السور ، ووقع ضوء العربى
على قوائم خشبية ، وقال أحمد وهو يحرك العربى ببطء وتؤدة :
— ها هى المظلة .
ودخلت العربى بين الأعمدة الخشبية ، وأوقف أحمد
الماكينة ، وأطفأ التور ، وتركنا العربى ، وأخذنا نتلسس
فى الظلمة الدامسة .

وعلا صوت الهدير من ناحية البحر .. كأن بجوفه
معركة طاحنة لا يهدأ لها أوار ، أو كأنه قفص يمجج بآلاف
الحيوانات المفترسة الجائعة .. وهبت الريح شديدة
عاصفة .. تحمل إلى وجوهنا رذاذ الماء .. وضمت المعطف
حول عنقي .. وأمسك « أحمد » بيدي يقودني وسط الظلمة ..
حتى وصلنا إلى باب « الكاين » .. وطرق سمعي صوته مرتفعاً
ضائعاً بين هدير البحر وصخبه :

— احترسى . أمامك بضع درجات . امسكي ذراعي جيداً .
ولم أكن في حاجة إلى نصيحته فقد كنت أمسك بذراعه
كأنني غريق يتشبث بطوق النجاة .

وأخذ يتحسس بيده ثقب المفتاح .. وقال مازحاً :

— تصوّري لو أن صاحبنا أخطأ في المفتاح ؟

— لا شيء .. نبيت في العربة .

وسمعت صوت المفتاح يصير في الثقب ، وصوت أحد
يتنهد في ارتياح :

— الحمد لله .

ودفع الباب .. فأرسلت مفاصله صريراً خافقاً ، وعاد
أحمد يقول :

— بقيت مشكلة النور كان يجب أن أحضر ثقاباً أو

بطارية . هقه إحدى مزايا الذين يدخنون . ما بالك ترتجفين؟
وكنت حقاً أرتجف . . . وكانت أستاذي تصطك فترسل
صوتاً مسموعاً . . . لعله البرد . . . أم لعلها رهبة الموقف . . . أو
فرط الجهد .

لم يكن عجباً أن أرتجف . . بل العجب أنى بقيت واقفة على
قدمي حتى الآن . . أنا المخلوقة الوداعة الساكنة . . التي كانت
أقصى مغامرة أخوض غمارها هي أن أجلس وحيدة في الشرفة .
كيف احتملت كل هذا ، وكيف جرؤت على الاقدام عليه ؟
وعاد صوت أحمد يقول :

— هذا مفتاح الكهرباء . . ما بي من حاجة إلى ثقاب
ولا ولاعة .

وغمر النور فجأة أركان المكان ، وأغلقت عيني لحظة ،
فقد بهرما الضوء بعد أن تعودت طول الظلمة . . ثم فتحتها
لأنصر صالة صغيرة . . قد توسطتها منضدة خشبية عارية
وبضعة مقاعد من القش ، وهويت على أقرب مقعد . وأغلق
أحمد الباب . ثم اقترب مني ، وأخذ رأسي بين يديه ثم وضع
شفتيه على شفتي وهمس :

— أنت متعبة ؟

— جداً .

— لشد ما عانيت طيلة يومك . . يا حبيبتى انغالية . . لن
أدعك تتعبين بعد اليوم .

— لن أنعب ما دمت معك .

وكان الحديث ينساب من الشفاه وهى مطبقة بعضها فوق
بعض ، وأسبلت عيني وأحسست بخمول لذيد .

ولم أفتح عيني حتى بعد أن رفع شفتيه ، بل تركت رأسى
مسندة على ظهر المقعد ورحت بين اليقظة والسبات .

وسمعت صوته يقول :

— لا تتحركى حتى أهد لك فراشاً .

ولم أتحرك لأنى لم أكن أستطيع حراكاً . . كنت متعبة
جداً ، وكنت أحس باسترخاء شديد . . كأتى فى شبه إغماء .
ولم أعد أشعر بما حدث إلا كأنه حلم ، فرأيت فيما يروى النائم
أن أحمد أقبل علىّ فحملنى برفق بين يديه ، وسار بهى إلى إحدى
الحجرات وأرقدنى على فراش . . ثم نزع حذاءى من قدسى ،
وأخلع عني معطى ، وأخذ غطاء فدفننى به جيداً ، ثم ركب
بحوارى ، وأخذ يغمر وجهى بالقبل ، وأحسست بدمعتين
ساخنتين تسيلان على وجهى ، وهو يبلصق شفتيه بشفتى . .
وانطلقت من صدرى زفرة حارة حملت معها كل هموم الحياة
وشعرت براحة عجيبة ، آلت إلى نوم عميق ، لا تقطعه الأحلام .

واستيقظت في الصباح وقد نسيت لأول وهلة ما حدث بالأمس ، وأخذت أقلب البصر ليلياً حولي في دهش شديد ، ثم بدأت أدرك ما حدث ، وتواترت عليّ صور الليلة الماضية في سرعة البرق ، وتملكتني خشية ورهبة ، وحارلت أن أفكر فيما يمكن أن ينتهي إليه أمرنا ، ولكنني لم أترك لفكري العنان بل نفضت عن نفسي الخشية والرهبة ، وقلت لنفسي إن أسوأ ما يمكن أن ينتظر أي إنسان هو الموت . . وأنه كان يجب عليّ أن أثوي في قاع النيل لو أن لديّ الشجاعة الكافية للانتحار في الليلة الماضية ، فما يضيرني أن أضيف إلى حياتي بضعة أيام هنيئة تساوي العمر كله . . ثم أختم بعدها الحياة .

يجب أن أنسى كل شيء . . إلا أنني بجوار أحمد . . وأنا نقطن في الكابين ، سوياً بعيدين عن جميع البشر . . كأن الدنيا قد خلت إلا منا كلينا . . أو كأننا آدم وحواء .

إن من الجنون أن أتلف سعادتي بالتفكير في ما يمكن أن يحدث . . وأن أترك جلسة الهناء . . التي انتزعها من أياب القدر . . لأشغل نفسي بمتاعب المستقبل .

ووثبت من الفراش . . أوفر ما أكون قوة ، وأقوى ما أكون أملاً ، مصممة عليّ أن أستغل هبة القدر أقصى استغلال وأن أنسى ما مضى . . وأغض عيني عما هو آت .

وتلفت أخص في الحجرة ومحتوياتها ، وكان بها نافذتان
وجاجيتان إحداهما مواجهة وتنفذ منها أشعة شمس الصباح
الدافئة ، والأخرى بجانبية تطل على الطريق وبدا من خلالها
البحر ، وقد هداً موجه ، وسكن نوءه ، كأنه قد كلّ من طول
الضجيج والصخب ، أو كأن وحوشه المفترسة الهادرة العاوية
قد أعيها الصراخ فراحت في سبات عميق .

وكان أُنث الحجرة غاية في البساطة . . الفراش الذى
كنت أرتد عليه وقد وضعت على حشية ، فرشت عليها ملاة
بيضاء ، وكوم الأنطية التى دثرنى بها أحمد ، ودولاب خشبي
و«تسريحة» صغيرة واطئة ذات مرآة أشبه بمرايا «لونا بارك»
وقد وضع عليها مشط وفرشاة للشعر «وعلبة بريل كريم» .
وفتحت الدولاب فوجدت في جانب منه بضعة أرفف وضعت
فيها الملابس ، والمناشف ، وأكياس الوسادات . . والجانب
الآخر بضعة مشاجب علق على إحداها معطفي .

وخرجت إلى الصالة بملاسى التى كنت أرتديها بالأمس
والتي رقدت بها في الفراش إذ كنت لا أملك غيرها ،
وأخذت أبحث عن أحمد . . فإذا به يرقد في حجرة مجاورة
بفصلها عن حجرتي باب مغلق .

ووقفت يباب الحجرة أرقبه وقد أخذ يتنفس في هدوء .

وغطى جسده بسجادة عتيقة بالية . . فأدركت أنه دثرني بكل
ما عثر عليه من أغطية ، ولم يجد ما يقيه للبرد سوى هذه السجادة .
وعدت إلى حجرتي لحملت ما على الفراش من أغطية .
ثم اقتربت من فراشه على أطراف أصابعي ، ورفعت السجادة
برفق ، ثم بدأت أضع الأغطية فوق جسده ، وعندما انتهيت
من تغطيته وجدته يفتح عينيه ويقول ضاحكا :

— لا داعي لكل هذا التعب . . ارفعها ثانية . . لأنني
عزمت على النهوض !

— كان يجب أن تتناصفها . . بدلا من أن تثقل على
جسدك بهذه السجادة المتربة .
— لقد تعوّدت التقشف والاختيشان .

وقفز من فراشه وكان يرتدى القميص والبنطلون وسألني
في مرح واغتياب :

— كيف أنت الآن ؟

— على خير حال .

— لقد كنت متعبة بالأمس !

— الحمد لله أن وصلت إلى هنا على قيد الحياة بعد كل
ما لقيت من جهد وعناء .

— سأعوضك عن هذا التعب . . يجب أن تستريحى ،

وتدعيني أعمل كل شيء .

— بالعكس .. يجب أن تترك لي حرية التصرف في شؤون الدار . . وألا تتدخل فيما لايعنيك .

— ألا تريد أن تستريحى ؟

— أمامى عمل كثير فى الدار ، يجب أن ترتدى ملابسك وتذهب لابتاع ما سأطلبه منك .

— بدأنا الأوامر من الآن !

— إن أوامرى يجب أن تنفذ بحذافيرها .

— هات الثمن مقدماً .

ومد إلى ذراعيه فجأة وضمتني إليه بعنف وهمس فى فمى :

— أنت لى ؟ .

— وأنت لى .

— لى وحدى بلا شريك ولا منازع ؟ .

— لك وحدك .. الآن ، وفيما مضى ، وفيما بعد ..

ما استطاع مخلوق أن يتزعمنى منك .

— أحب رائحة أنفاسك ، ورائحة شعرك .. كنت دائماً أتمنى أن أقبلك وأنت ناهضة من الفراش .. مازال النوم يثقل أجفانك . أنت جميلة دائماً على أى حال وفى كل وقت ، مارأيت إنساناً يستيقظ من سباته ، يمثل هذه الروعة ، ويمثل هذا الجمال .

وأقلت من بين ذراعيه ، وقد ملأني من حديثه نشوة .
ونظرت إلى ساعة يده ، وقد وضعها على المنضدة فإذا بها
النامنة والنصف .

° ° °

وفي التاسعة كان يهبط من البيت ، وقد حمل معه ورقة بكل
ما طلبت منه ، ولم يكد يصل إلى العربة حتى ذهبت إلى النافذة
وصحنت به :

— نسينا شيئاً هاماً .

وصاح بي من أسفل :

— ماهو ؟

— قدح عدس بحبة .

— أما زلت تذكرين ؟

— وخل وشطه لمبة الدقة !

— لا لزوم لها الآن .

— بل لا بد أن تحضرها . . سأريك أنى طبخة ماهرة

و مدقده . .

— سأحاول .

وانطلقت العربة في طريق الكورنيش تجاه الاسكندرية
وأخذت أجول في الدار الخشبية أخص حجراتها ومحتوياتها .

ولم يكن بها عدا الغرفتين اللتين نمنا فيهما سوى غرفة أخرى للجلوس وشرفة زجاجية منسعة تطل على البحر ، وكانت دورة المياه صغيرة ونظيفة ، والمطبخ يكاد يكون مستوفياً جميع لوازمه من أطباق وكسرولات وأدوات للطعام .

لقد كان الكوخ في نظري نموذجياً ، لا يحتاج إلا لعملية نظافة .. ولم يكن هناك أقدر مني عليها ، وانطلقت بحاسة مشمرة عن ساعدي ، ورفعت ذيل فستاني ، ولففته حول وسطى ، كأتى خادمة ماهرة ، وبدأت عملية الكفس وتنفيض الأثاث وإزالة الأتربة عن النوافذ ومسح الزجاج ثم ملأت « دلوأ » عثرت عليه في الحمام ، وأخذت في مسح الأرض ، ووضعت على المنضدة غطاء نظيفاً ، وغيرت أكياس الوسائد وأعطية المراتب وجمعت كل ما يحتاج إلى الغسل .

وسمعت صوت العربة تقف أمام الدار ، وأحمد بقرع الباب ، وفتحت له ، ووقف ينظر إلىّ وهو يحمل بين يديه كعباً مليء بالخضر والفاكهة ، والحاجيات التي طلبتها منه ، ووحده يضحك بملء شديقه ويقول :

— ما شاء الله .. هذا والله منتهى الأناقة ، والشياكة ، لا ينقصك سوى « منديل رأس بأوبية » .. و « زوج من الخلاخيل » .. من . عليك أن تربطى ثيابك هكذا حول

وسطك أيتها الأرستقراطية ؟

— علمتينا .. من علمك أكل والكشرى أبو جبة
ومية الدقة .. يا حضرة الأرستقراطي .. ادخل .

ودخل أحمد ووضع مامعه على المنضدة وقال وهو يزفر :
— عليك من ده يايه يا بنت الناس .. ما كان أغنانا
عن كل هذا التعب .. كنا نستطيع أن نتناول غداءنا في أحد
المطاعم ثم نتم بفراغنا وحرابتنا .. لم كل هذا الجهد ؟

— ليس هذا بمجد .. إني سعيدة كل السعادة .. سأكون
معك هكذا دائماً وست بيت .. هذا ما أحب أن أكونه .
لقد شبت فراغاً ، ونزهة ، وحرية ، وانطلاقاً .. أريد
أن أكون زوجة .. زوجة وخادمة .. لقد مللت السيادة
الكاذبة والأرستقراطية الزائفة .. كرهت الملاهى والفراغ ،
والدعة والخمول .. ألا تحبني هكذا ؟

— أحبك هكذا .. وغير هكذا .. لو سرحت بمشنة
فول نابت ، لعدوت ورائك في الطرقات .. ولو جمعت
« أعقاب السجائر » لعاونتك على جمعها .. إني أحبك كيفما
تسكونين .. أيتها المخلوقة المثلى .

— هيا .. وكفى غزلاً .

— ماذا تريد مني أن أكون ، مرطوناً ، أم غسالة ؟

- لا أريد منك شيئاً ، دع كل شيء لي . اذهب وتنزه
- على الشاطئ ، أو اجلس واقض الشعر ، وسأفعل كل شيء .
- لا تكوني عنيدة .. لا بد من معاونتك . . أفسر لك البطاطس .. أو أصني لك الطماطم ؟
- لا أريد معاونة أحد . . أرح نفسك .
- حسناً .. سأفعل شيئاً طالما تقف إليه .
- ما هو ؟
- أستحم في البحر .
- الآن ؟
- أجل ! .
- لا تكن مجنوناً .
- ولم ؟
- أنتحم في هذا البرد ؟
- ليس برداً .. إن الشمس تدفئ الكون .
- الشمس لا تدفئ شيئاً .. نحن في عز الشتاء .
- لقد تعودت أن أسبح في حمام السباحة ، في مثل هذا الوقت . . في أول الأمر أحس برجفة . . ثم أتعود برودة الماء بمجرد أن أمعن في السباحة .
- ثم بدأ في خلع ملابسه بسرعة ، ولف نصفه الأسفل بمنشفة ،

وانطلق يعدو إلى البحر في مرح الأطفال وهو يصبح بي :
— خذى بالك من الكشرى . . إياك أن يشيط .
وتمسكتني عليه في بادي الأمر خشية البرد . ولكني
عندما وقفت في الشرفة وأحسست دفء الجو وحرارة
الشمس اطمأن قلبي وعدت إلى الداخل لأبشر أعمالي .
ولم أكن جاهلة بشئون الطهي . فقد كنت كثيراً ما أزوج بنفسى
في المطبخ . . وأنهاك في الطهي مع « أم حسن » الطباخة . .
بل كنت في بعض الأحيان أتولى طهي بعض الأصناف وحدي .
وبدأت في تقشير الخضر وإيقاد الكوانين . . ولم تمض
برهة حتى كانت النيران تنز تحت الأواني .
وكانت عملية غسل الملابس والملاءات ما زالت تنتظر
دورها ، وكنت أحس بغبار السفر وقذارة الكنس والمسح
تخط على جسدى . . وكان لا بد لي أيضاً من الاستحمام .
وجمعت ملابس أحمد التي خلعتها ، وخلعت ملابسى ،
وارتديت المعطف « على اللحم » . . وبدأت أقوم بغسل
الملابس في الحوض وأنا أرقب الطعام بين آونة وأخرى .
وانتهيت من الغسيل ، وبدأت « عملية النشر » على حاجز
الشرفة كما أذا بالمعطف المجرد ، وأنا أحس بنشاط عجيب .
ولم أكّد أنتهى من النشر ، حتى أبصرت أحمد يعدو متوثراً

ويقفز الدرج ، ثم يقف أمامي ناظراً إلىّ في دهش وتساؤل :

— والغسيل أيضاً ؟ أقسم أن أحد أجدادك كان خادماً .

— جدى . . أبو أمي ؟

وكان جدنا من ناحية الأم مشتركاً . . فضحك وأجاب :

— لا . . جدك أبو أبوك بالطبع .

— ادخل لئلا يلفحك البرد . . كفى جنوناً . . مارأيت

إنساناً عاقلاً يستحم في البحر في هذا الوقت من الشتاء . .

إن في شفتيك زرقة . . ادخل ولا تقف هكذا عارياً .

ونظر إلى الملابس المبتلة المرصوفة على سور الشرفة ،

وهزّ رأسه في أسف وقال :

— وماذا أرتدى وقد غسلت الملابس الوحيدة التي

أستطيع أن أستر بها جسدي ؟ .

— لف جسدك في إحدى البطاطين حتى تجف الملابس .

— حاضر .

ودخل إلى الدار . . وبعد لحظة خرج إلىّ وقد لف

جسده ببطانية وبدأ كأحد تماثيل الإغريق وقال :

— هكذا يعجبك ؟

— جداً . . بك شبه كبير من

— من ماذا ؟ من طرزان ؟

- لا .. من . أم على ، بائعة الفول الثابت .
- أشكرك .
- العفو .. عليك الآن أن ترقب الطعام حتى أستحم أنا
- الآخرى .
- أراقبه ؟ كيف ؟
- يعنى تقف أمامه .
- حتى لا تفر الحلل ؟
- لا .. حتى لا يحترق .. اكشف على الحلل من آن
- لآخر ، فإذا رأيته يوشك أن يحف فضع قدراً آخر من الماء .
- بسيطة .. أهذه كل المأمرية ؟
- أجل .
- ودخلت الحمام ، وكنت قد وضعت ماء في « صفيحة »
- خز .. ولم أكد أنزع المعطف عن جسدى وأمسك بقطعة
- بابون ، حتى سمعت طرقاتاً على الباب وأجبت :
- ها .
- الكشوى فار .
- ارفع غطاء الحلة قليلا .
- وبعد لحظة .. عاد يدق الباب مرة أخرى :
- رفعته .. ومستمر فى الفوران ؟

— دعه يفور كما يشاء .. لا تضايق نفسك كثيراً به .
— إن منظره لا يعجبني .. لا يبدو كالكشرى الذى
كنت آكله فيما مضى فى ميدان السيدة زينب !
— سيعجبك عندما ينضج .
وبدأت أصب الماء على رأسى وجسدى عندما سمعت صوته
يصيح من وراء الباب : « عايدته » ؟
— نعم !
— البطاطس يكاد يحرق . أى قدر من الماء أضع فى الحلة ؟
— كوب يكفى .
ومضت فترة قصيرة ثم سمعته يصيح :
— لم أكن أظن أن الطهى يمثل هذه السهولة
ثم علا صوته بعد ذلك يندندن بأغنية الجندول ، ولكن
لم يكذب ببدأ فى الأغنية حتى كف عنها وصاح بأعلى صوته :
— عايدته .. الحقى .. الكشرى اتحرق .. إني أشم رائحته
« شياط » .
— الله يلعن أبو الكشرى .. والذى اخترع الكشرى ،
حاضر .. خارجه حالا .
وأسرعت بإزالة الصابون عن جسدى .. ثم جففت الماء
بللنشفة .. وارتديت المعطف ، وخرجت إليه فوجدته واقفاً

أمام « حلة الكشرى » يتذوق منها بملعقة ويهتف :

— هائل .. لم أذق ألذ منه من قبل .

— لم قلت إذا أنه احترق ؟

— خيّل إلى .

وتناولت منه الملعقة وأخذت أخمص بقية « الحلل » ..
وأحسست به يفحصنى بطرف عينيه .. وكنا نقف متلاصقين
فوجدته يمد شفثيه ويتحسس بهما ذقنى وجانب شفثى وطرف
أذنى .. وأحسست بشعيرة فى جسدى ، وسمعته يقول فى
صوت رقيق :

— أنت بردانة ؟ انتظرى حتى أحضر لك البطانية الأخرى .
واختفى فى إحدى الحجرات ثم عاد حاملا البطانية ولفها
حول جسدى .. ثم حملنى بين يديه وسارنى إلى الفراش
فوضعنى عليه برفق وقال :

— عليك الآن أن تستريحى .. سأخذ دورى فى العمل .
وسأتولى تجهيز المائدة والقيام بدور السفرجى .
— اطفىء الكواكين فقد نضج الطعام .
— حاضر ، لا تتحركى من الفراش ، سأقوم بكل ما تريدن .
وأحسست براحة عجيبة ، وأنا راقدة فى الفراش . وبدا لى
أننى طرحت خلنى كل ما حملت من أعباء الحياة .

وسمعت وقع أقدامه تغدو وتروح .. وصوت أطباق
توضع على المائدة . وبعد برهة ، وجدته يقف أمامي ويقول
وقد انحنى في احترام بالغ :

— تفضلي يا هانم .. المائدة جاهزة .

وهمت بالنهوض ، ولكنه وضع يده على كتفي قائلاً
بنفس اللهجة الخاشعة :

— لا تتحركي ، إياك أن تتعب نفسك ، سأحملك إلى المائدة .

— أحمد .. كفي سخافة .. دعني أسير .

— أبدأ .. لا بد من حملك .. إن أمتع شيء لدى في الحياة

هو حملك ، فلم لاتدعيني أحملك .. فتريحيني وتريحني نفسك ؟
وضحكك واستلقيت على الفراش وقلت :

— تفضل .

ورفعني بين يديه وضممني إلى صدره ، وسار وهو يضع

مفتحيه على شفتي ، وأنفه على أنفي وهمس قائلاً :

— واحد شابل روحه .. والثاني تعبنا ليه ؟

ورفقا في أمام المائدة ونظر إلها معجباً وقال :

— مارأيك ؟

وقان ما يزال يحملني بين يديه فأجبتني :

— أرجو أولاً أن تضع « روحك » على أحد المقاعد .

— حاضر
وجلست أمام المائدة .. وقد رصّ عليها للصحاف ،
ونظرت إليه معجبة وقلت :
— لا بد أن أحد أجدادك كان سفيرجياً !
— هذه المرة .. جدى لأمى .

وبدأنا فى تناول الطعام .. ولا أظنه كان جيد الطهى ،
ومع ذلك فما أذكر قط أن أكلت بشهية ، كما أكلت حينذاك ،
ولم نكف عن تبادل النكات والأحاديث المرححة طيلة الطعام .
ولست أدري ما الذى دفع فى رأسى فجأة ذلك الحاضر
القلق .. فجعلنى أفكر فى كيف يعمل ، أحمد ، هذه الغيبة عن
عمله ، وماذا ترى سيفعلون به ؟

عن نفسى أنا لا يهمنى قط ما يمكن أن يؤول إليه مصرى
فكنى أنى استمتعت فى حياتى بهذه الفترة التى أحيا فيها الآن .
كنى أن لقيت فى حياتى ساعة تفضل العمر .
ولكن هو .. كيف تركته يتدفع معى فى هذه المغامرة ،
دون أن أفكر فيما يمكن أن يصيبه من جرائها ؟
ولا شك أنى كنت أبداً ساهمة شاردة ، فقد وجدت
أحمد يهتف بى :

— عايدة .. ما بالك ؟

وهزرت رأسي وأجبتة محاولة الضحك :

— لا شيء .

— بل هناك ما يقلقك . . ماذا تخشين ؟

— أخشى عليك .

— مم ؟

— ماذا سيقولون عن غيابك عن عملك ؟

— لقد كلفت صاحبي أن يقدم عني طلباً بثلاثة أيام إجازة

مخفية ، ولا شك أن القائد سيوافق عليها . فهو إنسان لطيف .

— وبعد الثلاثة أيام ؟

— يفعل الله ما يريد . لانشغلي بنفسك بالتفكير في أي شيء .

وفي نفس الوقت الذي ساق إلى نصيحته تلك . . بدا

هو الآخر ، وقد شرد ذهنه ، فقلت ضاحكة :

— لقد جاء دورك في التفكير !

— أنا ؟ ! ليس في رأسي شيء .

— بل به ما يضايقك ؟

— أقول لك الحق . . كنت أفكر في مصيرك أنت .

— مصيري أنا ؟

— أجل . . إني أنا الذي يجب أن أخشى عليك .

— لمه ؟

— كان يجب على ألا أغريك بالاندفاع معي .. لقد
اندفعنا كالمجانين .. كان يجب علينا التريث .. لقد كنا مثلاً
للعشاق الفدائيين .

— أنطرق الندم إلى نفسك ؟
— أنا لا يعني شيء قط .. ولكن أنت ؟ .. إنك
ما زلت زوجة ؟

— زوجة ؟ .. لا تقلها مرة أخرى .. أي زوجة أنا ؟
زوجة ضائعة الحقوق .. مهددة الكرامة .. مسلوقة زوج
لا يستحق السلب .. لا .. لا .. إني لا أعتبر نفسي زوجة
وأستطيع أن أؤكد لك أن مصيري يمكن أن ينتهي إلى أي
شيء إلا العودة إلى هذا الحيوان .

ومضت برهة استغرق كلانا في التفكير .. وبدأت
أنصور حياتي البغيضة وزوجي الكريه .. ولكن سرعان
ما انفضتها عن ذهني كما تنفض الأتربة عن الثياب وقلت لأحمد:
— أرجوك .. دعنا من كل هذا .. يجب ألا نفسد
هنا ما يتذكر الماضي ، أو التفكير في المستقبل .. يجب أن
نعيش فقط في حاضرنا السعيد .

وضغط على يدي وأجاب:
— أجل .. يجب أن ننسى كل شيء ما دمنا وحدنا .

وتركنا المائدة . . ورفعت عنها الصحاف وبقايا الطعام
وخرج هو إلى الشرفة . . ثم عاد يقول
— لقد جف الغسيل . . مارأيتك في الذهاب سوياً إلى
الإسكندرية لنجول جولة في شوارعها ونبتاع بعض اللوازم؟
— كنت أوشك أن أطلب منك هذا . . هيا بنا .
وبعد لحظات كنا قد ارتدينا ملابسنا . . وأغلقنا الباب
ثم هبطنا إلى العربة وسارت بنا تنطلق في طريق الكورنيش .
كانت تلك هي المرة الأولى التي أحضر فيها إلى الإسكندرية
في الشتاء . . إني ما ظننت أنها لطيفة بهذا القدر . . أم ترى
الرضا كائناً في نفسى . . وعين الرضا عن كل عيب كيلة ؟
ليكن ما يكون . . إن حقائق الأشياء لا قيمة لها . . إلا
بالقدر الذى نراها به . . لقد كنت أحس والعربة مندفة على
الكورنيش . . والطريق خال والرمال منبسطة . . والبحر ممتد إلى
ما لا نهاية . . أنى أسير في طريق خاص . . وأن كل ذلك
البحر والفضاء . . ملكنا وحدنا . . لا شريك لنا فيه .
وصلنا إلى ميدان الرمل وأوقف أحمد العربة . . ثم سرنا
نجدول على أقدامنا .

وكنتم أحمل في حافظتى ورقة بعشرة جنيهات أعطاهما لي
«توتو» عند تركه إياي في العربة ، وكنتم أحسن بقيمتها الآن ،

فهي لا شك ستفنعنا نفعاً كبيراً . . . وقلت لأحمد أبنه عنها :

— معى عشرة جنيهات .

ثم مددت يدي فى الحافظة وأخرجتها له ، ولكنه أجاب مؤباً :

— أنا أيضاً معى نقود .

— ضعها مع نقودك . . حتى نصرف منها .

— بل ابقها معك . . إن معى ما يكفى .

وقلت له غاضبة :

— أحمد . . لا تكن سخيلاً . . ليس هذا وقت كبرياء

وكرامة . . نحن فى حاجة إلى نقود . . وقد تكون نقودك

كافية ولكن إذا أضفت إليها نقودى فستكفى أكثر . .

أرجوك كف عن هذا العناد . . ودعنا نستمتع بوقفتنا .

ونظر إلى أحمد ثم ضحك . . ومددت يدي بالورقة

فوضعها فى جيبه .

واتهينا من جولتنا وابتعنا ما نحتاج إليه من ملابس

وأطعمة وأشياء مختلفة ، ثم عدنا إلى العربية ، وكانت الساعة

قد بلغت الخامسة والنصف . . وسألنى أحمد :

— مارأيك فى الذهاب إلى السينما ؟

— كما تشاء .

وذهبنا إلى إحدى الدور ، ولم نكدر نستقر على مقاعدنا
حتى أحسست بيده تضغط على يدي وسمعتة يهمس .
— أتذكرين أول ذهاب لنا إلى السينما سوياً ؟
— عندما تركتنا جدتي وذهبت إلى نفيسه هانم ؟
— وعند ما لم نطق البقاء في السينما
— وذهبنا للسير وراء السراى !
وساد الصمت لحظة . ثم سمعتة يهمس ثانية :
— إني لا أطيق الجلوس الآن .
— ولا أنا .
— هيا بنا .
— هيا . . .

وهكذا انصرفنا من السينما بعد خمس دقائق من دخولها .
إن الوقت أثنى من أن نضعه في الإمعان في الشاشة . .
فقد كان كل منا يرى في وجه صاحبه أجمل ما يمكن أن
يرى . . . ويسمع من شفثيه خير ما يمكن أن يسمع .
وعدنا إلى الدار ووضع العربى مكانها وصعدنا الدرج
نحمل مشترياتنا . . ملء نفسينا الثقة والاطمئنان .
لم يكن بى من رهبة الليلة الماضية وإنها كها شى . . وما كان
بى أقل شعور بالاعتراب أو الوحشة ، بل كنت أحس أنى مقبلة

على موطنى الطييعى، ودارى التى ألفت سكناها منذ عشرات السنين،
ودلفنا إلى الداخل . . فلم تنفذ إلى أنفى رائحة تراب، ولا
صدم عيني منظر خراب، وأحسست بالسكينة وأنا أجد الصالة
نظيفة مرقبة . . تتوسطها المائدة مغطاة بمفرش أبيض نظيف
وضع عليه الكوب الذى وضعت فيه بعض أغصان خضراء
وزهور برية قطفتها من الأعشاب التى تحيط بالمنزل .
ووضعت لوازم الطعام فى المطبخ . . ورتبت الملابس
فى الدولاب . . ثم بدأت أعد العشاء . . .
وأحسست بشفتيه تسانى عنقى وأنا أقف أمام مائدة
المطبخ وسمعتة يهمس :
— دعيني أتمم عملى . . واذهبى لتغيرى ملابسك . .
إن هذا دورى فى العمل .
— سأغيرها بعد العشاء .
— بل تغيرين الآن . إنى أتوق إلى رؤيتك بالبيجامة الزرقاء .
— قلت لك بعد العشاء .
— لا أستطيع الانتظار .
— لحظة واحدة حتى أنزل « البيض » عن الوابور .
وأعطأت الوابور . . ثم تركته يعد المائدة . . وذهبت
إلى حجرتى وأخذت أغير ملابسى ، وقد تملكتنى قشعريرة

عجبية واضطراب لذيذ كآنى مقبلة على عرس .
ووقفت أمام المرأة أرقب نفسى وقد ارتدبت البيجامة .
حمداً لله .. إنى مازلت جميلة .. بل ما أظننى كنت أجمل
مما أنا الآن ، لا تظنوا بقولى غروراً !! .
أو ظنوا كما شتمتم ! مغرورة أو غير مغرورة .. لقد
كنت أرى نفسى جميلة .. وكان هو يرانى أجمل .. ماذا بهم
بعد ذلك إذا كنت فعلاً غير جميلة ؟ !
ومع كل ذلك — ورغم أنى قد أكون لا آخلو من
الغرور — فإنى أؤكد لكم أنى جميلة .
وكيف لا أكون .. وأنا أبصر صدرى فى المرأة ، وقد
رفع صدر البيجامة .. وتجسد من وراءها .. وخصرى
وقد ضمه الحزام ، واستوى من تحته ردى فى ؟
ووجهى !! إنه ما زال كما هو دائماً .. نضراً .. متورداً ،
وشفتاى وعينائى وشعرى المنساب .. تماماً كما كنت أقف
فى المرأة فى حجرتى فى بيت الخدائق .
وخرجت إلى الصالة ، فوجدت أحمد قد أتم إعداد المائدة
وجلس ينتظر ، وعندما أقبلت عليه رفع بصره إلىّ وأخذ
يحديق فى كأنه لم يرنى من قبل ، ثم هتف :
— مدهشة .. .

ثم هزّ رأسه أسفاً وأردف :
 - كان يجب ألا تغيرى ملابسك إلا بعد العشاء .
 - ولمه ؟
 - حتى أستطيع التمتع بالطعام .
 - وماذا يمنعك الآن ؟
 - أنت . . ليس من بين الطعام ما يستطيع أن يحولنى
 عن النظر إليك .
 - ولا الكشرى ؟
 - ولا الكشرى .
 - هذا تصريح خطير . . أستطيع أن اعتبره أنتصاراً
 كبيراً الى . . وهزيمة منكرة . للكشرى . .
 وهممت بأن أجلس أمامه ولكنه صاح :
 - بل بجوارى . . ملاصقة لى .
 - دعنا نأكل . . أرجوك . . دع الغزل إلى ما بعد
 الطعام . : ما جعل الله لرجل من قلوبين فى جوفه .
 - ولكنه جعل له قلباً وبطناً . . فلك القلب وللسائدة
 البطن . . اقتربنى أرجوك . . لاتضيعى عمرنا سدى .
 وحملت الكرسي فجلست بجواره ، وبدأنا نتناول الطعام
 وهو يأكل بيد ويحيط خصرى باليد الأخرى ، وقلت له :

— أحمد .. كل يديك كلتيهما .

— أخشى أن أغمض عيني وأفتحهما فلا أجذك .. أخشى أن تفرى من يدي .. هل تصدق أنى كثيراً ما يشردنى الذهن فيخيل لى أن كل ما أنا فيه ليس إلا حلماً .. وإنى سأستيقظ بعد لحظات لأجد الحلم قد تبدد وأجذك أثراً بعد عين .

— هبه قد تبدد .. ألا يكفينى ما تتمتع به الآن ؟ 1
— ألا نعوّضنا هذه الساعات .. عن شقاء العمر كله ؟
— أجل ، ولكنى وددت لو يدوم الحلم ، وألا نستيقظ منه أبداً .

وانتهينا من الطعام ، وغادرنا المائدة ، ودلفنا إلى الشرفة الزجاجية المطلّة على البحر وجلسنا متلاصقين على أريكة من القش وقد أسندت رأسى على صدره .

ورنا كل منا فى صمت إلى ما وراء زجاج الشرفة ، وكان هدير البحر يصل إلى آذاننا خافتاً كأنه منبعث من مكان نام وغور صخيق .. والزجاج قد تندى بقطرات الماء ، وبدأ السحب من ورائه متقطعة تخفى بين طياتها القمر حيناً وتظهره حيناً .. وبدأ القمر كأنه يعدو وراء السحب .. وهى ثابتة لا تتحرك ، وهو يظل من خلفها بين آونة وأخرى ، وكأنه يلعب ، استغاية ، أو كأنه يحذرنا مداعباً ويتسم ابتسامته

المشرقة ليقول « حذار .. إني أرا كما .. »

وأحسست من فرط المتعة والراحة والشعور بالاستقرار
أنى لا أطمع فى شىء إلا البقاء فى مجلسى إلى الأبد .. وأنى
لم أعد فى حاجة إلى أكثر من ذلك .

ولم نتكلم .. فقد كنا نملين فى جلستنا .. ثمانين من غير خمر ،
فقدنا القدرة عن أن نأتى بأى شىء حتى الكلام ، ومد أصابعه
يتخلل بها شعرى .. كما تعود أن يفعل دائماً .. ثم أخذ
يتحسس بها وجهى ، ويلس أهداب عيني ثم أننى وشفتي .

واستقرت أصابعه على شفتي .. فأخذت أقبلها قبلات
خفيفة أشبه بحسو الطائر الفزع .. وأضغط عليها بأسناني
ضغوطات مترفة حنونا .. شاعرة من ذلك بمتعة عجيبة .

وتمد على الأريكة واضعاً رأسه على ساقى ، مسنداً قدميه
على حافة الأريكة ، وأخذ كل منا يرنو إلى وجه الآخر وأصابعه
ما زالت على شفتي أقبلها حيناً وأضغط عليها بأسناني حيناً آخر .

وسمعتهم يهمس :

— أأثقل برأسى على ساقيك ؟

ولم أجب بكلمة .. بل انحنيت برأسى على رأسه ..
ووضعت شفتي على شفتيه .. ومضت فترة صمت كنت أسمع
خلالها دقات قلبينا وحفيف أنفاسنا .

ورفعت رأسي أخيراً ونهضت عن ساقى مجلس بحوارى
ثم حملنى بين يديه وأجلسنى على ساقيه كأنى طفلة غريرة . .
وأحاط جسدى بذراعيه . . ثم أطبق شفتيه على شفتى . .
وضغط عليهما ضغطاً شديداً حتى تلاصقت أسنانتا .

وأغمضت عيني مستسلمة . . وأحسست باسترخاء شديد
ورغبة فى النوم . . وهمست به قائلة : أريد أن أنام .
ودون أن ينبس ببنت شفة حملنى بين يديه وسار به إلى
حجرتى ، ووضعنى برفق على الفراش .

ثم حمل الأغطية ، فأخذ يثرى بها كما فعل بالأمس ، فلما انتهى ،
وقف ينظر إلى فى صمت وتردد ، وسألت فى صوت خافت :
— وأنت . . بم ستغطى ؟

— بالسجادة .

— ألم تشعر بالبرودة فى الأمس ؟

— كلا . . لقد كان فيها الكفاية .

وصمت برهة ، وكنت أحس أن المسألة تحتاج إلى شيء
من الشجاعة ، وما أظنها كانت تنقصنى ، فلقد همست فى صوت
حالم ، وأنا أرفع الغطاء وأفسح له مكاناً بحوارى :

— تعال . . دعنا نشارك الغطاء . . دعنا نشارك فى كل

شيء : النوم ، والصحو ، والحياة ، والمات .



۱۶ غرضیج بلا اذن

أخشي أن أنهم بالإباحية والزندقة ، إذا أنا تحدثت بشيء .
عن ليلتنا الأولى . . ليلة تشاركنا في الفراش
والعطاء . . ومزجنا الروح بالروح ، والجسد بالجسد .

أنا أعلم أنها أشياء لا تكتب ، ولا يقال . . فنحن في عالمنا
هذا ، المملوء بالعجائب ، ندعى الاشتزاز من الحديث فيما
لا نشمئز من فعله . . ففعل المنكر لا يعتبر عيباً ، بقدر ما يعتبر
الحديث عنه عيباً ، وليس أسهل على الإنسان من أن يبيع
لنفسه في الليل ما يشمئز من ذكره أو سماعه في النهار .

عالم النفاق والمنافقين ، كلهم تمنون أن أذكر ما حدث ،
ولو كتبته لأقبلتم على قراءته بلهفة الجائع المحروم ، فإذا ما انتهيت
منه هزتم الرؤوس أسفاً ، وقلبت الشفاه احتقاراً واشتمزازاً ،
وقلتم : هذه إباحية . . هذا كلام لا يكتب .

أجل معكم حق ، إنه لا يكتب ولا يقال ، إنه يؤتى فقط .
كلكم منافقون ، وأشدكم نفاقاً أكثركم تظاهراً بالحرص
على الفضيلة ، وتمسكاً بالأخلاق والتقاليد .
أجل التقاليد الزائفة التافهة .

إن ما فعلته في ليلتي يعتبر خيانة وفسقاً .
أندرون ماذا كان ينقصه حتى يضحى هو نفسه بتفاصيله

وحذايره ، وعلى نفس الفراش ، وتحت نفس الغطاء ، عملاً شريعاً لا غبار عليه ؟ .. شئ بسيط .. غاية في التفاهة .

أتذكرون ذلك الشيخ المعمم الذى قرأ وكتب ، وأباح لى يكتابه أن أرقد فى فراش إنسان غريب ، وأرتى فى أحضان رجل لا تربط بين قلبينا صلة ولا يشد روحينا عهد أو ميثاق ؟! ذلك العقد التافه هو الذى كان ينقصنى ، لئى يجعل منى فى نظركم امرأة شريفة ، ويجعل مما تسمونه فسقاً عملاً مشروعاً تأتونه حين ترغبون .

إلى الجحيم .. أتم ، وعقودكم ، وتقاليدكم .

هذه سخافات لم أعد أقيم لها وزناً .

إن زوجى الحقيقى هو ذلك الرجل الذى ربطتنى به موثيق الحب .. إن ما فعلته معه مشروع فى عرف نفسى .. أما ما فعلت ، فيما مضى .. فقد كان هو الفسق لاحتالة ، الفسق المشروع بالإكراه ، إكراه العقود الزوجية .

هذا من الناحية النظرية .. فإذا أتينا إلى الناحية الواقعية فأقسم لكم أنى جنيت من المتعة فى ليلة واحدة ما لم أجنه فى شهور وسنوات .. إنها مسألة تفاهم وتجاوب قبل كل شئ ، ليست مسألة أرتومانيسكية ، ولاهى بجسد يلصق بجسد ، بل هى قبل كل شئ ، تبادل مشاعر ، وانسياب عواطف ، هى جوهر

زاخر بالأحاسيس والانفعالات والحنين والحب واللهفة
والشوق .. هي أنفـس تـذوب وقلوب تتحلل ، وأرواح تختلط
وتتزوج ، وماعدا ذلك فهو عبث وهراء ، وعمر يذهب سدى .

فتحت عيني في الصباح ، لأشعر بذراعيه يحيطان بجسدى
وذراعى يحيطان بجسده ورأسى مدفون فى حنايا صدره وكأننا
روحان فى جسد .

ومضت فترة طويلة وأنا مخلدة إلى كسل لذيد وغمول تمتع ،
لا أريد التحرك أو الاستيقاظ أو النهوض .

كنت أمتع بدفء الفراش ودفء أنفاسه ، وكنت
أود ألا أستيقظ أبداً ، وأن أظل منطوية بين ذراعيه ،
ملتصقة بجسده ، حتى يطوينا القبر معاً .

ونفضنا أخيراً ، وكانت الساعة قد بلغت التاسعة ، دون
أن يبدو أثر لضوء الشمس بعد .. فقد كانت السماء ملبدة
بغيوم ثقيلة معتمة .

وأعددت الفطور ، وكان أحمد ، قد اضطجع على أريكته
فى الشرفة وبدأ على وجهه تقطيب وشروء .. واقتربت منه
أتحمس شعره برفق ، وأسأله النهوض للطعام .
وأمسك يدي ووضعها على شفتيه وأجاب فى صوت خافت :

— لا أستطيع الآن .

وسألت في دهش :

— ما بك ؟

— أشعر بمغص بسيط ، وميل إلى القيء .

— أرايت ؟ ألم أقل لك ؟ لقد أصابك برد من
سباحة الأمس ؟

وجلست بجواره ، وأسند رأسه على صدرى ، وأحطته
بذراعى وقلت له :

— لم لم تسمع نصيحتى ؟ أرايت أحداً سواك فى عرض
البحر ؟ أفى هذا الجو القارس يستحم الناس فى البحر ؟
— لقد كان الجو دافئاً بالأمس ، والشمس مشرقة .
— ولو .. إن الماء لاشك كان كالثلج .

— لقد تعودت من قبل أن أستحم فى الشتاء بالماء
البارد .. لم تكن هذه هى المرة الأولى .

— ولكنها ستكون الأخيرة .. إنك لم تعد طفلاً ..
يجب أن تسمع نصيحتى .. أين المايوه ؟ لابد أن أخفيه .
وضحك ضحكة مغتصبة وقال :

— لا داعى لذلك ، أؤكد لك أنى لن أستحم بعد الآن
وأخذت أنحس يديه وجبينه ، وقلت له مشفقة :

- بم تحس ؟

- لا شيء . مغص بسيط ، لا يستدعى منك كل هذا .

- قم . . يجب أن ترقد على الفراش ، وتدفأ جيداً .

- أوكد لك أنه لا لزوم لكل هذا . ليس بي ما يستحق

الرقاد أو التدفئة ؟

- لا . يجب أن تستريح ، وماذا يضرك من الفراش ؟

سأذهب لآتي لك به فنجان شاي . . وأجلس بجوارك
على الفراش .

وسحبته من يده ، وبدت على وجهه علامات التعب
وهو ينهض من مكانه ، وأحسست كأن المغص الذي به
يمزق أحشائي أنا . . وقلت له في لهجة حنون :

- أتألم كثيراً ؟

- لا . لا . ألم بسيط . يذهب ويحجى .

وأرقدته في الفراش ، ثم أحضرت له فنجاناً من الشاي ،
وجلست بجواره وأخذت أرقبه وهو يحتسى الشاي ، فرأيت
يبتسم وينظر إليّ بطرف عينيه ثم يقول :

- أرجو ألا تحكى عليّ بالرقاد طويلاً باحضرة الدكتورة

- لا تسخر مني . إنك في حاجة إلى الراحة .

وتناولت منه الفنجان بعد أن احتسأه وقلت له بحذرة

وأنا أنهض : « إياك أن تترك الفراش ، . !
ولكنى عدت إليه بعد بضع دقائق فإذا بي أراه أمام
المرأة ، يحلق ذقنه ، فصحت به غاضبة :
— أحمد . . يجب أن تلزم الفراش . . أرجوك .
وأجابني وهو ينظر إلىّ فى دهش :
— عايدة ، لا تكونى مجنونة . . ليس بي أى شىء . .
لقد ذهب المغص وأصبحت سليما ، كالجنى ، ، ليس لدينا
وقت لإضاعته فى أوهام المرض والرقاد .
ثم صمت برهة وأردف :
— هيا . ارتدى ملابسك .
— إلى أين ؟
— سنذهب إلى حديقة الورد ، أرايتها ؟
— لا .
— وتعمين بعد ذلك أنك محبة للزهور ! سيضيع
نصف عمرك إن لم تريها .
— ولكنى لا أستطيع الخروج قبل الظهر .
— لمه !
— لدى الطهى ، وتنظيف الدار .
— ليس هذا وقته يا عايدة . . سننظف الدار ، ونطهين

الطعام ، ماشئت التنظيف والطهى .. إن الايام المقبلة كثيرة .
دعينا نتمتع بالانطلاق والنزهة ، والبحر والحدائق .

— ومن يعد الطعام ؟

— نتناوله فى الخارج .. فى أى مطعم ...

— أمرك ...

ثم ترددت برهة وسألته :

— ولكن أوائق أنت من أنك سليم معافى ؟

— مائة فى المائة .. كالحصان الشقى المستريح .

وبعد فترة قصيرة كنا ننطلق بالعربة ، وقد ارتديت بلوزة
من الصوف ، ووضعت « إشارب » حول رأسى وأذنى ، وكان
هو يرتدى قميصاً وبنطلوناً وبلوفر طويل الأكمام مقفل الباقة .
وسارت بنا العربة على الكورنيش فترة من الرقت ،
والسما مازالت ملبدة بالغيوم المتكاثفة والبحر يهدر ، وتعالى
أمواجه وبتطاير منه الزبد والرشاش . ثم انحدرنا إلى شارع
« أبو قير » متجهين إلى حديقة الورد .

ووصلنا الحديقة ، وهبطنا الدرجات القائمة عند المدخل ،
وسرنا نجول فى طرقاتها . وكانت الحديقة تكاد تكون
خالية .. إلا من بستانى يعمل بفأسه فى الأحواض ومن آخر
يقص أحد الأسوار .

وكنا نسير متلاصقين .. وقد تشابك منا الذراعان ،
وتلامست الأكف ، وأخذنا نتحدث ضاحكين .

وهمست أقول ونحن نقف أمام أحواض الداليه التي
لم ترفع بعد :

— أتذكر يوم أتيت إلى لتخبرني أنك ترقيت ونقلت
إلى الحرس ؟

— أجل .. كنت أتوهم وقتذاك .. أنى قد بلغت أقصى
الآمل ، وأنى أمسيت إنساناً هاماً خطيراً .. ولم يخطر لي على
بال أن أبالك سبهز أبى ، ويردنى ملوماً محسوراً .

— لا تذكر هذا .. انزعه من ذاكرتك .. لم يكن
الذنب ذنب أبى وحده .. لقد كان ذنبنا كلينا .
— ذنبنا نحن ؟

— أجل . كان على أن أكون تجماعة ، وأن أنبئه أنه يستطيع
أن يأمرنى بأن أرتدى ما يشاء ، وأتناول من الطعام ما يريد ، ولكن
عندما تصل المسألة إلى الزواج .. فعلى أن أتزوج من أشاء ، أنا
وحدى التي سأحتمل عبء زواجى ، وأنا التي سأشقى به أو أتمتع
وبعد سنوات سيرحل هو عن هذه الحياة ، ويبقى الزوج فى
عنتى حتى يموت أحدهنا .. إن حياة المرأة فى زواجها ، فلها
وحدها أن تلتقى شريك حياتها . كان يجب أن أقول له هذا ،

وأنتبه بأنى قد اخترتك وحدك دون سائر البشر ، فإن رفض
رفضت ، وإن ثارت .. وكان عليك أيضاً ألا تخضع
وتستسلم .

— أنا لم أخضع إلا بعد أن خضعت أنت واستسلمت .
— حتى بعد هذا كان يجب عليك ألا تستسلم . كان يجب عليك
ألا تكون عاقلاً رزينا كما كنت . فهذه الظروف تستلزم شيئاً من
الجنون .. هل تدري أنى فى كثير من الأحيان كنت أفكر فى
أنك قد تحضر إلى فى ظلة الليل وتختطفنى فوق جوادك وتقربنى .
وانطلق يقهقه :

— لو علمت أن هذا يحول مخاطرك ، لأقدمت على
تنفيذه .. على أية حال لقد نفذته فى النهاية ، واختطفتك
فى جوف الليل ، وإن كنت قد استبدلت بالجواد عربة ..
— لا بأس .. لقد أصبحنا فى عصر ميكانيكى .
وشرد بى الذهن فى المستقبل المجهول العواقب ، المستور
وراء حجب من المتعة الطارئة والهناء السريع الأفل .
وقلت له فى لهجة أشبه بالدعاء :

— من كان يظن أن آمالنا ستتحقق فى النهاية ، وأن القدر
سيعدل فجأة عن قسوته ومكره السيء ، فيحطم كل تلك العقبات
ويجمعنا فى غمضة عين ؟ من كان يظن أن مصيرنا سيتحول مثل

هذا التحوّل السريع ؟ . ترى هل يكون هذا آخر تحوّل ؟ . .
— من يدري ؟

— ليتحوّل كما يشاء . . لقد عزمت على ألا أستسلم قط .
لن أتركك مهما حدث . . وأنت ؟
— معك حتى آخر العمر .

وبدألى « آخر العمر » كأنه شيء بعيد ، بعيد ، لا يدرك الذهن
مداه . . شيء وراء الآفاق . . كلما حاولنا بلوغه ازداد منا تأيلاً .
« آخر العمر » . . ما أبعد وأشد غموضه ، ونحن فى نشوة
الأمل ، وفيض السعادة . . ليسائل كل منكم نفسه ، عن آخر
العمر . . متى ؟ وأين ؟ . . وكيف ؟ . . بعيد . . بعيد جداً . .
أبعد من أن نفكر فيه .

ما من أحد منا إلا ويعيش أبداً . . إن حياتنا تبدو
بلا نهاية ، حتى ولو كنّا من النهاية قاب قوسين أو أدنى .
” وهكذا ملأ قوله « معك حتى آخر العمر » بالسكينة قلبى
وأفعم بالطمأنينة روحى

وقضينا اليوم بطوله ونحن نرتع ونترج . . كأننا — على
حد قوله — جياد طليقة فى مرعى خصب . . لا تحمل عبثاً ،
ولا تضيق بهم . . لا نعرف من حياتنا أمس ولا غد .
وأخيراً عدنا إلى الدار والظلمة قد سقطت ، وكانت

السماء قد بدأت تهوى رذاذاً خفيفاً كما الطريق طبقة لامعة
انعكست عليها أضواء المصابيح .

ووصلنا إلى الدار ، وأزلنا غبار اليوم ، وارتدينا ملابس
النوم ، وتناولنا العشاء ، ثم أوبنا إلى الفراش كأهنا زوجين .

ولم أك أعرف كم بلغت الساعة من الليل .. عندما
استيقظت فجأة على صوت أنين أحمد وهو راقد بجواري ،
وسمعت صوته يهتف بي في الظلمة :

— عايدته .. أيقظته أنت ؟

— أجل .. ما بك يا أحمد ؟ ما بك يا حبيبي ؟

— آه ! ..

وعاد أنينه يشق السكون ويمزق أحشائي .

وكانت الظلمة تسود الحجرة ولا أثر للصباح ، السهاري ،
الذي كان يضئ الصالة في أول الليل .

ونهمضت من الفراش وأنا أرتجف مذعورة وقد تملكني
اضطراب شديد ، واتجهت إلى مفتاح النور في الحجرة وأنا
أتحمس طريق يدي حتى وضعت يدي عليه فضغطته ..
ولكن النور لم يضئ .. وقلت لأحمد وقد زاد اضطرابي :

— أحمد .. إن الكهر با لا تضئ !

ووصل إلى صوته يجيب في خفوت :

— قد يكون أصابه تلف .: أضيق مصباح الغاز الموجود
في المطبخ .

وعاد يتأوه ويئن ، وسأله في صوت مرتجف :
— ما بك يا أحمد ؟

— مغص . . مغص شديد يمزق أحشائي .
وسرت أنحسس طريق في الظلمة الدامسة إلى المطبخ ،
وسمعت الريح تصفر والبحر يهدر ، وقطرات الماء للثقل
تساقط على زجاج نوافذ الشرفة ، ونجاة أضاء في الشرفة ضوء
ساطع سرعان ما اختفى ، ثم أعقبه دوى شديد .
وما أظنني قد خفت من قبل من المطر والبرق والرعد . .
ولكن في تلك الظروف القاسية بدت لي تلك الظواهر الطبيعية
كأنها جزء من خطة هجومية خفيفة يوشك أن بصوبها إلى القدر .
كان كل ما حولي سلسلة متصلة الحلقات من عوامل
الخوف والذعر .

أين أحمد ، والظلمة الدامسة ، وهدير الموج ، وطرقات
المطر ، وعصف الريح ، ثم لمع البرق ودوى الرعد ، كل ذلك
تعاون على أن يحسد لي شبحاً خيفاً يوشك أن ينقض عليّ .
وبدأ لي أن دهرأ مضى قبل أن أعثر على المصباح وأوقده
ثم سرت أحمله في يدي ، وقد أخذ ضوؤه يرتجف ويهتز .

وعلى صوته الشاحب أبصرت أحمد وقد حاول أن يبدو هادئاً ،
وأن يكتُم صيحات الألم التي توشك أن تفلت من صدره .

ووضعت المصباح على المنضدة .. وركعت على ركبتي أمام
الفراش ورضعت خدي على خده وقلت في لهجة باكية :

— بماذا تحس يا أحمد؟ ماذا يوجعك؟

وأجاب وقد كما شففيه شبح ابتسا،

— لا تقلقي نفسك .. تلك نوبة سرعان ما تزول ، لقد
أصبت بهامة مندسنة ، ومرة منذ بضعة أشهر ، وقد شك الطبيب
في أنها لا بد أن تكون أعراض الزائدة الدودية . على أية حال
لا بد من إجراء العملية في أقرب فرصة ، عندما نعود إلى القاهرة .
وكان يتحدث بنبرات متقطعة وصوت متعب منهجج ..
وقلت متسائلة :

— إذا فلم يكن ما حدث لك في الصباح نتيجة برد؟

وهز رأسه بالإيجاب ، وقلت له مؤنبة في لهجة حنون .

— لم لم تقل لي

— وما الفائدة؟

— كنا نستطيع أن نذهب إلى أحد الأطباء .

— وماذا يمكن أن يفعل؟ إنها نحتاج إلى عملية جراحية ،

وأظننا نستطيع الانتظار ، فهي ليست مسألة خطيرة ولا عاجلة .

- بم تحسن الآن؟

- أحسن .

ولكنه لم يكن أحسن .. بل كانت حالته تزداد سوءا .
ولم يعد يستطيع الحديث ، وأغمض عينيه ، وعاد إلى الأنين
الخافت المتقطع ، وبدأ لي كأن قشعريرة تسرى في جسده .

وعاد البرق يضئ والرعد يدوى ، واشتد صفير الريح من
خلال زجاج النوافذ ، ووجدت نفسي أرتجف وأنا أمسك
بيده .. وأخذت أناديه بصوت ملؤه الحنان والتوسل :

- أحمد .. أجبني .. قل بم تحسن ؟ قل شيئاً ؟

- آه ...

ولم يزد عن ذلك ، ومرّ بذهني ما عرفته من قبل من أن
نوبات الزائدة قد تنتهي أحياناً بانفجارها وتسم المصاب
إذا لم يسعف بعملية تستأصلها .

وأحسست أن رأسي يوشك أن ينفجر ، وأن قلبي
يعوص بين جنبي ، وأن حلقي جف .

لقد قال أحمد إن النوبات انتهت في المرات السابقة على
خير .. ولكن ماذا يحدث لو انفجر في هذه المرة ؟ .

وقفزت من مكاني كأن أفعى قد لدغني .

كيف أجلس هكذا عاجزة ؟ يجب أن أحضر طبيباً ..

يجب أن أفعل شيئاً لإسعافه .
'واندفعت من الباب في جنون ، عارية القدمين ، لا يستتر
جسدى سوى البيجامة .
لن يهزمنى القدر هذه المرة ، سأقاوم وأقاوم ، لن ينتزعه
من يدي أحد ، حتى ولا الموت .

وصدمتنى هبة من الريح عاصفة عاتية ، وأحسست بقطرات
المطر تنهمر على رأسي ووجهي وجسدي ، وكانت الظلمة دامسة
إلا من لمحات البرق ، تنير الكون برجة ثم تتركه أشد حاكم .
وفي لمح البصر كنت قد هبطت الدرج واجتازت ممر
الحديقة ، وأخذت أعدو في الطريق .
إلى أين ؟ . ومن أستعين ؟

لا أدري .. كنت أندفع في العدو متطلعة إلى بارقة
ضياء ، أسأل فيها عن أقرب طبيب .. أو أقرب تليفون ..
أستدعي منه طبيباً ، أو أطلب الإسعاف .

وكلت قدماي ، وتقطعت أنفاسي ، وأنا لا أبصر سوى
ظلمات فوق ظلمات ، وكان الماء يتساقط من شعري ومن
وجهي ، وثيابي قد التصقت بجسدي فبعد أن بللها المطر الذي
ما زال ينهمر من السماء كلما زيب

أما من ضوء ؟ ثيابي من كائن حي ؟

ماذا أفعل؟ حاولت أن أصرخ . . فضاعت صرختي
بين هدير الموج وعصف الريح .

أيمكن أن يكون ما أنا فيه حقيقة واقعة؟ أحقاً أسير
على شاطئ البحر في الظلمة الدامسة ، مبتلة الثياب ، عارية
للقدمين؟ أتلك السائرة كالتخايل هي أنا؟ أم أن كل ما بي
لا يعدو حلياً مزججاً وكابوساً مخيفاً؟

أحقاً أنى تركت أحمد وحيداً بين الحياة والموت؟ .
ولكن كيف تركته؟ يالئ من حمقاء طائشة مجنونة؟
كيف فقدت أعصابي فاندفعت هكذا أعدو في الظلام
وأضرب على غير هدى؟

أما كان يحذر بي أن أبقى بجواره فقد يكون في حاجة إلى؟
أجل . يجب أن أكون بجانبه . إنى لن أستطيع أن أعثر في
هذا المكان المهجور ، وفي ذلك الجو العاصف ، والظلمة الخالكة
والساعة تربو على الثانية أو الثالثة بعد منتصف الليل على مخلوق
يعيننى . . فيجب أن أعين نفسي ، أو على الأصح أستعين بالله ،
الذى لا أظنه غافلاً عني ، إذا ما الناس كلهم غفلوا !

وعدت ثانية إلى الدار ، أعود وأنحبط ، مبهورة
الأنفاس ، مرهقة الأعصاب ، مكدودة الحسد ، وصعدت
لدرج وأنا أترنح كالذبيحة .

ودفعت الباب فإذا بالظلمة تسود المكان ، ولا أثر لضوء
المصباح الشاحب الذى تركت أشعته يتراقص وتهتز .
واندفعت إلى حجرة أحمد وأنا أكاد أتهادى ، فإذا
بالريح تصفر فيها بعد أن دفعت إحدى التوافذ ففتحتها على
مصراعها ، وأخذت تحدث بها طرقات شديدة مفزعة .
وأغلقت النافذة ، ووقفت فى الظلمة الهت . وصحت
أنادى فى صوت مبجوح : . أحمد . .
ولم يجنى أحد . ولم أسمع وسط السكون السائد أى
صوت . . لا أنين ، ولا تأوه ، ولا حتى حفيف أنفاس .
وتذكرت الزائلة الدودية ، والانفجار ، والتسمم .
وانطلقت منى صرخة مدوية . . صرخة لا تفرق عن
صرخات المجانين . وأخذت أنادى :
— أحمد .

وما من مجيب .
وركعت على ركبتى أنحس الفراش ، وأخذت يدى
تنحسنان جسده ، واستقر وجهى على وجهه وأنق على أنفه
وأحسست بأنفاسه تنصاعد خافئة متقطعة .
حمد الله . . إتنا ما زلنا معاً . . فى حياة واحدة .
ونهضت أنحامل على نفسى . وأنلس طريقى إلى المصباح

الغازى ، حتى أوقده ، فقد كنت فى أشد الحاجة إلى بصيص
من الضوء ينشأت من أعماق تلك الظلمات المخيفة .

وأوقدت المصباح ، وعاد ضوؤه يتراقص فى يدي ويهتز
واقتربت به من أحمد ، ونظرت إلى وجهه ، فإذا به شديد
الشحوب ، جامد الملامح ، كأنه تمثال من الشمع ، وقد
أحاطت بعينه هالة سوداء زرقاء .

ولمحت جفنيه يرتجفان ، ثم أخذ يفتح عينيه بتأقل
وسمعه يهمس :
— عابدة .

وركمت بحواره وأجبتة فى صوت حاولت جهدى أن
أجعله طبيعياً :
— أحمد . . إني بحوارك .

— اقتربي . . ضعى يدك على شفتي .
ووضعت يدي على شفتيه فسرت منهما فى جسد
قشعريرة جعلتني أنتفض انتفاضة الطير الذبيح .
وعاد أحمد يهمس :

— إني أحبك يا عابدة ، وأحب الحياة من أجلك . . كم
وددت ألا أتركك وحدك فى هذه الدنيا .
— لا تتكلم هكذا يا أحمد . . أنت مخير يا حبيبي .

— أنا بخير ما دمت بجوارى . دعيني أنحس شعرك .
ومد يده ببطء ووضعها على رأسى ، ثم عاد يهمس :
— إن شعرك مبتل . . وكذلك ثيابك . . له ؟
— لقد كنت في الخارج . . وكان المطر ينهمر بشدة .
— إنك ستصابين بالبرد لو بقيت في هذه الثياب . أرجوك
أن تستبدلي بها غيرها . . كيف خرجت وحدك في الظلمة ؟
— كنت أحاول أن أستدعى طبيباً .
— طبيب ؟ وما الفائدة ! لقد انتهى كل شيء . . إنى أحس
السم يسرى في جسدى ، لقد ذهب الألم ، وذهب العمر معه .
وصمت أحد . . ولم ينبس بعد ذلك ببنت شفة .
أجل . . لقد بلغ آخر العمر

* * *

آه من القدر ومن سخريته المريرة !
« آخر العمر » . . الذى كان يبدو لنا منذ بضع ساعات
لا يزيد عن مجرد كلمات ليس أسهل على المرء من أن ينطق
بها . . دون أن يحاول أن يفهم لها معنى . . فهى أبعد من أن
يحاول الذهن مجرد تصورها .
« آخر العمر » . . البعيد . . الموهوم . . المزعوم . .
قد بلغناه في غمضة عين !

بين يوم وليلة قد قطعنا الطريق الذي كان يبدو بلا نهاية
ووضحت لنا نهايته بشعة خيفة .

هل تستطيعون أن تتصوروا حالى وأنا أركع بجوار
فراشه . . وقد كف عن المنطق ١٩

لكي تدركوا حالتي جيداً . . يجب عليكم أن تعرفوا أولاً
أنى لم أبصر ميتاً فى حياتى من قبل . . وما عرفت قط كيف
يموت الإنسان . . بل كان الموت والموتى والمآتم والقبور ،
ومعدات الدفن ، والجنائزات ، كلها أشياء لا أكاد أعرف عنها
إلا ما يعرف الإنسان عن الأشباح والعرافيت . . كانت
أشياء بعيدة عن ذهنى . . أتصورها بخيفة مهمة غامضة .

كنت إذا سمعت صراخاً من بعد اقشعر بدنى . . وإذا
رأيت سراقق ميت أحسست بغشاوة على عينيّ

تصوروا بعد كل هذا . . أجد نفسى وحيدة فى بهمة
الليل . . الريح تصفر من وراء النوافذ وتئن وتغول وترن ،
والضوء الشاحب يرتجف ويهتز ، وأنا جالسة . . أمام ميت ١١
وأى ميت ١١

لا . . لا . . لا يمكن أن يكون ميتاً . . من المحال أن
يموت أحمد . . إنه مازال أمامى كما هو ، بعينه ، وشفتيه ،
زقامته الطويلة الممدودة على الفراش .

سأقبله كما تعودت أن أقبله . . لا بد أن توقظه حرارة
شفتي ، ودفع أنفاسي .

وأحسست من شفتيه برودة خفيفة ، ولم أشعر بصيد
أنفاسه الذي كان يلفح وجهي .

وأخذت أناديته في صوت متحشرج مبجوح :

- أحمد . . أحمد . ؟ أنا عابدة يا أحمد !

وخيل إليّ أني أسمع صدى صوتي يجيب علي . أحمد . .
أحمد ، كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ ! ! ولأي حكمة ؟ ولأي
سبب ؟

منذ لحظات كان ملء يدي ، وملء أحضاني ، والآن
أجده مسجى لأحراك به . . أناديته فلا يجيب ، وأقبله فلا
يشعر . . وأبذل بدمعي وجهه فلا يسألني : لم أبكي ، وهو
الذي ماروَّعه في الحياة شيء كبكائي ؟

هل يمكن حقاً أن يذهب هكذا . . بمثل هذه البساطة ؟
أيذهب كأن لم يكن ، ويصبح ميتاً كلابين الموتى الذين لم يبق
منهم إلا أديم الأرض ؟

ماذا يفعلون بالموتى ؟ ليست لدى أقل فكرة ، إلا أنهم
يوارونهم التراب .

أنا أوارى أحمد التراب ؟

أنا أتركه بـدفن وحيداً في باطن الأرض ؟

لا كنت ، ولا كانت الأرض ، ولا كانت السماء !

لا .. لا .. ليفعل الناس بموتاهم كيف شاءوا .. أما أنا

فسأفعل بميتي الحبيب ، ما يحلو لي ، لن أتركهم يأخذونه مني ..

لن أتركهم يوارونه التراب ، فأواه بين ذراعي ، لا بين

الأجدات .. إني لن أتركه ، ولو أطبقت السماء على الأرض .

سأنام بجواره ، وآخذه بين أحضاني ، سواء عندي

أكان حياً أم ميتاً .. إن أحمد سيبقى أحمد ، لن أعترف بفعل

القدر ، ولن أدع أحداً ينزعه من بين ذراعي .

ليشعر .. أو لا يشعر .. ماذا يضربني ما دام يرقد

بجوارى وأرقد بجواره ؟

لقد بدأت ألؤل خيوط الفجر تنسلل من نسيج الليل المعتم ،

وهو ما زال بين أحضاني جثة هامدة ، وجسداً لا حراك به .

ألا يحتمل أن تعود إليه الحياة ؟ . أليس الله بقادر على

كل شيء ؟ قادر على أن يحيي العظام وهي رميم ؟

هذه ليست عظاماً ولا رميمها .. بل لم تصبح بعد كذلك ..

فهى مازالت .. أحمد .. كما هو .. وكما كان دائماً .

ليعيده الله إلى .. ليحييه لي .. ما فائدة قدرته تلك إن لم

يعد إلى أحمد ؟

ولكن لم أخذه؟ . ولم أعطاه لي ، إذا كان بنوى أخذه
مثل هذه القسوة ؟

لم يفعل معي كل هذا ؟ . أنا المخلوقة الضعيفة . . التي
لا حول لها ولا قوة إلا به .

لم يسخر مني هذه السخرية ؟
إني أكره الله كما كرهني . . إني أكفر به لما قسا عليّ ،
لقد كنت ملحدة بالحب ، فأصبحت ملحدة بالله ، وبكل شيء .
إني لم أفعل ما أستحق عليه كل هذا .

ولم هذا التدبير المفجع المحكم ؟
لو أني فقدته قبل الآن . . لكنت أستطيع أن أصبر ،
وأنجلى ، وأحتمل . . ولكن الآن . . وبعد أن أصبح لي
وحدى . . الآن بعد أن قرب الكأس من شفقي . . أنا المهجورة
الصادية ، التي طال بها الظأ والحрман ، وبعد أن أحسبت
بقطرات الماء تبل شفقي وتندى على روحي ، تنزع مني الكأس
وتحطم على صخرة الفناء ، ويراق ما بها في وادي الموت .
لم يارب كل هذا ؟ أترك في حاجة إليه أكثر مني ؟ .

هؤلاء البشر . . كلهم عبيدك الذين يملأون رحاب الأرض . ألم
تجد بينهم من يغنيك عن أحمد ؟ المخلوق الوحيد الذي أملكه
في هذه الأرض ، بين الملايين من المخلوقات التي تملكها أنت ؟

لا .. لا .. هذا كثير .. أعده إلى يارب .. ردّه إلى ..

ألا تسمع !

أنت موجود يارب .. أنت لاشك تسمع .. ردّه إلى ..
ردّه .. أو لا تردّه .. إني لن أتركه .

سأحكم غلق الباب والنوافذ .. سأتحصن داخل الدار ..
سأتحدى الأرض والسماء .. ليتقدم من يشاء لأخذه
وسأريه كيف تكون العاقبة .

إني أحس برجفة شديدة .. ما زالت ثيابي مبتلة .. لقد
أمرني بتغييرها .. استظر سأعود إليك حالا بعد تغييرها .

سألف جسدي في البطانية .. فأنا أعرف أن منظرى
هكذا يعجبك .. لا حاجة بك إلى الرد علي .. فإني أستطيع
أن أضمن ردّك .. إننا نستطيع التفاهم دون أن يكون بك
حاجة إلى الكلام .. إني أعرف كل ما يدور بذهنك .

وارتميت منهالكة على أحد المقاعد .. وأغضت عيني ..
لشد ما أنا مجعدة متعبة .. واستغرقت في إغفاءة .. مملوءة
بخليط مهوش من الأحلام .. تارة أجدني أزف إلى أحمد ،
وتارة أجدني غريقة معه .

وصيبت من إغفائي .. لأجد الجسد المسجي أمامي ..

ولأجد كل شيء كما هو .. كل شيء موحش خرب .
ونظرت أمامي .. فإذا بي أرى امرأة غريبة .. امرأة
شاحبة الوجه .. حمراء العينين .. مشوشة الشعر .. أشبه
بالمجانين .. ترى من تكون ؟
إنها تلف جسدها في بطانية .. مثلي تماماً .
من هي ؟
إنها تتحرك كما أتحرك ، وتهز رأسها كما أهرز رأسي .
واعجباً ! .. إنها أنا !
أجل تلك هي صورتي في المرأة .
ما أشد شبهي بالمجانين ، ولكن أجننت فعلاً ؟
لا .. لا .. إني مازلت بعقلي .
ولكن هل يدرك المجانين أنهم مجانين ، أم يحسون كما
أحس بأنهم في تمام العقل ؟
يجب أن أهدي نفسي .. وأن أحاول التفكير .. تفكيراً
منتظماً كالعقلاء .
من أنا ؟ وماذا فعلت ؟ وماذا أنوي أن أفعل ؟
أنا امرأة . حاربة من زوجها ، لا يعرف الناس عنها
إلا أنها امرأة خائنة فرت مع عشيقها .
ليكن .. إنه لا يهمني ما يقول الناس .

ماذا حدث لى ؟ لقد مات أحمد .. مات عشيقى فى نظر
الناس ، ومات توأم نفسى فى نظرى .. مات المخلوق الوحيد ،
الذى يربطنى بالحياة والذى يستحق من أجله أن أحيأ ..
لقد ضاعت منى الغنيمه التى حاولت اختلاسها من القدر ..
لقد استعادها هو مرة أخرى وإلى الأبد .

والآن يرقد أحمد أمامى ، مسجى على الفراش ، جثة
هامدة ، لا حراك بها .. ماذا أنوى أن أفعل ؟
أحتفظ به ؟ أبقيه هكذا أمامى إلى الأبد ؟
هذا هو الجنون بعينه .. لن أستطيع أن أحتفظ به ،
فلقد تسلسل من بين يدى .. لقد ذهب .. وكل ما يمكننى
الاحتفاظ به ، هو جسد سيتحلل ويتعفن ، ولا يضحى به
شيء من أحمد .. بل سيضحى .. جيفة نذرة .
إنى لن أستطيع أن أبقيه ، ولكنى أستطيع شيئاً آخر ،
أكثر سهولة .. إنى أستطيع أن أذهب معه !
أجل .. تلك هى خير وسيلة ، لكى لا افترق .
لقد كان هو كل مالى فى الحياة ، وما دام قد ذهب
فماذا يبقىنى ؟

وأحسست بالراحة والاستقرار ، وشعرت أنى بت سيدة

الموقف ، وأن حزني قد تبدد . وعلام الحزن ، وأنا سألحق به
بعد لحظات ؟

سأذهب سوياً ، سأترك للناس ، جسداً آخر ، ينهشونه
بأسننتهم الخداد .

ولكن لم ؟ إني مظلومة . . أبعد كل مالقيت ، أذهب
هكذا مشبعة باللغات كأى مذنبه بجرمة ؟
أما يجب أن أدافع عن نفسي ؟
يجب أن أقول شيئاً .

إني الآن جامدة الحس ، باردة الأعصاب ، أستطيع
أن أجلس بمنتهى السهولة ، وأكتب لكم هذا الشيء .
أجل هذه هي كراسة أحمد التي كان يقرض فيها الشعر ،
والتي لم تكن تفارقه أبداً . . إنها خير ما أكتب فيه قصتنا .

* * *

إن الساعات تمر ، وأنا مكبة على المنضدة ، وأحمد راقده
ورائي على الفراش . . إني أكتب وأكتب ، ولا أفعل شيئاً
غير الكتابة ، لا آكل ولا أنام .
ما حاجتي إلى الأكل والنوم ، وأنا سأغادر هذا الجسد
الفاني بعد قليل ؟

إن الشمس تشرق وتغرب ، والليل يكر في إثر النهار ،

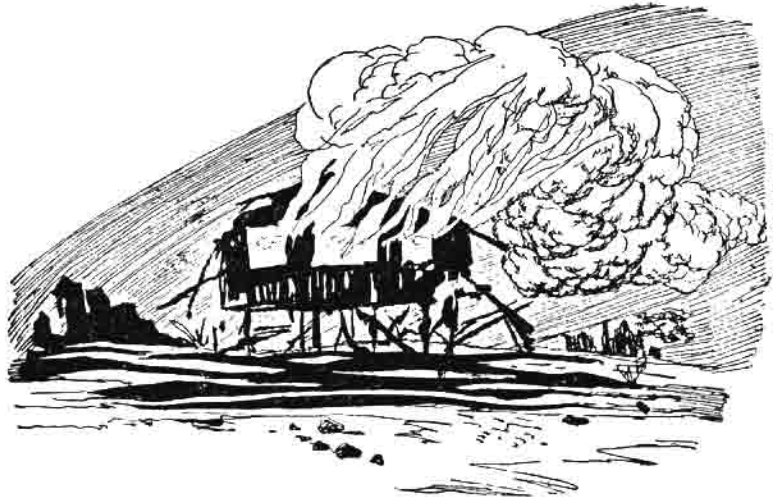
والنهار في إثر الليل ، وأنا لا آبه لليل ولا نهار ، لتشرق الشمس
وتغرب كما نشاء ، إلى أكرهها ، إنها جامدة قاسية ترقب مآسى
البشر .. بلا حس ولا شعور ، ما احتجيت قط لحزن ولا أسى !
لقد انتهيت من الكتابة .. انتهيت من تسجيل دفاعي قبل
أن أرحل ، ولست أدري بعد هذا ، كيف سيكون حكمكم علي ؟
ليكن ما يكون ، فما أظنني سأبه له كثيراً بعد أن أذهب
عن دنياكم !

سأضع الكرامة في حقيبة جلدية ، وأقذف بها من النافذة ،
ثم أشعل النار في الدار .. سأحتضن أحمد ، حتى تحترق سوياً ،
وحتي بفني جسداً ناعماً ، ويختلط منا الدخان ويتمزج الرماد ..
تلك هي خير نهاية .. لن نفترق لاجسداً ولا روحاً .
اني أعلم أن الله لا يرضى عن الإلحاح ، ولكن حتى هذا
لا أدري له سبباً .

عجاً !! أبعد كل ما فعل بي ، يجبرني على البقاء في دنياه ؟
ألا يهب لي .. حتى حرية الخروج منها ؟

اللهم اغفر لي كفرى وإلحادى .. اللهم اغفر لي فرارى
من الدار الفانية إلى الدار الباقية .. اللهم اغفر لي صعودى
إليك بدون إذنك .

ولكن .. لا .. إن كل شيء في الحياة لا يحدث
إلا بإذنك .. إنك غفور كريم وحيم .



الخاتمة

بهمة الليل . . وحلقة الدياجير . . والكواكب
في ترتجف في السماء شاحبة ذابلة تقلب في الأرض
 مقللاً أرمدها البكاء . . وكسف أضواءها الحزن . . والريح
 تعصف صريراً عاتية . . تصرخ بالبكاء ، وتصدع بالعويل .
 والبحر يهدر ويزجر . . ثائحاً ملتاعاً . . يلطم بكف الأمواج
 خد الصخور . . ويسكب من الرذاذ حر الدموع .

وسط هذا المأتم القائم بين السماء والأرض . وفي هذه
 الجنازة المشيعة من عناصر الطبيعة النائرة القانطة المعولة
 النائمة ، السائمة الوجود ، الطالبة الفناء ، المنذرة بالخطوب
 والشدائد ، بدأ الكوخ كالميث المسجي ، أو كسراب الأمل
 الضائع في بلقع العيش ، أو كالصدى المتبدد لمتعة غابرة .

لو تراء علت أن الليالى

جعلت فيه مأتماً بعد عرس

في هذه الزوبعة الصارخة الباكية . . بدأ الكوخ في
 سكونه وصمته لا يكاد ينم عما به من جمرات الخرفة وشعل
 الجوى . . بل بدأ جريشاً على وحشة الليل وعويل
 الرياح . . رابط الجأش على هول ما يحدث فوقه وتحت من
 أحداث ونواب .

وجأة تعالت من جوانبه التي لفها الليل بحلته السنة
من هب .. بدا كل منها في أول الأمر ضئيلاً خافتاً، يضطرب
في مهب الريح ويرتجف .. يكاد يحبو كلما عصفت به الهبة
تلو الهبة، فهو يرق وينطفئ ويخمد ثم يعلو .

ولكنه أخذ يشتد على الريح، ويقوى على العواصف .
وتعالى في الظلماء جريئاً متحدياً ساخراً بكل ما فوقه
وما حوله، مبدداً من ظلمات الليل ما لم تستطعه النجوم
المرتجفة السكيفة، ومستمدداً من عصف الريح قوة، ومن
هدير البحر أنغاماً يتراقص عليها، مضيفاً بصفيره لحناً جديداً
إلى ألحان النواح والعيول في مآتم الطبيعة، مشاركاً العناصر
الصاخبة في أنشودة اليأس والفناء .. مقدماً نفسه زميلاً في
الخطب، وشريكاً في البأساء .

وهكذا استمرت الريح العاصفة واللهب المتأجج والبحر
النائر تنشد لحناً رثاء لما درس من ذاهب الحب وبائد الهوى،
مشبعة المراحلين بأنفاس ملتبة اللظى محتدمة السعير، وقطرات
من الدموع مثقلة بالحزن مفعمة بالجوى، وأخيراً خفت
اللهب، وخذت النيران . وطوت الظلمات أضواءه ..
وأسكتت صفيره .. وهبت الريح تذروا الهشيم كما ذرت
من قبل ربح الحياة دارس الأمل وضائع الرجاء .

ولاح ضوء الفجر .. على سكون سائد ، وصمت محم ..
كان الطبيعة قد انتهت من ماتمها وعادت من جنازتها متعبة
منهكة .. فلا موج ولا نوء ، ولا رياح هوج .. بل الكل
مخلد إلى الهدوء .

والكوخ قد عفت آثاره فلم يبق منه سوى قائم أسود
أشبه بشواهد القبور ، يشهد بأنه في هذه البقعة تعانقت
روحان لم يستطع الموت أن يفرق بينهما ، وأنه فيها
ازدهرت شجرة حب وفيها صوحت وماتت .

وعلى مقربة من أكوام الرماد والدخان والبقايا المحترقة
شوهدت حقيبة جلدية لم تتناول إليها ألسنة اللهب وقد
فتحت ، وأخذ النسيم يعث بأوراق كراسة بها .. هي كل
ما تبقى ليروى لنا قصة راحلة .

وتحت الانقاض المحترقة .. استقر هيكلا متعانقان
لم يبق منهما إلا ذوب رميم أو فتات هشيم .

فہرست

صفحة

الإعلاء	٥
مقدمة الطبعة الأولى	١١
» الثانية	١٤
الفصل الأول	١٧ — ملحدة
» الثاني	٣١ — ميلاد جديد
» الثالث	٥٣ — البقية تأتي
» الرابع	٧١ — أمنية مشتركة
» الخامس	١٠١ — عرييد يتنصر
» السادس	١٢١ — في حجيم من القبل
» السابع	١٣٧ — الطبقة السفلى
» الثامن	١٦٩ — عتاب
» التاسع	١٨٧ — في انتظار المني
» العاشر	٢١٣ — قيد ثقيل
» الحادي عشر	٢٤٧ — الطير ينلت
» الثاني عشر	٢٨١ — عصية الذئاب
» الثالث عشر	٣١٥ — على شفا الهاوية
» الرابع عشر	٣٤٣ — ما تشتهي السفن
» الخامس عشر	٣٧١ — ماعة تفضل العمر
» السادس عشر	٤٠٥ — خروج بلا إذن
الخاتمة	٤٣٥

الناشر
مكتبة النخاعي بالقاهرة

